بسم الله الرحمن الرحيم

سلسة العقيدة الصحيحة

الحمد لله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أما بعد:

فهذه دورة علمية بعنوان : معالم العقيدة الصحيحة ، سنتناول فيها إن شاء الله طائفة من أصول المعتقد الصحيح والجوانب المتعددة من العقيدة الصحيحة عقيدة أهل السنة والجماعة، نتحدث فيها بإذن الله تعالي عن مقدمة في العقيدة وأهميتها وأصولها ومميزاتها وخصائصها وفوائدها وثمرات المعتقد الصحيح .

ونتحدث كذلك عن سلسلة في التوحيد وأنواعه والشرك وأنواعه والإيمان قول وعمل والقضاء والقدر والصحابة والتوسل والإيمان بالغيب ومصادر التلقي والعقل والنقل والتبرك وغير ذلك من الخطوط العريضة التي ذكرها علماء أهل السنة والجماعة رحمهم الله عن هذه العقيدة المباركة .

إن هذه العقيدة الإسلامية التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه وأوجبها علي جميع خلقه أن يعبدوه وحده لا شريك له ، هذه العقيدة المباركة اتجهت لها همم العلماء فأفردوها بالتصنيف واجتهدوا في نقلها وتعليمها وسنتعرف بمشيئة الله أولا على العقيدة لغة واصطلاحا، وكذلك ماذا يطلق عليها عند العلماء مثل كلمة العقيدة وكلمة السنة ؟ وكذلك التوحيد وأصول الدين والفقه الأكبر والإيمان والشريعة.

أما بالنسبة لمعني العقيدة لغة :

فإنها مأخوذة من العقد والربط بقوة ، ومنه الإحكام والترابط ، ويطلق علي العهد ، واليمين يطلق عليه عقد أيضا، وكل ما عقد الإنسان عليه قلبه فهو عقيدة.[1]

أما اصطلاحا:

فإن العقيدة تطلق علي أمرين : عام وخاص :

فأما في الاصطلاح العام :

[1] – راجع : لسان العرب (2/396–398) ، الصحاح (2/510–511)

فإن العقيدة هي الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك لدى المعتقد بصرف النظر عن نوع الاعتقاد حق هو أو باطل .

أما في الاصطلاح الخاص :

فكلمة عقيدة في كلام العلماء هي الإيمان الجازم في الله وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره وما أجمع عليه السلف الصالح ، وكل أمر سواء كان عقديا أو عمليا يعتريه الشك لا يسمي عقيدة . [1]

فالعقيدة إذا لابد أن يكون مجزوما بها ومقطوعا بها والقلب معقود عليها ، وهي تخص الأعمال القلبية غالبا من أمور الدين مثل الإيمان والخوف والرجاء ونحو ذلك ولا ترتبط بالأعمال الظاهرة إلا من جهة خاصة مثل اعتقاد تحريم الربا والعمل بهذا الاعتقاد .

كلمة العقيدة كلمة شائعة ولكن لو قال قائل : هل وردت هذه الكلمة في الكتاب أو السنة ؟ فربما لا تجدها في الكتاب والسنة بهذا النص (عقيدة) ولكن معناها حق لأن مادة "عقد" في اللغة مدارها علي توثيق الشيء ، وقال تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .(البقرة–225) .

وقد ألف العلماء تحت هذا الاسم (العقيدة) مؤلفات :

فمنها شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة الله اللالكائي المتوفى سنة 408 ، كتاب عقيدة السلف لأصحاب الحديث لأبي عثمان إسماعيل الصابوني المتوفى سنة 449 ، الاعتقاد علي مذهب أهل السنة والجماعة لأبي بكر البيهقى المتوفى سنة 458 ، وكذلك الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للعلامة أحمد السفاريني المتوفى سنة 1118 ، وكذا ما ألف الشيخ عبد العزيز بن باز مثل كتاب العقيدة الصحيحة وما يضادها .

---

[1] – راجع: الوجيز في عقيدة السلف الصالح (ص11)

تأتينا كلمة السنة في اللغة بمعني الطريقة والسيرة منها قول النبي صلي الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم)[1] ، أي طريقتهم في الدين وقال (مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً فلَهُ أَجْرُهَا وأجر من عمل بها)[2]

وشرعا : فلها معان متعددة عند العلماء في اصطلاحاتهم المختلفة :

فمثلا علماء الحديث ، السنة عندهم هي ما أضيف للنبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وعند علماء الفقه السنة هي ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وعند الأصوليين ما أمر به الشارع لا علي سبيل الإلزام والحتم ، وعند علماء العقيدة السنة هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات في الاعتقادات في مسائل الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك من أصول العقيدة .

لماذا أطلقوا علي العقيدة اسم السنة ؟

تمييزا لأهلها عن الذين افترقوا عن السنة من المبتدعة بأنواعهم ، وقد كان هذا الاصطلاح في القرن الثالث الهجري أي في عصر الإمام أحمد رحمه الله ، لما ظهرت الفرق وراجت عقائد المعتزلة والرافضة والصوفية وأهل الكلام فصار أئمة الإسلام يطلقون علي العقيدة كلمة السنة تمييزا لها عن هؤلاء المبتدعة وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما (من ترك السنة كفر)[3] فهذه الكلمة منه – على أحد القولين – بمعني العقيدة التي نتحدث عنها . والتكفير لا يكون إلا في أمر عظيم في أصول الدين وأمور الاعتقاد الأساسية .

هل ألف العلماء في السنة بمعني العقيدة ؟

الجواب ، نعم . ألف الإمام ابن أبي شيبة المتوفى سنة 235 كتاب السنة ، وألف الأثرم المتوفى سنة 273 كتاب السنة ، وألف أبو داوود المتوفى سنة 275 كتاب السنة ، وألف ابن أبي عاصم المتوفى سنة287 كتاب السنة ، وألف عبد الله ابن الإمام أحمد رحمه الله المتوفى سنة 290 كتاب السنة ، وألف المروزى والخلال والهروى كتبا تحت اسم السنة بمعني العقيدة أيضا .

---

[1]- متفق عليه

[2] – رواه مسلم (1017)

[3] – رواه الطبراني في المعجم الأوسط (7846) وإسناده صحيح .

كلمة التوحيد إطلاق ثالث علي العقيدة المرادة والمقصودة ، والتوحيد لغة هو الإفراد ولا يكون الشئ مفردا إلا بأمرين : الإثبات التام والنفي العام ، فلو قلت مثلا زيد قائم فهل أفردته بالقيام بعبارتك هذه ؟ لم تفرده لأن غيره قد يكون قائما أيضا . لكن متى تُفرد زيدا بالقيام ؟ إذا قلت مثلا ما قام إلا زيد ، فأثبتّ القيام له ونفيته عن غيره .

ولذلك فإن التوحيد هو إثبات الوحدانية لله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ونفي ذلك عن غيره فنقول لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ، ولو قلت مثلا أن التوحيد هو أن الله هو المعبود فنقول : هناك معبودات أخري ، لا بد أن نقول لا معبود بحق إلا الله، هذا هو التفسير لكلمة لا إله إلا الله ، فأنت تنفي أن يكون هناك من يعبد بحق إلا الله .

التوحيد يطلق علي باب العقيدة وليس هو كلها ، مثلا موالاة الصحابة داخل في الاعتقاد ولكنه لا يدخل في التوحيد لأن التوحيد هو إفراد الله بالحقوق .

ولله ثلاثة حقوق :- حقوق ملك، وحقوق عبادة ، وحقوق أسماء وصفات . فحقوق الملك هي الربوبية ، وحقوق العبادة هي الألوهية ، وحقوق الأسماء والصفات هي توحيد الأسماء والصفات.

هذا التوحيد هو جزء من العقيدة لكن العلماء يطلقون علي التوحيد لفظ العقيدة لماذا؟

الجواب : أن إطلاق كلمة التوحيد علي العقيدة من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه وأشرف أصوله لأن التوحيد هو أهم مباحث العقيدة ، إذا قلنا إن العقيدة فروع كثيرة فالتوحيد أهمها ، فإذا أطلقنا التوحيد علي العقيدة فهو من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه ، ألم يقل في الحديث الصحيح (الحج عرفة)؟[1] ، من باب تسمية الشيء بأهم جزء فيه .

فأشرف مباحث الاعتقاد هو التوحيد مع أنه يشمل الإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والرسل ولكن التوحيد هو أساسها وجوهرها ، ولأن الرسل بدءوا به ، إذا أردت تعلم العقيدة فأول شيء هو التوحيد .

إفراد الله بالعبادة والغاية من وجود الإنسان هو أن يوحد الله .

هل ورد في القرآن والسنة لفظة التوحيد ؟

---

[1] – رواه الترمذي (889) وصححه الألباني

نعم ، مثلا قوله تعالي (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذا إلي اليمن وقال (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيه أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى)[1]

هل ألف العلماء في العقيدة كتبا سموها التوحيد ؟

نعم ، ألف كتاب التوحيد أبو العباس البغدادى المتوفى سنة 306 .

وألف كتاب التوحيد وإثبات صفات رب العالمين الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة المتوفى سنة 311 .

وألف كتاب التوحيد الحافظ ابن منده ، وكذلك ألف كتاب التوحيد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب .

أيضا العلماء يطلقون علي العقيدة أصول الدين

هذه كلمة مركبة من "أصول" و"الدين"، مضاف ومضاف إليه .أما كلمة أصول لغة : فجمعها أصل وهو ما يبني عليه غيره .

وأما اصطلاحا : فكلمة أصل تطلق علي عدة اعتبارات فمنها الدليل ، فمثلا الدليل علي توحيد الأسماء والصفات في القرآن الكريم سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) . مثلا لو قلت: أعطني من القرآن أصل في توحيد الربوبية: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). وهكذا .

فكلمة أصل تستعمل بمعني الدليل، وكذلك تستعمل كلمة أصل بمعني القاعدة المستقرة مثل أن نقول: من أصول التوحيد أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية والعكس ، وأنسب هذه الاصطلاحات هو المعني الثاني بمعني القاعدة المستقرة فيكون معني أصول الدين : قواعد الدين ، قواعده المستقرة ومبادئه العامة .

والدين هو الذل والخضوع لغة ، واجتناب المحظورات وامتثال المأمور شرعا ، إذا قلت فلان متدين يعني يقوم بالواجبات ويمتنع عن المحرمات .

فأصول الدين إذاً هي المبادئ العامة والقواعد الكلية **وهذه هي العقيدة .**

---

[1] – متفق عليه

هل ألف العلماء في أصول الدين بمعني العقيدة مؤلفات ؟

نعم مثل الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري المتوفى سنة 329 .

ويطلق علي العقيدة أيضا الفقه الأكبر

قد سماها بذلك أبو حنيفة وألف فيه كتابا وكذلك ينسب إلي الإمام الشافعي كتاب اسمه الفقه الكبير .

لماذا سموا العقيدة بالفقه الأكبر ؟

تمييزا لها عن فقه الفروع مثل أحكام الطهارة والنكاح وغيرها ، سموها بالفقه الأكبر لأهميتها وتوقف صحة قبول الأعمال عليها .

وقد يسمون الاعتقاد كلمة الإيمان

أصل الإيمان لغة هو التصديق ، واصطلاحا هو تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان .

ويسمون العقيدة أحيانا بالإيمان ، وقد ألفوا في ذلك كتبا مثل كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224 ، وكتاب الإيمان لأبي بكر بن أبي شيبة المتوفى 235 ، وكتاب الإيمان للإمام أحمد رحمه الله ، وكتاب الإيمان لابن منده ، والإيمان الكبير والأوسط ، وغيرها من الكتب.

أحيانا يطلقون علي العقيدة الشريعة ، والشريعة من الشرع وهو البيان والطريق والمورد ، واصطلاحا تطلق علي أمرين: عام ، ويشمل ما شرعه الله من الدين عقيدة وأحكاما ومن ذلك قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ). (الشوري–42)، وهذا يشمل التوحيد والأحكام ، والعقيدة كلها تطلق عليها شريعة .

وقد تطلق الشريعة على الأوامر والنواهي من الحلال والحرام ، وهذا هو المعنى الخاص، قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .(المائدة–48)، فعقائد الأنبياء واحدة والأحكام قد تختلف من شريعة لأخرى كما أراد الله سبحانه وتعالي وخص كل أمة بما يناسبها من الأحكام .

هل ألف العلماء تحت كلمة الشريعة مؤلفات في موضوع الشريعة ؟

نعم . ألف الإمام العالم الكبير أبو بكر الآجري كتاب الشريعة ، وألف أبو بطة العكبري كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية.

هذه الكلمات كلها تطلق علي العقيدة ، وكله مقبول عند أهل السنة والجماعة سواء أطلق عليها العقيدة أو أصول الدين أو علم الشريعة كله صحيح ، هذا ورد في كلام علمائنا لكن أهل البدع يطلقون علي العقيدة أسماء أخري فمثلا يسميها بعضهم علم الكلام وهو الاسم السائد لدي المعتزلة والأشاعرة ، فلو قال شخص: هل يجوز أن نسمي العقيدة بعلم الكلام ؟ نقول هذه تسمية باطلة ، لأن علم الكلام مصدره البشر وفلسفات اليونان ويعتمد علي الرأي ، ثم إنه قد ذمه السلف فكيف نسمي علما ذمه السلف عقيدة؟.

يطلق علي العقيدة والتوحيد علم يقيني مجزوم به وعلم الكلام حيرة وشك وجهل واختلافات كثيرة جدا بين المتكلمين فأين الثري من الثريا ؟

بعض الكليات في بعض أنحاء العالم الإسلامي يطلقون علي العقيدة علم الفلسفة. والفلسفة أولها فلس وآخرها سفه ، هذه الفلسفة إطلاقها علي العقيدة إطلاق باطل بل هي من مخلفات اليونان ومبناها علي الأوهام والتخيلات والتطورات الخرافية .

في بعض المقررات يطلقون علي العقيدة التصور، يسمونها بعلم التصور يقصدون به العقيدة وهذه بدعة ، ويطلقه أحيانا بعض المستشرقين ومن نحا نحوهم وهو إطلاق المبتدعة .

أحيانا بعض الجامعات الغربية لما تدرس العقيدة تدرسها تحت اسم كلية الإلهيات وهذا أيضا عند أهل الكلام والفلسفة يسمونها الإلهيات ، وهذا أيضا ليس من الأسماء التي وردت علي لسان أهل السنة والجماعة وأهل العلم الثقات .

بعض الناس الذين لديهم توجه دنيوي يطلقون علي العقيدة علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزقيا) كذلك يسميها الفلاسفة والكتاب الغربيون ومن نحا نحوهم. وأما بالنسبة لنا فالأمر يختلف تماما .

ما هي منزلة علم العقيدة ؟

العقيدة أشرف العلوم منزلة وأعلاها رتبة وأوجبها مطلبا وأرفعها قدرا وذلك لأن :

أولا– أن شرف العلم بشرف موضوعه ، وموضوع هذا العلم هو معرفة المعبود سبحانه وتعالي وربوبيته ومعرفة ألوهيته وأسمائه وصفاته .

فلا يوجد علم من العلوم أشرف من علم العقيدة لأنه يتعلق بأشرف موجود وهو الله ، فإن قلت أي العلوم أشرف ، علم العقيدة أم علم الأصول أم الفقه ؟ لا شك أنه علم العقيدة فهو أشرف العلوم علي الإطلاق ولا يصل إلي درجته أي علم أخر ، ومعلوم أنه في الأمور الدنيوية نقول أن علم الطب أشرف من علم النجارة لان موضوعه جسد الإنسان أما النجارة فهو موضوعه علم الأخشاب ، فموضوع علم التوحيد هو معرفة الله .

ثانيا:– السلف كانوا يسمونه الفقه الأكبر تمييزا له في الشرف عن علم الفروع .

ثالثا:– أن السعادة في الدنيا والآخرة متوقفة علي العلم به ، وحاجة الناس إليه فوق كل حاجة واضطرارهم إليه فوق كل ضرورة ، فلا راحة ولا طمأنينة للعبد إلا بمعرفة إلهه وخالقه عز وجل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إلَى الرِّسَالَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرِ مِنْ حَاجَةِ الْمَرِيضِ إلَى الطِّبِّ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَا يُقَدَّرُ بِعَدَمِ الطَّبِيبِ مَوْتُ الْأَبْدَانِ وَأَمَّا إذَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْعَبْدِ نُورُ الرِّسَالَةِ وَحَيَاتِهَا مَاتَ قَلْبُهُ مَوْتًا لَا تُرْجَى الْحَيَاةُ مَعَهُ أَبَدًا أَوْ شَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ مَعَهَا أَبَدًا "[1]

إذاً: علم العقيدة يتعلق بحياة القلوب ، وعلم الطب يتعلق بحياة الأبدان وإذا ما وجد الإنسان الطبيب مات بدنه ، فممكن بعد الموت يحيا حياة عظيمة ، إذا كان سليم الاعتقاد ، وأما إن كان اعتقاده بالله سيء فإنه يشقي شقاوة ولو وجد إنسانا يعالج بدنه ، وقد سمي الله تعالي ما أنزل علي رسوله روحا فقال (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).(الشوري–52). لتوقف الحياة الحقيقة عليه . وسماه نورا لتوقف الهداية عليه ، وسماه شفاءً لأنه الدواء الحقيقي للنفوس من عللها ، ولذلك فإن أهل العقيدة الصحيحة في سعادة ، هذه السعادة لو يعلم بها

[1] – مجموع الفتاوى (96/19)

الملوك وأبناؤهم لجالدوهم عليها بالسيوف ، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة وهي جنة الإيمان ولذة الصلة بالرحمن .[1]

رابعا:- قبول الأعمال متوقف علي صحة العقيدة فهي الأساس وإن كان الأساس فاسدا فكل ما بني عليه فهو فاسد (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا).(الفرقان-23) .

فلو تصورنا رجلا قد حاز علوما في الفقه وفي اللغة العربية وفي الأصول وأعماله من جهة العبادات صحيحة شكلا ، يخرج الزكاة بالمقادير، يحج ويصوم ، لكنه مشرك فما فائدة كل هذه الأعمال ؟ لا شيء ، فلذلك قبول الأعمال متوقف علي صحة العقيدة .

خامسا:- تتوقف عليه النجاة في الآخرة ، أقل ما في التوحيد أنه يمنع الخلود في النار ، ولا يخلد في النار موحد ، وأعظم ما فيه أن من حققه يدخل الجنة بغير عذاب .

سادسا:- يتحرر المخلوق بالعقيدة الصحيحة من رق المخلوقين وعبوديته لهم والخوف منهم والنظر لمدحهم وقدحهم ، وهذه قمة العزة في الحياة (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) .(آل عمران-139).

سابعا:- أنها أول دعوة الرسل ، فأي رسول يبعث يقول (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).(الأعراف-59).

ثامنا:- أنها أول واجب علي المكلف (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)[2].

تاسعا:- أنها آخر واجب علي المكلف ، ففي السنة (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[3].

وفي حديث مسلم (916) :(لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ).

عاشرا:- أن القرآن كله نزل في التوحيد ، قال ابن القيم رحمه الله:

" غَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ.

[1] - انظر : الجواب الكافي - لابن القيم (ص77)

[2] - متفق عليه

[3] - رواه أبو داود (3116) وصححه الألباني

بَلْ نَقُولُ قَوْلًا كُلِّيًّا: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ "[1].

الحادي عشر:- تعصم الإنسان دما ومالا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أُمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحَقِّها وحسابهم على الله عَزَّ وجَلّ)[2].

الثاني عشر:- أساس بناء المجتمع ، فإذا كانت عقائد المجتمع خالية من الشوائب وتأسست في المجتمع بأفراده ارتفع شأنه ، وأما إن كانت مخالفة للشرع فإن المجتمع ينحدر في أسفل سافلين .

الثالث عشر:- أن هذه العقيدة تجيب علي جميع التساؤلات التي تشغل الفكر الإنساني إجابات صحيحة ، فلو قال البعض من أين جئنا ومن الذي أوجد هذا الكون وإلي أين سنذهب ؟ هل هناك عوالم أخري غير منظورة ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها لا توجد عقيدة تجيب عليها إلا العقيدة الإسلامية الصحيحة .

الرابع عشر:- هذه العقيدة تخفف عن العبد المكاره وتهون عليه الآلام فيعيش آمنا مطمئنا لأن الإيمان بعقيدة القضاء والقدر هو الذي يجعل الإنسان مرتاحا في عيشه .

الخامس عشر:- هذه العقيدة لها مزايا :-

من جهة أنها سالمة من التحريف ؛ لأن الله قال {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]، والله سيحفظ الدين كله ومن ذلك أمور الاعتقاد، فالعقيدة الصحيحة محفوظة .

---

[1] – مدارج السالكين (3/417-418)

[2] – متفق عليه .

العقيدة الإسلامية السلفية عقيدة واضحة سهلة يفهمها كل واحد ، إذا قلت اعبدوا الله فالكل يفهمها فهما يستقر في نفسه ، دع عنك الفرعيات والرد علي أهل البدع، فالعامي قد لا يفهم الرد علي الأشياء ولكن أسس العقيدة يفهمها لو شُرحت له وقدمت إليه ، بخلاف بقية المذاهب – مثلا عند الأشاعرة – إذا تأملتها علمت أنها العذاب الأليم فهي قائمة علي فلسفات وعلي قواعد علم الكلام والمنطق لا يمكن أن يفهمها العامي ، بخلاف العقيدة السلفية الصحيحة التي يمكن للعامة أن يفهموها بكل سهولة .

هذه العقيدة سالمة من كل عيب ونقص فما فيه شيء تخجل من ذكره ، لكن أهل العقائد الباطلة عندهم أشياء يُخفونها ، فالدرزي مثلا لا يمكن أن يخبر بعقيدته إلا بعد سن الأربعين , وكذلك بعض هؤلاء الباطنية لا يخبرون بعقيدهم إلا بعض الخواص وبعد سن معين ، وعندهم كتب مدسوسة ، الإسماعيلية مثلا لا تجد كتبهم منشورة ولا يُطْلعون عليها إلا الخواص .

ليس هناك من أسرار في العقيدة الإسلامية ، فكل شيء واضح.

العقيدة السلفية موافقة للفطرة ، فلا يشعر المسلم صاحب الفطرة السليمة بأي حرج لأن الله تعالي قال (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).(الروم–30) ، فإذاً هي موافقة للفطرة بخلاف بعض العقائد المخالفة للفطرة ؛ فإن صاحبها يتعذب حتى يتعلمها .

هذه العقيدة لا تتغير ولا تتطور بمرور الأجيال بخلاف العقائد الأخرى كعقيدة الأشاعرة ، فمتقدمو الأشاعرة غير المتأخرين غير المتوسطين ، فيكون جرت تعديلات علي المذاهب، وكذا أهل التشيع الأول غير الذين بعدهم غير المتأخرين منهم فالمذهب يتبدل ويتلون ويتغير وهكذا .

مثلا عقيدة النصارى: كم طرأ عليها من التبديلات والتغيرات وجمعوا أناجيل وحذفوا وركبوا ؟

أما عقيدة السلف : فهي عقيدة أبي بكر الصديق وهي عقيدة الإمام أحمد وهي عقيدة ابن تيمية وهي عقيدة محمد بن عبد الوهاب.

ويقوم أهل السنة بالرد علي المبتدعة إذا ما أحدثوا ، فتنشأ ردود علي أهل البدعة ليست إضافات جديدة للعقيدة لكنها ردّ علي المبتدعة .

فمثلا لماذا لا يوجد كلام للصحابة في الرد علي من قال بخلق القرآن ؟ لأنه ما كان أحد يقول بخلق القرآن ، ولو سألت الصحابي كلام الله منزل أم مخلوق ؟ مع أن الفكرة طارئة بعد الصحابة ، ولكن لو سألته لقال : كلام الله منزل غير مخلوق ، وهكذا ، فإذا رأيت مباحث جديدة في العقيدة أضيفت لعلماء أهل السنة فهذه ليست إضافات علي صلب العقيدة وأصلها ، هذه ردود علي أهل البدع ؛ لأن الله أخذ العهد علي أهل العلم أن يبينوه للناس، وهذا من تمام البيان .

هذه العقيدة عقيدة قائمة علي الأدلة والبراهين وليست مسألة تسليم أعمي كما يشترط أصحاب العقائد الفاسدة علي أتباعهم فيقول له سلم فقط لا تناقش ، والله تعالي قال (قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).(البقرة–111) ولا ينافي هذا الإيمان بالغيب، فإثبات أن هناك غيب بالأدلة ممكن جدا ، شيء موجود ولا تراه تستطيع بالبراهين إثبات ذلك .

إذاً الإيمان بالغيب لا يتعارض مع كون هذه العقيدة عقيدة البراهين والأدلة فكل شيء من الغيبيات عليه دليل من الكتاب والسنة .

وكذلك هي عقيدة وسط لا إفراط ولا تفريط .

ومستقاة من مصادر الإسلام وهي الكتاب والسنة.

وتبتعد بالمسلم عن الشكوك والأوهام وتجعله آمنا مطمئنا (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) .(الحجرات–15) .

وغير أهل السنة يعيشون في حيرة وضلال وقلق وتنقّل ، ولهذا قال الإمام مالك لما طرحت عليه قضية الجدل قال " كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَدَلِهِ ؟!" [1]

إن كان الاعتقاد قائما علي الجدل فمن له الحجة أنا أتبعه! ، إذاً لو جاء أحد يستطيع أن يقنع أكثر من الأول اتبعناه وتركنا ديننا!.

فلذلك لو نظرت إلى أهل الأهواء كيف يقررون التوحيد لتعجبت .

---

[1] – حلية الأولياء (324/6)

يقولون مثلا : يجب علي كل مكلف أن يشك حتى يؤمن ، فإذا بلغ الشاب لا يكفيه التوحيد والإيمان الذي تعلمه، لابد أن يشك ، هل الله موجود أم لا ؟ ثم يستدل بالبراهين علي وجود الله ثم يقال: الآن عندك إيمان ! أهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربون أبناءهم ؟ يشك ثم يؤمن !

وقد صرح كبار المتكلمين أنهم خاضوا البحر الذي نهوا عنه فضاعوا فيه وغرقوا ، وأنهم ندموا علي السنوات الطويلة التي قضوها في علم الكلام ولم يورثهم ذلك إلا الحيرة والضلال والاضطراب .

كذلك من مزايا العقيدة الصحيحة أنها تجعل المسلم معظما للنصوص فلا يردّ نصا شرعيا، أما أهل البدع فيتلاعبون بالنصوص قال تعالي (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).(القيامة-22-23) ماذا يقول أهل البدع ؟ ناظرة يعني منتظرة . (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا).(النساء-64) ، ماذا يفهم صاحب العقيدة الصحيحة ؟ أن الله كلم موسي كلاما حقيقيا وأكد ذلك بقوله (تكليما) ويقول المبتدعة في ذلك: كلمه بأظافير الحكمة ؛ لأنهم يريدون نفي الكلام .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى).(طه-5)، استوى أي علا وارتفع علي عرشه كما يليق به سبحانه ، أولئك يقولون: استوى يعني استولي ، فمن الذي كان مستوليا على عرشه من قبله حتى غلبه فاستولى عليه؟! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وكل ذلك بسبب التحريف والتأويل الباطل والبعد عن العقيدة الصحيحة .

العقيدة الصحيحة تربط المسلم بالسلف الصالح والصحابة ، فيشعر أن له تاريخا ، أما الأشاعرة مثلا فيُنسبون إلي أبي الحسن الأشعرى ، والماتريدية نسبة إلي أبي منصور الماتريدى ، أما أهل العقيدة الصحيحة فنسبتهم إلي النبي صلي الله عليه وسلم فهو إمامهم وهم أسعد الناس به يوم القيامة (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ).(الإسراء-71)، فيشعر المرء أن له تاريخا ، أنه يسير علي مثل ما صار عليه الصحابة ، فهو منتسب إليهم لا إلى هؤلاء المتأخرين .

هذه العقيدة تنشئ في النفوس الحذر من إتباع غير سبيل المؤمنين وتحمي صاحبها من الانحراف (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

كذلك تجعل المؤمنين متصافّين لإعلاء كلمة الله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).(آل عمران–103)، فالاعتصام بالعقيدة الصحيحة يوحّد المسلمين ، لذلك أهل السنة والجماعة لا يتلاعبون فيما بينهم إذا صدَقوا مع الله ، أما الفرق الأخرى فداخل كل فرقة فرق ، ويكفّر بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا .

ثم إن العقيدة الصحيحة توفر وقت المسلم لأنها تجنبه الخوض في المسائل التي لا طائل من ورائها، وتحفظ عليه وقته وعقله ولا تُدخله في الجدل العقيم.

العقيدة الصحيحة تورث تعظيم الرب جل وعلا وخشيته ، بخلاف عقيدة أهل الكلام لا تورث تعظيم الله ولا خشيته ، بل تورث قسوة في القلب ، لذلك قد تفتح كتابا من كتب الأشاعرة فلا تكاد تجد آية أو حديثا إطلاقا ، أما كتب أهل السنة والجماعة فكل علومها مستندة إلى الآية والحديث

وكذلك فإن هذه العقيدة ترقق القلوب وتربط الناس بعلام الغيوب .

<u>معالم العقيدة الصحيحة:</u>

عقيدة أهل السنة والجماعة لها معالم واضحة، فمن ذلك :

– توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

– الإيمان بالملائكة إجمالا وتفصيلا

– وبالكتب وأن القرآن أفضلها وناسخها وأن ما قبله قد أصابه التحريف .

– والإيمان بالرسل وأنهم أفضل من كل البشر ومن زعم غير ذلك فقد كفر؛ لأن غلاة الصوفية يقولون الولي أفضل من النبي ، ومعتقد أهل السنة والجماعة أن الأنبياء معصومون في تبليغ الوحي ، وكذلك الإيمان بانقطاع الوحي بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين بخلاف مثلا أهل العقائد الفاسدة ، فالقاديانية يعتقدون أن غلام أحمد القادياني نبي ونزل عليه وحي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك اعتقاد البهائية في البهاء .

– كذلك الإيمان باليوم الآخر وكل ما يتقدمه من العلامات والإشارات الثابتة في الكتاب والسنة.

– وكذلك الإيمان بالقدر خيره وشره .

– ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وأن الأنبياء يشفعون والملائكة والصالحين يشفعون لمن أذن الله تعالي له.

– من عقيدة أهل السنة والجماعة إثبات كرامات الأنبياء والصالحين وأن الله يكرم بعض أوليائه بخرق العادة لهم كما أكرم مريم وجعل لها فاكهة الشتاء في الصيف والعكس فتكون في محرابها أثناء عبادتها (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).(آل عمران–37) .

هذه كرامات الأولياء ، وما حصل لبعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الكرامات ، هذا بخلاف المبتدعة الذين ليسوا علي عقيدة صحيحة لو انخرقت لهم العادة فلا تعتبر كرامة ، فلو جاء أحد الرفاعية وأدخل سيخا في جنبه ووضع سيفا في بطنه وأدخل آخر في رأسه وما وجدت قطرة دم ، نقول له ما عقيدتك ؟ فيقول: إن أحمد الرفاعي يأتيه الوحي وأن كلامه تشريع ، فنقول له هذه الأشياء التي رأيناها هي من الشياطين ولو رأيناك تطير في الهواء وتمشي علي الماء لم نرها لك كرامة بل هي فتنة ومن تعاون الشياطين معكم .

– وكذلك من العقيدة وجوب محبة أولياء الرحمن وأن نوالي كل مؤمن بقدر إيمانه ، وكذلك وجوب توحيد الله بأفعال العباد، وكذلك أن يعبد الله بالحب والرجاء والخوف فمن عبده بواحدة دون الأخريين فهو ضال .

– وكذلك وجوب التسليم والرضا والطاعة لما أنزل الله تعالي وأن استبدال الشرائع كفر أكبر مخرج عن الملة .

– من عقيدتنا إثبات رؤية الله تعالي في الجنة وفي المحشر ومن أنكرها فهو زائغ .

– كذلك من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الشريعة ملزمة للجميع ليس هناك شريعة خاصة وشريعة عامة ، فالصوفية يقولون لا ، هناك شئ يلزم الجميع و شئ يلزم الشيخ ، فقد وصل لليقين وسقطت التكاليف عنه . –

– وكذلك من عقيدتهم أنه لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل، وبناء عليه يكون إتيان الكهان والعرافين حرام .

– ومن عقيدتهم إثبات التوسل المشروع مثل التوسل بأسمائه وصفاته والتوسل بالأعمال الصالحة وبدعاء الأحياء من الصالحين ، أما التوسل بدعاء الأموات فهو شرك ، وكذا التوسل البدعي بجاه النبي صلى الله عليه وسلم.

– من عقيدتهم أن البركة من الله وأنه لا يستطيع أحد أن ينزل بركة في مكان إلا الله تعالي ، والله يبارك ما يشاء ويجعل البركة في ماء زمزم وفي الجماعة وفي السحور وما شاء من شيء.

– وكذلك من عقيدتهم أنه لا يجوز القطع لمعين بالجنة أو النار إلا بنص

– وكذلك أن الكفر منه ما يخرج من الملة ومنه ما لا يخرج من الملة .

هذه العقيدة تحرر العقل والفكر من التخبط وتثبت الحالة النفسية والحزم والجد في الأمور .

– وكذلك فنحن نعلم أن من العقائد ما يكون باطلا فينبغي الحذر منها ، ولا يمكن لأحد أن يؤمن حتى يكفر بالطاغوت ، ولا يكفي أن يقول أنا موحد فنقول لا يكفي إلا أن تكفر بالطاغوت وبكل ما عبد من دون الله ، وهذه هي عقيدة الولاء والبراء .

السلفية

تعرفنا علي مسميات العقيدة عند أهل السنة والجماعة وهم أهل الأثر وسموا بذلك لتمسكهم بالأثر وهم أصحاب الحديث أيضا.

دين النبي محمد أخبار نعم المطية للفتي آثار

لا ترغبن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار

وهم أيضا السلف الصالح رحمهم الله لأنهم سبقونا .

ولذلك فإن مصطلح السلفية يطلق ويراد به أحد معنيين :–

الأول:– حقبة تاريخية معينة مختصة بأهل القرون الثلاثة الأولي المذكورين في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[1].

[1] – متفق عليه – واللفظ لمسلم

الثاني:- تطلق السلفية علي الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان من التمسك بالكتاب والسنة وتقديمهما علي ما سواهما والعمل بهما علي مقتضي فهم الصحابة والسلف ، فالسلفية بالمعني الأول تكون مرحلة تاريخية قد انتهت بذلك. وأما بالإطلاق الثاني وهو المشهور المستعمل ، فهي منهج باق إلي يوم القيامة يصح الانتساب إليه متى التزم الملتزم بشروطه وقواعده لحديث (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ)[1]

وبناء علي ذلك فإن كل متأخر عن زمن السلف ولكنه علي مذهبهم في الاعتقاد والعمل يكون سلفيا بالإطلاق الثاني وليس بالأول ، فلو قلت هل كان ابن تيمية رحمه الله سلفيا ؟

الجواب نعم ، بالنظر إلي طريقته واعتقاده رحمه الله .

وهؤلاء أهل الأثر وأهل الحديث والسلفيون هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم أنهم باقون إلي قيام الساعة .

ويطلق عليهم أيضا الجماعة ، بعكس أهل الشقاق والافتراق وهم الذين قال فيهم رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)[2] ، وقال (كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة)[3]

أي الفرق التي تفترق عليها هذه الملة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، جماعة المجتهدين وجماعة المسلمين المجتمعين علي خليفتهم الذي يحكم فيهم بما أنزل الله ، فيجب إذاً لزوم هذه الجماعة .

خصائص أهل السنة والجماعة

وهو ما يميزهم عن غيرهم من أصحاب الفرق، فمن تلك الخصائص:

- الاقتصار في التلقي على الكتاب والسنة.

- تلقي نصوص الشرع بالسمع والطاعة والقبول.

---

[1] - متفق عليه

[2] - متفق عليه

[3] - رواه ابن ماجة (3993) وأحمد (11798) وصححه الألباني

– الإتباع وترك الابتداع.

– كل مَن عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم يؤخذ منه ويردّ عليه.

– تنقية الأخبار وتهذيب الآثار، والاعتماد فيها على ما صح منها دون ما لم يصح.

– الوسطية، التي تجمع بين حتمية التسليم لنصوص الشرع، والسعي لنبذ الخلاف وترك النزاع.

– ترك الخصومات في الدين ومجانبة الجدل وأهله والتعصب الممقوت في ظل أصالة التسليم وصدق الاتباع.

فمن أهم خصائص العقيدة السلفية التي يعتقدها أهل السنة والجماعة : وحدة المصدر ، فالسلف لا يتلقون دينهم إلا من مشكاة النبوة فهي الأصل والمصدر ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان بيده صحف من التوراة غضب النبي صلى الله عليه وسلم علي ذلك فكيف بمن يجعل مصدره قياسا عقليا وخيالا صوفيا؟

فعن عبد الله بن ثابت قال : جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنْ التَّوْرَاةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْتُ لَهُ أَلَا تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا. قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ :

(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ إِنَّكُمْ حَظِّي مِنْ الْأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ)[1]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ: (أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ

[1] – رواه أحمد (15437) وصححه الألباني في صحيح الجامع (5308)

فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي)[1]

والتهوك هو التهور والتحير والوقوع في الأمر بغير بينة .

و قد استفاد عمر من ذلك الموقف ، فقد ضرب رجلا نسخ الكتب السابقة وأمر بمحو ما كتبه .

قال ابن عبدالبر رحمه الله : " ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا عليه في كتاب الله أو ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجمعت عليه الأمة ، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه "[2] .

ما هي مصادر التلقي في العقيدة ؟

لأن اختلاف المصادر يمكن أن ينشأ عنه اختلاف في العقائد وذلك يقودنا إلي مسألة افتراق الفرق ولذلك إذا أردنا معرفة العقيدة الصحيحة فلابد أن نعرف ما هي مصادر العقيدة الصحيحة؟

قلنا إن هذا المنهج السلفي منهج توقيفي يقوم علي التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة ، لا ترد ولا تُعارض لا بعقل ولا بذوق ولا بمنامات ولا بغيرها ، يقف المسلم حيث يقف به النقل ويدور مع النقل حيث دار (ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).(الحجرات-1)

لا تقدم عقلك ولا تتقدم بقياس ولا بذوق وإنما تقف عند النقل .

قال الربيع بن خيثم : " يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا عَلَّمَكَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ عِلْمٍ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهِ. وَمَا اسْتَأْثَرَ عَلَيْكَ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ فَكِلْهُ إِلَى عَالِمِهِ. وَلا تَكَلَّفْ فَإِنَّهُ يَقُولُ: «قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»[3]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الْخَلَّالُ فِي " كِتَابِ السُّنَّةِ " عَنْ الأوزاعي قَالَ : سُئِلَ مَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ عَنْ تَفْسِيرِ الْأَحَادِيثِ – أحاديث الصفات – فَقَالَا : – أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ . وَرَوَى أَيْضًا عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ

---

[1] – رواه أحمد (14736) وحسنه الألباني في ظلال الجنة (21/1)

[2] – جامع بيان العلم وفضله (117/2)

[3] – الطبقات الكبرى (220/6)

مُسْلِمٍ قَالَ : سَأَلْت مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ وَالْأَوْزَاعِي : عَنْ الْأَخْبَارِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ . فَقَالُوا : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ . وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَالُوا أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ .

فَقَوْلُهُمْ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – " أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ " رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ ، وَقَوْلُهُمْ : " بِلَا كَيْفٍ " رَدٌّ عَلَى الْمُمَثِّلَةِ . وَالزُّهْرِيُّ وَمَكْحُولٌ : هُمَا أَعْلَمُ التَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِمْ "[1]

لكن غير أهل السنة أصّلوا لأنفسهم قواعد تتحاكم إليها النفوس ، أهل السنة عرفوا معاني النصوص باللغة العربية وعرفوا فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والسلف لهذه النصوص ووقفوا عند هذا الفهم ، وآمنوا بما فيه وعملوا . هذا هو المطلوب .

أما أهل البدع: فوضعوا قواعد مأخوذة من منطق اليونان ومن الأقيسة العقلية ، مأخوذة من أي مصدر آخر جاهلي وحاكموا النصوص إليها ، ما وافق قواعدهم قبلوه وما خالف قواعدهم ردوه . وهكذا كانت الطامة التي أدت بهم إلى رد النصوص.

إذاً من الفروق بين أهل السنة الجماعة وبين غيرهم أن مصادرهم واحدة وأن منهجهم مبني علي التوقيف لا يتجاوزون النصوص ولا يردونها ، (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا).(آل عمران–7) ، وأهل البدع ردوا النصوص ولم يحسنوا معاملتها وأحدثوا في دين الله مقالات شنيعة ، قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يوم ناظره حفص الفرد قال لي: " يا أبا موسى لأن يلقي الله – عز وجل– العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام، لقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه".

وقال أيضا : " قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام)[2]

وقال بعضهم: لقد قال كلاما – يعني المبتدع – خشيت أن يقع عليّ وعليه البيت.

---

[1] – مجموع الفتاوى (39/5)

[2] – درء تعارض العقل والنقل [3 /369]

هذه كانت حساسية السلف من الناس الذين كانت عندهم إشارات برد النصوص ؛ ولذلك قال ابن عباس (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم قال رسول الله ، وتقولون قال أبو بكر وعمر **!)**[1].

وكان منهج السلف يقوم علي تجنب الدخول في الجدل والخصومة في الدين .

طبعا المقصود بالجدل هنا الجدل الباطل وليس (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).(النحل–125) المراد الجدل بالباطل ، فكان موقفهم موقفا واضحا وصريحا ، فلذلك ما كانوا يرضون بالجدل في النصوص .

" وَلِذَلِكَ لَمَّا بَلَغَ عُمْرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ صَبِيغًا يَسْأَلُ عَنْ الْمُتَشَابِهِ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ قَامَ فَسَأَلَهُ عَنْ : { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا } { فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا } وَمَا بَعْدَهَا . فَنَزَلَ عُمَرُ فَقَالَ : " لَوْ وَجَدْتُك مَحْلُوقًا لَضَرَبْت الَّذِي فِيهِ عَيْنَاك بِالسَّيْفِ " ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا وَبَعَثَ بِهِ إلَى الْبَصْرَةِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُجَالِسُوهُ فَكَانَ بِهَا كَالْبَعِيرِ الْأَجْرَبِ لَا يَأْتِي مَجْلِسًا إلَّا قَالُوا : " عَزْمَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ حَتَّى تَابَ وَحَلَفَ بِاَللَّهِ مَا بَقِيَ يَجِدُ مِمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا فَأَذِنَ عُمَرُ فِي مُجَالَسَتِهِ "[2]

ما استطاع أحد علي عهد عمر أن يرفع رأسه ببدعة ، لكن اليوم الفضائيات والمجلات المقروءة دائما ما تثير الشكوك في أصول الدين .

قال مُصْعَب بْن عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيَّ : كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ يَقُولُ: «الْكَلَامُ فِي الدِّينِ أَكْرَهُهُ وَكَانَ أَهْلُ بَلَدِنَا يَكْرَهُونَهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ نَحْوَ الْكَلَامِ فِي رَأْيِ جَهْمٍ وَالْقَدَرِ وَكُلِّ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَا أُحِبُّ الْكَلَامَ إِلَّا فِيمَا تَحْتَهُ عَمَلٌ فَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الدِّينِ وَفِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَالسُّكُوتُ أَحَبُّ إِلَيَّ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُ أَهْلَ بَلَدِنَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الدِّينِ إِلَّا مَا تَحْتَهُ عَمَلٌ»

قال ابن عبد البر : " قَدْ بَيَّنَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْكَلَامَ فِيمَا تَحْتَهُ عَمَلٌ هُوَ الْمُبَاحُ عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ يَعْنِي الْعُلَمَاءَ مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَلَامَ فِي الدِّينِ نَحْوَ الْقَوْلِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ

---

[1] – مجموع الفتاوى (215/20) ، ولم نجده بهذا اللفظ عن ابن عباس بسند صحيح .

[2] – مجموع الفتاوى [4 /3]

وَأَسْمَائِهِ وَضَرَبَ مَثَلًا فَقَالَ: نَحْوَ رَأْيِ جَهْمٍ، وَالْقَدَرِ وَالَّذِي قَالَهُ مَالِكٌ عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفَتْوَى، وَإِنَّمَا خَالَفَ ذَلِكَ أَهْلُ الْبِدَعِ الْمُعْتَزِلَةُ وَسَائِرُ الْفِرَقِ، وَأَمَّا الْجَمَاعَةُ عَلَى مَا قَالَ مَالِكٌ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ أَحَدٌ إِلَى الْكَلَامِ فَلَا يَسَعُهُ السُّكُوتُ إِذَا طَمِعَ بِرَدِّ الْبَاطِلِ وَصَرْفِ صَاحِبِهِ عَنْ مَذْهَبِهِ أَوْ خَشِيَ ضَلَالَ عَامَّةٍ أَوْ نَحْوَ هَذَا "[1]

وهذا الوضع الذي كان في حال عافية الأمة هو الذي أدي بها إلي أن تكون معافة مسيطرة محترمة قاهرة وقوية .

ومما يلاحظ كذلك: اتفاق السلف في أمور العقيدة .

فلا تكاد تري أحدا من أهل الحديث يؤلف كتابا في المعتقد إلا وتتفق مصنفاتهم من أولهم إلي آخرهم ، من قديمهم إلي حديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم ، إذا ألفوا في المعتقد جروا علي طريقة واحدة لا يحيدون عنها ، قولهم واحد ونقلهم واحد لا تري فيما يقولونه اختلافا ، لو أن أحدا بالمشرق ألف كتابا في العقيدة يثبت رؤية الله في الآخرة يثبت الأسماء والصفات يقول القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وواحد في الغرب يؤلف في العقيدة السلفية فإنه يقول نفس الكلام .

فهناك اتفاق بين أهل السنة والجماعة علي أمور العقيدة ومنهجهم في ذلك منهج وسط ، فمنهجهم في الأسماء والصفات منهج وسط بين أهل التعطيل الذين ألحدوا في الأسماء والصفات وبين أهل التمثيل الذين شبهوا الله بالمخلوقات ، هناك قالوا ليس له يد وهؤلاء قالوا يده مثل أيدينا ، أهل السنة وسط قالوا له يد لست كأيدينا تليق بجلاله وعظمته ، أهل التعطيل قالوا ليس له وجه وهؤلاء قالوا له وجه كوجوهنا وأهل السنة قالوا قولا وسطا قالوا له وجها يليق بجلاله وعظمته ليس كوجوهنا .

في باب القدر : قامت طائفة تقول لا قدر ، كذبوا الله وأنكروا مشيئته أنكروا اختياره وخلقه لأفعال العباد ، أناس قالوا: لا قدر، ما علمها وما كتبها ، وأناس قالوا المخلوق يخلق فعله بنفسه ، فقام أهل السنة يقولون: القدر حق والله علمه وكتبه وشاءه وخلق أفعال العباد .

---

[1] – جامع بيان العلم وفضله (2/ 938)

الجبرية قالوا: المخلوق لا مشيئة له ، وأهل السنة قالوا المخلوق له مشيئة وإرادة وبناء عليه يتم التكليف والحساب عند الله .

مثلا في قضية مرتكب الكبيرة : قامت المرجئة تقول: إيمانه كامل ، وقامت الخوارج تقول: كافر وقامت أهل السنة تقول: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ولا يخلد في النار .

ما صارت هذه الوسطية إلا بالأخذ الصحيح من المصدر الصحيح .

فما هي مصادر التلقي عند أهل السنة ؟

مصادر التلقي تنقسم إلي قسمين :

– مصادر رئيسية .

– وأخري ثانوية ، أي لا تقوم إلا مع غيرها، يؤخذ منها ولا تقوم بذاتها .

المصادر الرئيسة هي الكتاب والسنة والإجماع ، والمصادر الثانوية هي العقل الصحيح والفطرة السوية .

فلو قال قائل: أين القياس ؟

فالجواب : وإن كان القياس من جملة أدلة التشريع من الناحية الأصولية إلا أن القياس الأصولي لا يصح في مسائل الاعتقاد .

ماهو القياس ؟ أن تلحق واقعة ليس لها نص في حكمها ، تلحقها بواقعة معلومة الحكم ، ورد عليها نص في حكمها لعلة جامعة بينهم .

هل يقاس في مسائل العقيدة ؟

نقول مثلا إذا كان لله صفة كذا إذاً نثبت له صفة كذا ما ثبتت بالقرآن ولا بالسنة ولكن بالقياس ؟

هل يمكن إثبات شيء في الجنة بالقياس؟ طبعا لا .

إذاً القياس في قضايا العقيدة لا يصح، لا يؤخذ منه حكم ولكن يؤخذ بواسطته في الحكم الشرعي.

القياس لا يؤخذ الحكم منه ولكن يؤخذ بواسطته ، فالقياس واسطة ، وليس مصدرا ، فهو آلية تستعمل فتقيس شيء ليس معلوم الحكم علي شيء معلوم بالكتاب والسنة .

فلا قياس في مسائل الاعتقاد وأمور الغيب والجنة والنار ولذلك لا يذكر هنا في هذا الباب .

أما بالنسبة للقرآن الكريم وهو المصدر الأول من مصادر العقيدة ، فالقرآن من مادة قرأ ، يقرأ ، قرأت الشيء أي جمعته وضممت بعضه إلي بعض فهو قرآن لأنه يجمع السور ويضمها قال تعالي (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ).(القيامة–18:17).

هذا القرآن هو اسم لكلام الله المنزل علي عبده محمد صلي الله عليه وسلم ، ويطلق علي كتاب الله خاصة ، فهو كلام الله وهذه إضافة حقيقية من باب إضافة الكلام إلي قائله فهو الذي قاله ، وهو المعجز .

طبعا الصحابة كانوا يقولون القرآن فقط ، فلما ظهر الخوض في صفات الله وفي كلام الله وخاصة من قبل المعتزلة والزنادقة صار السلف إذا جاءوا عند القرآن في كتبهم يشرحون ويكتبون جملا ، فمثلا يقول أبو جعفر الطحاوي رحمه الله : " وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ " [1]

طبعا إذا قام أبو بكر أو عمر يشرح للناس كلمة قرآن لا يحتاج لهذا الشرح لماذا ؟ لأنه ما ثارت قضية خلق القرآن في عهد أبي بكر ولا عمر فلماذا يشرح هذا الشرح ، لكن لما أثيرت القضية في زمن الإمام أحمد قام بها المعتزلة كان لابد من البيان لأن الله أخد العهد علي العلماء أن يبينوا للناس .

هذا الكلام كلام الله تعالي (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ). (النمل–6)

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).(يوسف–2)، وقال النبي صلي الله عليه وسلم (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا ، أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]

من الذي تكلم بالقرآن ابتداء ؟ هو الله .

[1] – متن الطحاوية (ص40)

[2] – متفق عليه

قال الكفار إنه من عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي ألفه ، والمستشرقون كذلك قالوا: من رجل ذكي بليغ ، فيقال: فهناك رجال بلغاء فلماذا لم يأتوا بمثله ؟ لماذا لم يأتوا بقريب منه ؟ تحداهم أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ، خفّض فقال (بعشر سور) فما استطاعوا ، (فأتوا بسورة) فما استطاعوا ، فنادي عليهم بالعجز إلي قيام الساعة فقال (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).(الإسراء-88) .

والرجل مهما كان ذكاؤه كيف يذكر تفاصيل قصص الأمم الماضية ؟ كيف يذكر تفاصيل ما حدث مع امرأة العزيز وبينهما آلاف السنين ؟ .(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) .(آل عمران-44) ، وكذلك في القرآن غيبيات لم تعرف بعد ، فكيف يعرف الرجل بأشياء غيبية ستقع ، وأشياء ستقع بعد سنوات (غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ).(الروم/2-4) وشيء سيقع بعد موته وشيء سيقع قرب قيام الساعة ، ثم هو نفسه الذي تزعمون أن القرآن كلامه ، هو نفسه قال أن هذا القرآن ليس كلامه ، هو من عند الله ، ولما قالوا يعلمه بشر قالوا نجار رومي يأتيه بالقرآن فقال الله (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ).(النحل-106) ، فكيف برجل رومي يأتي بهذا القرآن الذي عجز بلغاء العرب أن يأتوا بمثله؟!

وهكذا تولّي الله تعالي الرد عليهم في هذه الفرية

من رحمة الله بهذه الأمة أنه لما جعل العقيدة والشريعة مصدرها كتاب ربها حفظ لها هذا المصدر ، كي تبقي الشريعة الإسلامية ، وهذه نعمة عظيمة .

أبقي الله عز و جل لنا المصدر دون تحريف ، لا زيادة ولا نقصان ، بل هو باق علي أصله منذ نزل علي نبيه (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).(الحجر-9).

وقد كان هناك أشياء قدرها الله لحفظ القرآن قبل العهد النبوي وأشياء بعد العهد النبوي .

ثم الطريقة التي كان ينزل بها الوحي طريقة مميزة ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ)

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[1]

إذاً من الحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم يميز عند نزول الوحي و لا تستطيع الشياطين أن تلقي أشياء ، لذلك إذا نزل عليه الوحي انشغل انشغالا تاما ، ويكون ثقيلا عليه حتى يتفصد جبينه عرقا في الليلة الباردة الشاتية ولا يكون مع من حوله ، والصحابة يعرفون الآن أن الوحي ينزل فيعم المجلس السكون حتى يسري عنه فيعرفون أن الوحي انتهي ، وللنبي صلى الله عليه وسلم وقت نزول الوحي غطيط كغطيط البكر.[2]

ثانيا :- أن الله تعالى يرسل إليه جبريل صلى الله عليه وسلم يدارسه القرآن كل سنة لحفظ المصدر فأرسل الله جبريل يدارسه القرآن في كل رمضان مرة ، حتى كان في العام الذي توفي فيه دارسه القرآن مرتين ، حتى يتم التأكد أنه ما فيه زيادة حرف ولا نقصان .

ثالثا :- كتابة الوحي ومقابلته فكان للنبي صلي الله عليه وسلم كتّاب يكتبون الوحي علي ما تيسر لديه من الألواح ، و هذه الكتابة طريقة إضافية غير الحفظ ؛ لبقاء القرآن محفوظا .

رابعا :- منع كتابة أي شيء عنه سوي القرآن فقال لأصحابه (لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ)[3].

قال النووي رحمه الله :

" اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَاد بِهَذَا الْحَدِيث الْوَارِد فِي النَّهْي , فَقِيلَ :

[1] – متفق عليه

[2] – الفتيّ من الإبل ، والحديث متفق عليه.

[3] – رواه مسلم (3004)

هُوَ فِي حَقّ مَنْ يَوْثُق بِحِفْظِهِ , وَيُخَاف اِتِّكَاله عَلَى الْكِتَابَة إِذَا كَتَبَ . وَتُحْمَل الْأَحَادِيث الْوَارِدَة بِالْإِبَاحَةِ عَلَى مَنْ لَا يَوْثُق بِحِفْظِهِ كَحَدِيثِ : " أُكْتُبُوا لِأَبِي شَاه " وَحَدِيث صَحِيفَة عَلِيّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ , وَحَدِيث كِتَاب عَمْرو بْن حَزْم الَّذِي فِيهِ الْفَرَائِض وَالسُّنَن وَالدِّيَات . وَحَدِيث كِتَاب الصَّدَقَة وَنُصُب الزَّكَاة الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَبُو بَكْر رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّه عَنْهُ حِين وَجَّهَهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ , وَحَدِيث أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ اِبْن عَمْرو بْن الْعَاص كَانَ يَكْتُب وَلَا أَكْتُب , وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيث .

وَقِيلَ : إِنَّ حَدِيث النَّهْي مَنْسُوخ بِهَذِهِ الْأَحَادِيث , وَكَانَ النَّهْي حِين خِيفَ اِخْتِلَاطُهُ بِالْقُرْآنِ فَلَمَّا أَمِنَ ذَلِكَ أَذِنَ فِي الْكِتَابَة .

وَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْ كِتَابَة الْحَدِيث مَعَ الْقُرْآن فِي صَحِيفَة وَاحِدَة ; لِئَلَّا يَخْتَلِط , فَيَشْتَبِه عَلَى الْقَارِئ فِي صَحِيفَة وَاحِدَة . وَاللَّهُ أَعْلَم "[1].

خامسا:– حض الأمة علي تعلم القرآن وتعليمه ؛ فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[2]

وكانوا إذا حفظ فيهم الرجل سورة البقرة نبغ في أعينهم ؛ فعن أَنَسٍ قال : كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا – يَعْنِي عَظُمَ.[3]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا وَهُمْ ذُو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنْ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا فَقَالَ: مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ . قَالَ أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟ فَقَالَ نَعَمْ قَالَ: (فَاذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ) [4]

[1] – شرح مسلم (130/18)

[2] – رواه البخاري (5027)

[3] – رواه أحمد (11805) وإسناده صحيح على شرط الشيخين

[4] – رواه الترمذي (2876) وضعفه الألباني

والعرب أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، ولكنهم حفظة ، كان الواحد منهم يسمع القصيدة مرة واحدة فيحفظها كلها ، ما كانوا يكتبون القصائد إلا القليل منهم ، لكن الأكثرية حفاظ .

فالعرب كانوا أهل حافظة قوية جدا لا يكاد يوجد في الأمم مثيل لهم

وهكذا كثر آخذو القرآن صدرا وسطرا حتى تم حفظ القرآن في عهده صلي الله عليه وسلم .

وبعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم تجلي جمع القرآن في حادثتين عظيمتين :

فعَنْ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ.

قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ.

فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنْ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ .

فَكَانَتْ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .[1]

---

[1] – رواه البخاري (4986)

وفي هذا دليل علي مشروعية تكوين اللجان للقيام بالمهمات، واستدعى القدير الحافظ الشاب المتيقظ المتوقد ذاكرة وذكاء زيد بن ثابت ، وهكذا تمت عملية الجمع الأولي .

الحادثة الثانية: في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه :

فعن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ : أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ . فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ .

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا ، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنْ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ سَمِعَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: فَقَدْتُ آيَةً مِنْ الْأَحْزَابِ حِينَ نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهَا فَالْتَمَسْنَاهَا فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ (مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) فَأَلْحَقْنَاهَا فِي سُورَتِهَا فِي الْمُصْحَفِ.[1]

وهكذا كتبت المصاحف وأُرسلت إلى الآفاق ، وبقي القرآن سالما من التحريف، فالأجيال تحفظه جيلا بعد جيل ؛ مصداقا لقوله تعالي (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .(الحجر–9)

هذا القرآن هو المصدر الأول للتشريع ، وهو من أعظم ما أنعم الله به علي الأمة . قال شيخ الإسلام رحمه الله :

[1] – رواه البخاري (4988)

" وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ اعْتِصَامُهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَكَانَ مِنْ الْأُصُولِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ لَا بِرَأْيِهِ وَلَا ذَوْقِهِ وَلَا مَعْقُولِهِ وَلَا قِيَاسِهِ وَلَا وَجْدِهِ ، فَإِنَّهُمْ ثَبَتَ عَنْهُمْ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّاتِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَأَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ : فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَهُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَهُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُزِيغَهُ إلَى هَوَاهُ وَلَا يُحَرِّفَ بِهِ لِسَانَهُ وَلَا يَخْلَقَ عَنْ كَثْرَةِ التَّرْدَادِ ، فَإِذَا رُدِّدَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لَمْ يَخْلَقْ وَلَمْ يُمَلَّ كَغَيْرِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إلَيْهِ هُدِيَ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

فَكَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الْإِمَامَ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ ؛ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُ عَارَضَ الْقُرْآنَ بِعَقْلِ وَرَأْيٍ وَقِيَاسٍ وَلَا بِذَوْقِ وَوَجْدٍ وَمُكَاشَفَةٍ وَلَا قَالَ قَطُّ قَدْ تَعَارَضَ فِي هَذَا الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقُولَ : فَيَجِبُ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ "[1].

المصدر الثاني من مصادر العقيدة: هي السنة النبوية .

والسنة في اللغة: هي الطريقة والسيرة، سواء أكانت حسنة أم سيئة.

عَنْ جَرِيرٍ البجلي قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ . وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[2]

أما اصطلاحا: فإنها تختلف باختلاف نوع العلم الذي يعرف أصحابه السنة:

[1] – مجموع الفتاوى [13 /29]

[2] – رواه مسلم (1017)

فعند المحدثين هي ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، خُلقية أو خَلقية أو سيرة سواء كانت قبل البعثة أم بعدها .

والسنة عند الأصوليين هي ما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، فنظروا للسنة من جهة كونها مصدرا أو دليلا ولهذا يطلقون عليها الدليل .

وعند الفقهاء هي المستحب ليست الفرض ولا الواجب .

وقد تطلق السنة في مقابل البدعة أيضا عند الكلام عن البدعة وأهلها.

والسنة وحي من الله ولا شك في ذلك ، والله تعالي يلقي في نفس نبيه وحي فيقوله بكلامه فتنسب إلي النبي صلى الله عليه وسلم لأنه منشأ اللفظ لكن المعني من الله قطعا ، ألم تر أنه صلي الله عليه وسلم قال (لَا يَسْتَبْطِئَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْقَى فِي رُوعِيَ أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ)[1].

ألقي في روعي: أي أن هذا وحي من الله .

وهناك أدلة كثيرة علي أن السنة وحي من الله قال تعالي (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) ، وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو: (اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ)[2]. وكذلك قال تعالي (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا).(الأحزاب-34) .

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

" فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة ؛ فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله . وهذا يشبه ما قال والله أعلم ؛ لأن القرآن ذُكر ، وأتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة ؛ فلم يجز الله . والله اعلم . أن يقال : الحكمة . ها هنا . إلا سنة رسول الله ؛ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ،

---

[1] – رواه الحاكم في المستدرك (2136) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1700)

[2] – رواه أبو داود (3161) وصححه الألباني

وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرض ؛ إلا لكتاب الله ، ثم سنة رسوله ؛ لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به "[1]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ)[2]

والمقصود بمثله: "السنة" ، فلا شك في أن السنة من الوحي ولا يخالف في ذلك إلا رجل من المبطلين .

والله عز وجل حفظ السنة أيضا وتلك من نعم الله علينا ، وذلك بأشياء متعددة في عهده صلي الله عليه وسلم وبعد عهده .

ففي عهد النبي صلي الله عليه وسلم : كان يقول الكلمة ويعيدها ثلاث مرات حتى تفهم عنه ، وكان في كلامه مترسلا متمهلا حتى لو شاء العاد أن يحصيه لأحصاه؛ وذلك كله لحفظ السنة ورغّب النبي صلي الله عليه وسلم في حفظ الحديث فقال { نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا }[3] .

فحث علي الحفظ والفهم والتأدية أيضا ، ثم توعد بالنار من كتم العلم فقال { مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يوم القيامة }[4] ، ثم توعد بالوعيد الشديد لمن كذب عليه فقال : (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[5].

صار هذا الحديث سببا لعدم الافتراء والكذب لشدة الوعيد ، ثم الصحابة الذين سمعوا الحديث كانت ذاكرتهم قوية جدا فحفظوه ، ولذلك يقول الصحابي في أحد الأحاديث: (سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ)[6]

---

[1] – الرسالة (ص78)

[2] – رواه أبو داود (3988) وصححه الألباني

[3] – رواه الترمذي (2582) وصححه الألباني

[4] – رواه أبو داود (3658) وصححه الألباني

[5] – متفق عليه

[6] – هو أبو شريح العدوي رضي الله عنه ، والحديث متفق عليه

وكانت عَائِشَةَ رضي الله عنها لا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ .[1]

وقال أنس رضي الله عنه: كنا عند النبي صلي الله عليه وسلم فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه.[2]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ قَالَ : ابْسُطْ رِدَاءَكَ . فَبَسَطْتُهُ قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: ضُمَّهُ، فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ .[3]

ثم احتياط الصحابة في رواية الحديث وتثبتهم ، ويسمع الواحد منهم الحديث من غير واحد من الصحابة ويصدق بعضهم بعضا ، بل إن الصحابة أنفسهم رحلوا في طلب الحديث حتى رحل بعضهم شهرا ليسمع حديثا واحدا ، ثم منهم من كتبه كما كان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله أريد أن أحفظه فنهتني قريش وقالت: النبي صلي الله عليه وسلم يتكلم في الغضب والرضا فاسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك للنبي صلي الله عليه وسلم ، فقال (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)[4].

وهكذا بعد النبي صلي الله عليه وسلم استمرت عملية حفظ السنة فاهتم التابعون بتلقي السنة من الصحابة اهتماما عظيما وجاءوا جماعات ووحدانا للصحابة المشهورين بالحديث يتلقون عنهم الحديث ، ويتبعون الصحابة ويأخذون من أفواههم ويستعينون علي حفظه بالمذاكرة والكتابة مع ما أعطاهم الله من الدقة والحفظ والفهم والورع .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز دُونت السنة وأمر أبا بكر بن حزم وابن شهاب الزهري بجمع الأحاديث خشية موت العلماء .

ثم جمعت الأحاديث في الجوامع علي الأبواب المختلفة : باب الصلاة ، باب الإيمان ، كذلك صار عندنا صحيح البخاري ومسلم وجمعت الأحاديث علي المسانيد كمسند الإمام أحمد.

---

[1] – رواه البخاري (103)

[2] – الجامع – للخطيب البغدادي (236/1)

[3] – رواه البخاري (119)

[4] – رواه أبو داود (3646) وصححه الألباني

ثم قامت عملية الصيانة الداخلية والرد علي المتعصبين للمذاهب ، وهكذا لما بدأت تدخل في الإسلام أشياء دخيلة بدأ حَمَلة الحديث بكشف الكذابين وفضحهم والكلام على الحديث ورجاله وعلله ، فاهتموا بالرواة والألقاب والشيوخ والطلاب والوفيات والرحلات والجرح والتعديل ، وحفظ المتون من التحريف والتصحيف ، وهذه أبواب واسعة جدا وعلوم فاضلة لخدمة السنة والذب عنها .

وهكذا صارت سنة النبي صلي الله عليه وسلم محفوظة . وحجية السنة لا شك فيها وبيان ذلك في قوله تعالي (أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) .(النساء–59) ، وحذر من مخالفتها فقال: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).(النور–63) يعني عن أمر محمد صلي الله عليه وسلم ، وجعل الله تعالى طاعة رسوله من لوازم الإيمان فقال: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا).(النساء– 65) .

وأمر عباده بالاستجابة لله ولرسوله (اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ).(الأنفال–24) ، وأمرهم برد ما تنازعوا فيه إلي نبيه صلي الله عليه وسلم فقال (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً). (النساء–59).

التشكيك في السنة :

ولذلك لما قامت حركة القرآنيين ، طبعا نسبتهم للقرآن نسبة تجاوز وإلا لعملوا بما في القرآن ، هذه الحركة حركة قديمة ، أناس يقولون ما نأخذ إلا ما في القرآن ، أما السنة فلا نعترف بها ، والنبي صلي الله عليه وسلم من علامات نبوته أنه أخبر بهذا الصنف فقال (لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ)[1]

[1] – رواه أبو داود (4605) وصححه الألباني

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)[1]

وإنكار حجية السنة تشكيك في مصدر من مصادر التشريع، وتشكيك في عدالة النقلة ، وكذلك ما حدث من المستشرقين والمعتزلة والروافض وغيرهم تشكيك في السنة للقضاء علي هذا المصدر الثاني للعقيدة الصحيحة ، ولا شك أن حجية السنة – ومنها خبر الآحاد – مسألة مهمة من مسائل العقيدة لأنهم إذا طعنوا في السنة فمعناها أن كل المسائل العقدية المبنية علي السنة تسقط.

وقد ظهرت بوادر هذه المحنة في العصر الأول ؛ فعن الْحَسَن، قَالَ: بَيْنَمَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ، عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا نُجَيْدٍ، حَدِّثْنَا بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ: «أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، أَكُنْتَ مُحَدِّثِي عَنِ الصَّلَاةِ وَمَا فِيهَا وَحُدُودِهَا؟ أَكُنْتَ مُحَدِّثِي عَنِ الزَّكَاةِ فِي الذَّهَبِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَأَصْنَافِ الْمَالِ؟ وَلَكِنْ قَدْ شَهِدْتُ وَغِبْتَ أَنْتَ» ، ثُمَّ قَالَ: «فَرَضَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الزَّكَاةِ كَذَا وَكَذَا» وَقَالَ الرَّجُلُ: أَحْيَيْتَنِي أَحْيَاكَ اللَّهُ. قَالَ الْحَسَنُ: فَمَا مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ حَتَّى صَارَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ.[2]

وعَنْ أبي قِلابَةَ قَالَ: إِذَا حَدَّثْتَ الرَّجُلَ بِالسُّنَّةِ فَقَالَ: دَعْنَا مِنْ هَذَا وَهَاتِ كِتَابَ اللَّهِ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ ضَالٌّ.[3]

هذا دليل علي وجود تيار فكري بدأ ينكر الحديث وحجية السنة .

وقال ابن قتيبة :

---

[1] – رواه أبو داود (4607) وصححه الألباني

[2] – رواه الحاكم في المستدرك (372)

[3] – الطبقات الكبرى (7/ 137)

" وَبَلَغَنِي أَنَّ مِنْ أَصْحَابِ الْكَلَامِ، مَنْ يَرَى الْخَمْرَ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا نَهَى عَنْهَا، عَلَى جِهَةِ التَّأْدِيب، كَمَا قَالَ: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}. وَكَمَا قَالَ: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ}.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى نِكَاحَ تِسْعٍ مِنَ الْحَرَائِرِ جَائِزٌ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ}.

قَالُوا: فَهَذَا تِسْعٌ قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ عَنْ تِسْعٍ، وَلَمْ يُطْلِقِ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي الْقُرْآنِ، إِلَّا مَا أَطْلَقَ لَنَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى شَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَجِلْدَهُ حَلَالًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا حَرَّمَ لَحْمَهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} ، فَلَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا غَيْرَ لَحْمِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ شَيْئًا حَتَّى يَكُونَ، وَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا حَتَّى يَتَحَرَّى.

فَبِمَنْ يُتَعَلَّقُ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَمَنْ يُتَّبَعُ وَهَذِهِ نِحَلُهُمْ؟ وَهَكَذَا اخْتِلَافُهُمْ؟.

وَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي تَخَلُّصِ الْحَقِّ مِنْ بَيْنِهِمْ؟ وَهُمْ -مَعَ تَطَاوُلِ الْأَيَّامِ بِهِمْ، وَمَرِّ الدُّهُورِ- عَلَى الْمُقَايَسَاتِ وَالْمُنَاظَرَاتِ؟ لَا يَزْدَادُونَ إِلَّا اخْتِلَافًا، وَمِنَ الْحَقِّ إِلَّا بُعدًا؟

وَكَانَ أبو يُوسُفَ يَقُولُ: مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ.

وَقَدْ كُنْتُ فِي عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ وَتَطَلُّبِ الْآدَابِ، أُحِبُّ أَنْ أَتَعَلَّقَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِسَبَبٍ، وَأَن أضْرب فِيهِ بِسَهْم.

فَرُبَّمَا حَضَرْتُ بَعْضَ مَجَالِسِهِمْ، وَأَنَا مُغْتَرٌّ بِهِمْ طَامِعٌ أَنْ أَصْدُرَ عَنْهُ بِفَائِدَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ تَدُلُّ عَلَى خَيْرٍ، أَوْ تَهْدِي لِرُشْدٍ.

فَأَرَى مِنْ جُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقِلَّةِ تُوَقِّيهِمْ، وَحَمْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعَظَائِمِ لِطَرْدِ الْقِيَاسِ أَوْ لِئَلَّا يَقَعَ انْقِطَاعٌ -مَا أَرْجِعُ مَعَهُ خَاسِرًا نَادِمًا "[1].

---

[1] - تأويل مختلف الحديث (ص: 112-114)

فالهجوم علي السنة كمصدر لتلقي العقيدة مهم جدا عند المبتدعة فهم يريدون إسقاطها لأن فيها أحاديث واضحة في الرد علي بدعهم ، ولذلك تتجه جهودهم لإسقاط حجيتها .

وقد اتجهت جهود الأعداء إلي الطعن في السنة من جهتين :-

الأولي:- التشكيك في عدالة النقلة ولا سيما الصحابة .

قالوا مرتكب الكبيرة يكفر ، والإيمان واحد ، والصحابة تقاتلوا والقتال كبيرة إذاً ذهب إيمانهم فهم كفار ، إذاً أحاديثهم غير مقبولة ، فسقطت السنة . وهؤلاء الرافضة الذين يزعمون نصرة آل البيت ، وهم من أكذب الطوائف ، يردون السنة ويطعنون في رواتها ، ويكذبون على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويرون ذلك دينا .

الثانية:- تقديم العقل علي النقل عند التعارض بزعمهم .

قالوا العقل دليل قطعي ، أما الحديث فالراوي ممكن يخطئ أو ينسى ، حتى قال عمرو بن عبيد المعتزلي وقد ذكروا له حديث الصادق المصدوق، فقال: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا.[1]

فليس عندهم توقير للسنة ولا لأهلها ، إنما توقيرهم وتعظيمهم لأهوائهم .

لقد أصبح هذا التيار العقلي مذهبا لهؤلاء وأتباعهم ، وصاروا يقولون هذا حديث مخالف للعقل وبناء عليه ينكرون أي شيء يخالف عقولهم أو يرونه عيبا عند الغربيين ، عيب أن نقول للغربيين أن للمرأة نصف الرجل أو نقول المرأة لا تتولي الولاية العامة ، فإذا ذكرت لهم الحديث أعرضوا ، وأولوا وحرفوا المعنى . المهم أن تُميع القضية ويُرد الحكم الشرعي لأنه يخالف عقولهم .

[1] - ميزان الاعتدال [3 /278]

أما هؤلاء الذين لا يؤمنون بالسنة كليةً ويسمون أنفسهم بالقرآنيين في هذا الزمان فهذه شبهة قديمة من عهد السلف إلى يومنا هذا ، حتى أصبح لهم مواقع علي الإنترنت ينشرون من خلالها بدعتهم (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) .(الذاريات–53). يقولون القرآن حوي كل شيء فلا نحتاج للسنة! ويتلُون كلام الله محتجين به على بدعتهم وضلالتهم : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ).(الأنعام–38) ، وهي كلمة حق أريد بها باطل

ويجاب عن هذا بأن الله أبان في القرآن كل شيء من وجوه أربعة :–

أولا:– ما أبانه نصا مثل الصلاة والزكاة والخمر والزنا والربا، جملة بدون تفصيل.

ثانيا:– ما أحكم فرضه في كتابه وبينه علي لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مثل عدد الصلوات ومقادير الزكاة وغير ذلك مما أصله في الكتاب وتفصيله في السنة .

ثالثا:– ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس له ذكر في الكتاب ولكن أشار إليه تعالي بقوله :(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ).(النساء–59) ، فلما أمرهم بطاعة رسوله في القرآن كانت الأشياء الزائدة عن القرآن جاءت في القرآن من جهة أمره بطاعة الرسول ، كقوله : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).(الحشر–7).

فإذاً القرآن فيه بيان لكل شيء ، لو قلت الأشياء الدقيقة غير موجودة في القرآن فكيف يكون القرآن فيه تبيان لكل شيء؟ فإما أن تقول فيه بيان له بالنص في القرآن أصلا ، أو دلالة وتبعا، عندما يقول: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ). (الحشر–7) ، عرفنا أن الله قد أمرنا به في كتابه ، وحفظت هذه الطريقة للرد علي هؤلاء المبتدعة. فإذا ما أتانا في السنة الصحيحة فيكون بذلك قد جاء الأمر به في الكتاب ضمنا ؛ لقوله (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ).

رابعا:– ما فرض الله تعالي علي خلقه من الاجتهاد في طلبه.

هناك أحكام ليست في الكتاب ولا في السنة ممكن أن يعرفها المجتهدون بالقياس مثلا ، هل القرآن يدل عليها ؟ يدل عليها في مثل قوله تعالى : (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).(النحل–43)) ، ونحو ذلك من الآيات التي فيها الأمر لأهل العلم بالبيان وعدم الكتمان (وَإِذَ

أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ).(آل عمران–187)) .

يعني الأحكام التي يقولها العلماء في القضايا المستجدة ، هل هي داخلة في الكتاب الذي فيه تبيان لكل شيء ؟ نعم داخلة ضمنا .

فإذاً المراد بقوله (تبيانا لكل شيء) أن الله يبين كل شيء في كتابه إما تفصيلا وإما تأصيلا . كذكر تفاصيل المواريث من يرث ومن لا يرث، وتحريم أكل لحم الحمر الأهلية ، كذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، هذا موجود في السنة ودل عليه الكتاب تأصيلا لما وضع لنا الأصل الذي يؤدي إلي الأخذ بهذه الأحكام .

وقوله تعالي (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) قالوا: هو اللوح المحفوظ ، والمعنى: ما أهملنا ولا أغفلنا، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ، على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.[1]

وهكذا لا يأتون بشبهة إلا والدليل عليها حاضر، فلو قالوا (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).(الحجر–9) لو قالوا السنة ما حُفظت، القرآن هو الذي حفظ ، نقول: كيف لم تُحفظ السنة ؟ وأين جهود العلماء التي بذلت في خدمتها؟ ما في رجل من رجال الأحاديث إلا وتكلموا عليه .

هذا علم الإسناد ، ليس في الأمم كلها من عندهم هذا العلم إلا هذه الأمة، لا اليهود ولا النصارى ولا غيرهم ، فهذا من حفظ الله للسنة ، كيف يحفظ الله المتن ويأذن بضياع الشرح ؟! أبدا ، حفظ الله المتن والشرح فحفظ الكتاب والسنة ، وكذلك فإن السنة من الوحي والوحي محفوظ كله تكفل الله بحفظه ، إذاً فالسنة محفوظة أيضا .

خبر الآحاد وحجيته

حينما نتكلم عن مصادر العقيدة لابد أن نتطرق لمسألة خبر الآحاد؛ لأن المبتدعة ينفون مسائل كثيرة في العقيدة لأنها أخبار آحاد.

---

[1] – تفسير السعدي (ص: 255)

وخبر الآحاد هو الحديث الذي لم يبلغ حد التواتر، مثل الغريب الذي ليس له إلا طريق واحد ، وإن كان صحيحا فهو آحاد ، فما هو الموقف منه؟

وأهل البدع لهم رأي في المسألة فيقولون: ما جاء من طريق واحد فهو مشكوك فيه ، فلا يحتج به في قضايا الاعتقاد .

وقد ذهب المنتسبون إلى العلم في قضية خبر الآحاد إلي ثلاثة مذاهب:

الأول :- خبر الآحاد يفيد العلم مطلقا.

الثاني :- خبر الآحاد يفيد العلم بشروط.

الثالث:- خبر الآحاد لا يفيد العلم.

والصحيح أن خبر الآحاد إذا صح سنده فإنه يفيد العلم، لا مجرد الظن ، وهو مذهب أهل العلم من السلف والخلف .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ وَقَدْ قَسَّمَ الْأَخْبَارَ إِلَى تَوَاتُرٍ وَآحَادٍ فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ التَّوَاتُرِ:

" وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْأَخْبَارِ فَهُوَ مَا لَا يَرْوِيهِ إِلَّا الْوَاحِدُ الْعَدْلُ وَنَحْوُهُ، وَلَمْ يَتَوَاتَرْ لَفْظُهُ وَلَا مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ عَمَلًا بِهِ أَوْ تَصْدِيقًا لَهُ كَخَبَرِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ " «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» " وَخَبَرِ أَبِي هُرَيْرَةَ " «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا» " وَكَقَوْلِهِ " «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» " وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَهَذَا يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ عِنْدَ جَمَاهِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

أَمَّا السَّلَفُ فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ نِزَاعٌ، وَأَمَّا الْخَلَفُ فَهَذَا مَذْهَبُ الْفُقَهَاءِ الْكِبَارِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِنَّمَا نَازَعَ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ كَابْنِ الْبَاقِلَّانِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِثْلُ أَبِي الْمَعَالِي وَالْغَزَالِيِّ وَابْنِ عَقِيلٍ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ وَصَحَّحَهُ وَاخْتَارَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ كَثْرَةَ الْقَائِلِينَ بِهِ لِيَتَقَوَّى بِهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَهُ بِمُوجَبِ الْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ.

وَجَمِيعُ أَهْلِ الْحَدِيثِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو "[1] انتهى باختصار

---

[1] - مختصر الصواعق المرسلة (ص: 560-562)

وقال ابن القيم رحمه الله

" وَمَنْ لَهُ أَدْنَى إِلْمَامٍ بِالسُّنَّةِ وَالْتِفَاتٍ إِلَيْهَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَوْلَا وُضُوحُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ لَذَكَرْنَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَوْضِعٍ.

فَهَذَا الَّذِي اعْتَمَدَهُ نُفَاةُ الْعِلْمِ عَنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ خَرَقُوا بِهِ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ بِإِجْمَاعِ التَّابِعِينَ وَإِجْمَاعِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَوَافَقُوا بِهِ الْمُعْتَزِلَةَ وَالْجَهْمِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ وَالْخَوَارِجَ الَّذِينَ انْتَهَكُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ، وَتَبِعَهُمْ بَعْضُ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَإِلَّا فَلَا يُعْرَفُ لَهُمْ سَلَفٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِذَلِكَ بَلْ صَرَّحَ الْأَئِمَّةُ بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ.

فَمِمَّنْ نَصَّ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يُفِيدُ الْعِلْمَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَأَصْحَابُهُ كَأَبِي مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمٍ وَنَصَّ عَلَيْهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَرَابِيسِيُّ وَالْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ الْمُحَاسِبِيُّ.

قَالَ ابْنُ خُوَازِ مِنْدَادَ فِي كِتَابِ أُصُولِ الْفِقْهِ: وَقَدْ ذَكَرَ خَبَرَ الْوَاحِدِ الَّذِي لَمْ يَرْوِهِ إِلَّا الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانُ، وَيَقَعُ بِهَذَا الضَّرْبِ أَيْضًا الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مَالِكٌ، وَقَالَ أَحْمَدُ فِي حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ: نَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ، وَنَقْطَعُ عَلَى الْعِلْمِ بِهَا، وَكَذَلِكَ رَوَى الْمَرُّوذِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: هَاهُنَا اثْنَانِ يَقُولَانِ إِنَّ الْخَبَرَ يُوجِبُ عَمَلًا وَلَا يُوجِبُ عِلْمًا فَعَابَهُ، وَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا هَذَا، وَقَالَ الْقَاضِي: وَظَاهِرُ هَذَا إِنَّهُ يُسَوِّي بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَقَالَ الْقَاضِي فِي أَوَّلِ الْمُخْبِرِ: خَبَرُ الْوَاحِدِ يُوجِبُ الْعِلْمَ إِذَا صَحَّ سَنَدُهُ وَلَمْ تَخْتَلِفِ الرِّوَايَةُ فِيهِ وَتَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ، وَأَصْحَابُنَا يُطْلِقُونَ الْقَوْلَ فِيهِ وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْعِلْمَ وَإِنْ لَمْ تَتَلَقَّهُ بِالْقَبُولِ، قَالَ: وَالْمَذْهَبُ عَلَى مَا حَكَيْتُ لَا غَيْرُ "[1]

ولو قال قائل: ما هو الدليل علي قبول خبر الآحاد ؟ فنقول :

[1] – مختصر الصواعق المرسلة (ص: 553)

أولا:- يجب أن نعرف أن التفريق بين التواتر والآحاد حادث ، لم يكن علي عهد السلف ، اخترعه بعض الناس وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يصدقه المؤمنون فيما يخبر ، وكان النبي صلي الله عليه وسلم يصدق أصاحبه فيما يخبرونه ولو كانوا آحادا ، وكذلك الصحابة يصدق بعضهم بعضا فيما يحدث به الآخر وهو واحد ، ولم يقل واحد من الصحابة لآخر قال له خبر: إن خبرك غير مقبول عندي لأنك واحد . ولا توقف أحد منهم في خبر صاحبه حتى يستوثق منه ويؤيده خبر ثان .

أما حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ . فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ . أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ .[1]

فهذا من عمر رضي الله عنه محمول على طلب المزيد من التوكيد ، ليس لأن عمر يرد خبر الآحاد ، ولكن قد يريد الإنسان مزيدا من التأكد فيطلب الحصول علي مصدر ثان وثالث ولكن لو لم يحصل إلا علي مصدر واحد فهو يفيد العلم ويعتقد به .

كما أن عمر رضي الله عنه خشي أن يتسارع الناس في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تبصّر وعلم ، فيقعوا في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكون ذلك فتحا لباب الفتنة الذي يلج منه الكذابون والمنافقون ليكذبوا على رسول الله وينسبوا إليه الباطل ليطعنوا في الدين ، وكان عمر رضي الله عنه قُفل الفتنة ، لم ينفتح بابها على الأمة إلا بموته .

قال النووي رحمه الله :

---

[1] – متفق عليه

" وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْحَدِيث مَنْ يَقُول : لَا يُحْتَجّ بِخَبَرِ الْوَاحِد , وَزَعَمَ أَنَّ عُمَر رَضِيَ اللَّه عَنْهُ رَدّ حَدِيث أَبِي مُوسَى هَذَا لِكَوْنِهِ خَبَر وَاحِد , وَهَذَا مَذْهَب بَاطِل , وَقَدْ أَجْمَع مَنْ يَعْتَدّ بِهِ عَلَى الِاحْتِجَاج بِخَبَرِ الْوَاحِد وَوُجُوب الْعَمَل بِهِ , وَدَلَائِله مِنْ فِعْل رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ وَسَائِر الصَّحَابَة وَمَنْ بَعْدهمْ أَكْثَر مِنْ أَنْ يُحْصَر . وَأَمَّا قَوْل عُمَر لِأَبِي مُوسَى : (أَقِمْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَة) فَلَيْسَ مَعْنَاهُ رَدّ خَبَر الْوَاحِد مِنْ حَيْثُ هُوَ خَبَر وَاحِد , وَلَكِنْ خَافَ عُمَر مُسَارَعَة النَّاس إِلَى الْقَوْل عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَتَقَوَّل عَلَيْهِ بَعْض الْمُبْتَدِعِينَ أَوْ الْكَاذِبِينَ أَوْ الْمُنَافِقِينَ وَنَحْوهمْ مَا لَمْ يَقُلْ , وَأَنَّ كُلّ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ قَضِيَّة وَضعَ فِيهَا حَدِيثًا عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَأَرَادَ سَدّ الْبَاب خَوْفًا مِنْ غَيْر أَبِي مُوسَى لَا شَكًّا فِي رِوَايَة أَبِي مُوسَى , فَإِنَّهُ عِنْد عُمَر أَجَلّ مِنْ أَنْ يُظَنّ بِهِ أَنْ يُحَدِّث عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يَقُلْ , بَلْ أَرَادَ زَجْر غَيْره بِطَرِيقِهِ , فَإِنَّ مَنْ دُون أَبِي مُوسَى إِذَا رَأَى هَذِهِ الْقَضِيَّة أَوْ بَلَغَتْهُ , وَكَانَ فِي قَلْبه مَرَض , أَوْ أَرَادَ وَضْع حَدِيث خَافَ مِنْ مِثْل قَضِيَّة أَبِي مُوسَى , فَامْتَنَعَ مِنْ وَضْع الْحَدِيث وَالْمُسَارَعَة إِلَى الرِّوَايَة بِغَيْرِ يَقِين . وَمِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّ عُمَر لَمْ يَرُدّ خَبَر أَبِي مُوسَى لِكَوْنِهِ خَبَر وَاحِد أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ إِخْبَار رَجُل آخَر حَتَّى يَعْمَل بِالْحَدِيثِ , وَمَعْلُوم أَنَّ خَبَر الِاثْنَيْنِ خَبَر وَاحِد , وَكَذَا مَا زَادَ حَتَّى يَبْلُغ التَّوَاتُر , فَمَا لَمْ يَبْلُغ التَّوَاتُر فَهُوَ خَبَر وَاحِد . وَمِمَّا يُؤَيِّدهُ أَيْضًا مَا ذَكَرَهُ مُسْلِم فِي الرِّوَايَة الْأَخِيرَة مِنْ قَضِيَّة أَبِي مُوسَى هَذِهِ أَنَّ أُبَيًّا رضي الله عنه قَالَ : (يَا اِبْن الْخَطَّاب فَلَا تَكُونَنَّ عَذَابًا عَلَى أَصْحَاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَقَالَ : سُبْحَان اللَّه إِنَّمَا سَمِعْت شَيْئًا فَأَحْبَبْت أَنْ أَتَثَبَّت) . وَاللَّه أَعْلَم "[1]

وكذلك التابعون يلتقون بالصحابة ويأخذون عنهم ، واحد من التابعين ما لقي إلا صحابي واحد سمع منه حديثا واحدا يقبله منه أم يقول أنت واحد هات معك آخر حتى أقبل منك ؟!

ثانيا:– كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث الآحاد من الصحابة إلي الملوك فبعث إلي قيصر واحدا ، وأرسل إلي عدد من الملوك رسلا وسفراء ، سفير واحد ورسول واحد يحمل الرسالة ، فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتقد أن خبر الواحد لا يفيد العلم كان أرسل عددا

[1] – شرح النووي على مسلم (132/14)

متواترا من رسله ، فلما أرسل واحدا في عدد من الحالات كان عند النبي صلى الله عليه وسلم أن خبر الواحد يكفي في إقامة الحجة إذا كان ثقة .

والأدلة الشرعية على أن خبر الواحد إذا صح أفاد العلم كثيرة جدا ، ذكر بعضا منها ابن القيم رحمه الله ، فكان مما قاله :

" وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ الْعَدْلِ يُفِيدُ الْعِلْمَ أَدِلَّةٌ كَثِيرَةٌ :

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا أَخْبَرَهُمُ الْوَاحِدُ وَهُمْ بِقِبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ أَنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ قَبِلُوا خَبَرَهُ وَتَرَكُوا الْحُجَّةَ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَاسْتَدَارُوا إِلَى الْقِبْلَةِ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ شُكِرُوا عَلَى ذَلِكَ وَكَانُوا عَلَى أَمْرٍ مَقْطُوعٍ بِهِ مِنَ الْقِبْلَةِ الْأُولَى، فَلَوْلَا حُصُولُ الْعِلْمِ لَهُمْ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ لَمْ يَتْرُكُوا الْمَقْطُوعَ بِهِ الْمَعْلُومَ لِخَبَرٍ لَا يُفِيدُ الْعِلْمَ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: 6] وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى (فَتَثَبَّتُوا) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْجَزْمِ بِقَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّثْبِيتِ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: 122] وَالطَّائِفَةُ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ فَمَا فَوْقَهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الطَّائِفَةَ تُنْذِرُ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ وَالْإِنْذَارُ: الْإِعْلَامُ بِمَا يُفِيدُ الْعِلْمَ.

الدَّلِيلُ الرابع: قَوْلُهُ: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36] أَيْ لَا تَتَّبِعْهُ وَلَا تَعْمَلْ بِهِ، وَلَمْ يَزَلِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَهْدِ الصَّحَابَةِ يَقْفُونَ أَخْبَارَ الْآحَادِ وَيَعْمَلُونَ بِهَا وَيُثْبِتُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِهَا الصِّفَاتِ، فَلَوْ كَانَتْ لَا تُفِيدُ عِلْمًا لَكَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ قَدْ قَفَوْا مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ.

الدَّلِيلُ الخامس: قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43] فَأَمَرَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الذِّكْرِ وَهُمْ أُولُو الْكِتَابِ وَالْعِلْمِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَخْبَارَهُمْ تُفِيدُ الْعِلْمَ لَمْ يَأْمُرْ بِسُؤَالِ مَنْ لَا يُفِيدُ خَبَرُهُ عِلْمًا... "

إلى آخر ما ذكره رحمه الله .[1]

وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تَكْفِيرِ مَنْ يَجْحَدُ مَا ثَبَتَ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ الْعَدْلِ، وَالتَّكْفِيرُ مَذْهَبُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهْوَيْهِ.[2]

وقد أُتي القوم من جهة القياس الفاسد، فهو علة مذهبهم الرديء

قال ابن القيم رحمه الله :

" وَإِنَّمَا أُتِيَ مُنْكِرُ إِفَادَةِ خَبَرِ الْوَاحِدِ لِلْعِلْمِ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ، فَإِنَّهُ قَاسَ الْمُخْبِرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرْعٍ عَامٍّ لِلْأُمَّةِ أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَى خَبَرِ الشَّاهِدِ عَلَى قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا فَإِنَّ الْمُخْبِرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ كَذَبَ عَمْدًا أَوْ خَطَأً وَلَمْ يَظْهَرْ مَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِ لَزِمَ عَلَى ذَلِكَ إِضْلَالُ الْخَلْقِ، إِذِ الْكَلَامُ فِي الْخَبَرِ الَّذِي تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ وَعَمِلَتْ بِمُوجَبِهِ وَأَثْبَتَتْ بِهِ صِفَاتِ الرَّبِّ وَأَفْعَالِهِ، فَإِنَّ مَا يَجِبُ قَبُولُهُ شَرْعًا مِنَ الْأَخْبَارِ لَا يَكُونُ بَاطِلًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا قَبِلَتْهُ الْأُمَّةُ كُلُّهُمْ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يُقَالَ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ شَرْعًا لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا، فَيَكُونُ مَدْلُولُهُ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

هَذَا فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ شَرْعِ الرَّبِّ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ بِخِلَافِ الشَّهَادَةِ الْمُعَيَّنَةِ عَلَى مَشْهُودٍ عَلَيْهِ مُعَيَّنٍ فَهَذِهِ قَدْ لَا يَكُونُ مُقْتَضَاهَا ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

فلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ الَّذِي تَعَبَّدَ اللَّهُ بِهِ الْأُمَّةَ وَتَعَرَّفَ بِهِ إِلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِثْبَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ كَذِبًا وَبَاطِلًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّهُ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَحُجَجُ اللَّهِ لَا تَكُونُ كَذِبًا وَبَاطِلًا، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا حَقًّا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَكَافَأَ أَدِلَّةُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَدِينِهِ مُشْتَبِهًا لِلْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَعَبَّدَ بِهِ خَلْقَهُ، بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ هَذَا مِنْ هَذَا فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ وَوَحْيِ الْمَلَكِ عَنِ اللَّهِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يَشْتَبِهَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، أَلَا وَقَدْ جَعَلَ

[1] – مختصر الصواعق (ص 579–586)

[2] – مختصر الصواعق (ص 557)

اللَّهُ عَلَى الْحَقِّ نُورًا كَنُورِ الشَّمْسِ يَظْهَرُ لِلْبَصَائِرِ الْمُسْتَنِيرَةِ، وَأَلْبَسَ الْبَاطِلَ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ، وَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَشْتَبِهَ الْبَاطِلُ بِالنَّهَارِ عَلَى أَعْمَى الْبَصَرِ، كَمَا يَشْتَبِهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ عَلَى أَعْمَى الْبَصِيرَةِ "[1].

ومن الاتجاهات البدعية التي ظهرت في هذه المسألة الهامة مذهب من قال بأن خبر الواحد لا يفيد العلم مطلقا سواء ألحقت به قرينة أم لا ، وهذا مذهب كثير من المتكلمين الذين جنوا علي هذا الدين وعلى المسلمين ، وهو مذهب الأشاعرة ، وقد لا يقصد كثير منهم الانحراف عن الصراط المستقيم ، لأن كثيرا منهم معروف بالفضل والعلم ، ولكن اجتهاداتهم كانت خاطئة وكلامهم كان غير صحيح .

وهناك من هذه الاتجاهات البدعية التي ظهرت قول من قال بأن خبر الواحد يفيد العمل ولكن لا يفيد العلم.

كيف؟.

قالوا : إذا كانت مسألة فقهية ، كالمسح علي الخفين مثلا ، نقول بالحديث ، لكن إن كانت مسألة عقدية مثل عذاب القبر والجنة والنار فلا .

وهذا قول فاسد شرعا وعقلا ، أما شرعا فلما تقدم من أن قول جماهير المسلمين على خلافه ، ودلائل السنة الواضحة الثابتة تناقضه بل وتقضي عليه .

أما عقلا : فلأن الخبر الواحد قد يرد في بابي العلم والعمل جميعا ، فإن رده في باب العلم لزمه قبوله في باب العمل ، وإن قبله في باب العمل لزمه رده في باب العلم ، وهكذا لا يستطيع أن يطبق مذهبه ؛ لأنه يلزمه على مذهبه قبول الخبر ورده في آن واحد ، وهذا باطل عقلا .

فمثلا : روى النسائي (1305) عن عطاء بن السائب عن أبيه قال: صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها فقال له بعض القوم لقد خففت أو أوجزت الصلاة فقال: أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام تبعه رجل فسأله عن

---

[1] – مختصر الصواعق (ص 557–558)

الدعاء ثم جاء فأخبر به القوم : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضاء بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين)[1].

فإن هو جاء يعمل بهذا الحديث الصحيح لأنه ورد في باب الدعاء ، اعتُرض عليه من أصل مذهبه ؛ لأنه يثبت النظر إلى وجه الله تعالى ، والشوق إلى لقائه ، وهذه من مسائل الاعتقاد ولا يصلح أن يحتج لها بهذا الحديث لأنه من أحاديث الآحاد .

وإن هو رده لذلك اعتُرض عليه من أصل مذهبه ؛ لأنه وارد في الدعاء ، والدعاء من المسائل العملية ، فيلزمه على مذهبه العمل به.

فلزمه على أصل مذهبه في هذا الحديث وأمثاله وجوب العمل ووجوب ترك العمل به في آن ، وهذا باطلا شرعا وعقلا .

الرد علي من فرق بين أحاديث الآحاد في العقائد والأحكام الفقهية ، وفرق بين العلم والعمل .

التفريق بين العقائد والأحكام في خبر الآحاد بدعة لم يعرف السلف بها ، بل إن تصانيفهم تشهد بعكس ذلك . قال ابن القيم :

" مَا الْفَرْقُ بَيْنَ بَابِ الطَّلَبِ وَبَابِ الْخَبَرِ بِحَيْثُ يَحْتَجُّ بِهَا فِي أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ؟ هَذَا التَّفْرِيقُ بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهَا لَمْ تَزَلْ تَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي الْخَبَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّاتِ كَمَا يُحْتَجُّ بِهَا فِي الطَّلَبِيَّاتِ الْعَمَلِيَّاتِ، وَلَا سِيَّمَا وَالْأَحْكَامُ الْعَمَلِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الْخَبَرَ عَنِ اللَّهِ بِأَنَّهُ شَرَعَ كَذَا وَأَوْجَبَهُ وَرَضِيَهُ دِينًا، بِشَرْعِهِ وَدِينِهِ رَاجِعٌ إِلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ تَزَلِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ يَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ، لَمْ يُنْقَلْ عَنْ

[1] – صححه الألباني في صحيح النسائي وغيره

أَحَدٍ مِنْهُمْ أَلْبَتَّةَ أَنَّهُ جَوَّزَ الِاحْتِجَاجَ بِهَا فِي مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ دُونَ الْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

فَأَيْنَ السَّلَفُ وَالْمُفَرِّقِينَ بَيْنَ الْبَابَيْنِ، نَعَمْ سَلَفُهُمْ بَعْضُ مُتَأَخِّرِي الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ لَا عِنَايَةَ لَهُمْ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ، بَلْ يَصُدُّونَ الْقُلُوبَ عَنِ الِاهْتِدَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، وَيُحِيلُونَ عَلَى آرَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَقَوَاعِدِ الْمُتَكَلِّفِينَ، فَهُمُ الَّذِينَ يُعْرَفُ عَنْهُمْ تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّهُمْ قَسَّمُوا الدِّينَ إِلَى مَسَائِلَ عِلْمِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ وَسَمَّوْهَا أُصُولًا وَفُرُوعًا "[1].

ثانيا :– ما تواترت به الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم في إرسال الرسل والدعاة آحادا إلي أطراف البلاد وإلي ملوك الفرس والروم واليمن ، يخبرون بمسائل ماذا ؟ بماذا أرسل معاذا لليمن ؟ أرسله بمسائل عملية وأحكام فقهية فقط ؟ أم أرسل معه أخبارا علمية ، ألم يقل له (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)؟[2] وفي رواية: (فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ)[3]

وكذلك فإن هناك مسألة هامة ، وهي اعتقاد بعض الناس أن العقيدة لا يبني عليها عمل وأنها شيء مجرد في النفس حيث لا علاقة لها بالواقع وأن هذه المعلومة تخزن في ذاكرة الكمبيوتر ، ليس لها أي آثار ، وهذا عند أهل السنة والجماعة باطل . لأن المعلومات العقدية فيها عمل قلبي ، حتى تنفيذ أعمال الجوارح مرتبط بأعمال القلب (العقائد) ألم يقل الله في تنفيذ حد الزنا وهي مسألة فقهية عملية طلبية وليست مسألة عقدية خبرية فقط ، قال (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ).(النور–2).

فقوله (تؤمنون) هذه قضية عقدية – وهو ربط بين تنفيذ الشيء العملى وبين الشيء العقدي الموجود في القلب ، ولذلك إن قال قائل: إذا أنا عرفت أن الله له وجه وله اليدان هذه المعلومة

---

[1] – مختصر الصواعق (ص: 590)

[2] – متفق عليه

[3] – رواه مسلم (29)

فقط ليس لها أي أثر ، نقول له كيف ليس لها أي أثر ؟ أنت إن علمت أن الله له يدان وأنهما مبسوطتان ينفق كيف يشاء تطلب منه ، وإن علمت أن له وجها فأنت ترجو أن تنظر إليه لأنه أعلى نعيم أهل الجنة .

لو أن أحدا يؤمن بأن لله وجها وآخر ينكر أن لله وجها ، إذا وقف من يؤمن بأن لله وجها في الصلاة وكبر تكبيرة الإحرام مستحضرا حديث النبي صلى الله عليه وسلم (فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِعَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لمْ يلْتَفِتْ)[1] فكيف يكون شعوره وخشوعه في الصلاة ؟ أكيد يزداد ، فهو مختلف عن شعور الأشعرى الذي ينكر صفة الوجه لله تعالى.

إذاً فلا تفريق في قضية خبر الآحاد بين العقائد والأعمال .

الثالث :- من مصادر تلقى العقيدة الصحيحة الإجماع :

الإجماع مصدر أجمع يجمع إجماعا فهو مُجمِع ، ويطلق ويراد به أحد معنين.

إما العزم المؤكد ، قال تعالى : (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ).(يونس-71) أي اعزموا أمركم . وقال تعالى : (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ).(يوسف-15) أي عزموا على ذلك ، وقَالَ صلى الله عليه وسلم(مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قبلَ الفجْرِ فَلاَ صِيَامَ لَهُ)[2] يعنى من لم يعزم عليه بعقد النية قبل الفجر .

المعنى الثانى :- الإجماع الذي هو الاتفاق فيقال: أجمع المسلمون على كذا أي اتفقوا عليه ومنه قوله صلي الله عليه وسلم(إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة)[3]

وقال : (يد الله مع الجماعة)[4]

فلا يمكن أن يجعلهم يتفقون على الضلالة وهذا المعنى هو المقصود ببحثنا .

ولذلك نعرف الإجماع اصطلاحا : بأنه اتفاق مجتهدي أمة محمد صلي الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من العصور على أمر من الأمور .

---

[1] - رواه الترمذي (2863) وصححه الألباني

[2] - رواه أبو داود (2454) وصححه الألباني

[3] - رواه الترمذي (2167) وصححه الألباني

[4] - رواه الترمذي (2166) وصححه الألباني

فإذا قلنا اتفاق ، خرجت المسائل التي فيها خلاف بين المجتهدين ، ولما قلنا : مجتهدى– فالمجتهدون أصحاب الاجتهاد وأصحاب ملكة الفقه التي يستنبط بها العالم الأحكام الفقهية من المسائل الشرعية ، والمجتهد يفرغ وسعه وطاقته في استنباط الحكم ، فإذاً العوام غير داخلين في الإجماع ، ثم أمة النبي صلي الله عليه وسلم المقصود بها هنا المسلمون فقط ومن أهل السنة ، إذاً لو قال قائل هناك شخص يتوفر فيه شروط الاجتهاد وله علم باللغة العربية وأصول الفقه وحافظ للقرآن فهو مجتهد ولكنه نصراني فهل يدخل في الإجماع ؟

الجواب : لا ؛ لأن المقصود مجتهدو الأمة وهم العلماء المسلمون من أهل السنة .

"بعد وفاته" لأننا لا نتصور أن هناك إجماعا في عهد النبي صلي الله عليه وسلم لأن في عهده الكتاب والسنة فقط .

وعندما نقول "في عصر من العصور" لأن بعض أهل العلم قالوا لا إجماع إلا إجماع الصحابة وهذا من التضييق والقصور .

فالراجح أن كل عصر يمكن أن يكون فيه إجماع على أمر من الأمور ، ما المقصود به هنا؟ الأمر الشرعي ، فلذلك لو أجمعوا على دوران الأرض نقول هذه قضية ليست من مسائل الدين إلا إذا صار للمسألة الفلكية علاقة بآية أو حديث .

والإجماع حجة شرعية .

قَالَ المزنى : كُنَّا يَوْمًا عِنْد الشافعى بَين الظّهْر وَالْعصر عِنْد الصحن فى الصّفة والشافعى قد اسْتندَ إِلَى الأسطوانة إِذْ جَاءَ شيخ عَلَيْهِ جُبَّة صوف وعمامة صوف وَإِزَار صوف وفى يَده عكازه ، قَالَ فَقَامَ الشافعى وَسوى عَلَيْهِ ثِيَابه واستوى جَالِسا قَالَ وَسلم الشَّيْخ وَجلسَ وَأخذ الشافعى ينظر إِلَى الشَّيْخ هَيْبَة لَهُ إِذْ قَالَ لَهُ الشَّيْخ أسأَل.

قَالَ الشافعى سل قَالَ: أيش الْحجَّة فى دين الله؟

فَقَالَ الشافعى: كتاب الله .

قالَ وماذا ؟ قَالَ وَسنة رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم

قَالَ وماذا؟

قَالَ اتِّفَاق الْأمة

قَالَ من أَيْن قلت اتِّفَاق الْأمة؟

قَالَ من كتاب الله

قَالَ من أَيْن فى كتاب الله؟

قَالَ فَتدبر الشافعى سَاعَة

فَقَالَ الشَّيْخ : قد أجلتك ثَلَاثَة أَيَّام ولياليها فَإِن جِئْت بِحجَّة من كتاب الله فى الِاتِّفَاق وَإِلَّا تب إِلَى الله عز وَجل

قَالَ: فَتغير لون الشافعى ثمَّ إِنَّه ذهب فَلم يخرج ثَلَاثَة أَيَّام ولياليهن.

قَالَ فَخرج إِلَيْنَا فى الْيَوْم الثَّالِث فى ذَلِك الْوَقْت يعْنى بَين الظّهْر وَالْعصر وَقد انتفخ وَجهه ويداه وَرجلَاهُ وَهُوَ مسقام فَجَلَسَ قَالَ: فَلم يكن بأسرع من أَن جَاءَ الشَّيْخ فَسلم وَجلسَ فَقَالَ: حاجتي

فَقَالَ الشافعى: نعم ، قَالَ الله عز وَجل {وَمن يُشَاقق الرَّسُول من بعد مَا تبين لَهُ الْهدى وَيتبع غير سَبِيل الْمُؤمنِينَ نوله مَا تولى ونصله جَهَنَّم وَسَاءَتْ مصيرا}

لَا نصليه على خلاف الْمُؤمنِينَ إِلَّا وَهُوَ فرض.

فَقَالَ صدقت وَقَامَ وَذهب[1]

فإذا اجتمعت الأمة على أمر فلابد أن يكون حقا .

والذين ينكرون حجية الإجماع طائفة من الخوارج وكذلك الشيعة وغيرهم ولا عبرة بقولهم ، وللظاهرية كلام في الإجماع مخالف لجمهور أهل العلم بل هو مرجوح.

هل يجب أن يكون الإجماع مستندا إلى دليل؟. فيه قولان :

القول الأول: وهو قول الجمهور يشترط في الإجماع أن يكون مستندا إلى دليل .

القول الثاني : يجوز أن يقع الإجماع بغير دليل ، كأن يوفق الله الأمة للصواب بغير دليل.

والراجح القول الأول .

---

[1] – طبقات الشافعية الكبرى (2/ 243)

وما هو هذا المستند ؟ قد يكون الكتاب أو السنة بما في ذلك خبر الواحد حتى نكون على بينة وقد يكون قياسا.

ماذا يفيد الإجماع ؟

البعض قال: يفيد القطع والبعض قال: يفيد الظن والراجح التفصيل :

فإذا اتفق عليه المعتبرون فهو حجة قطعية ، وإذا قلت إجماع سكوتي أو كان قول أكثر العلماء فهذا لا يفيد القطع ، قال شيخ الإسلام رحمة الله :

" الْإِجْمَاعُ " هَلْ هُوَ قَطْعِيُّ الدَّلَالَةِ أَوْ ظَنِّيُّ الدَّلَالَةِ؟ . فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُطْلِقُ الْإِثْبَاتَ بِهَذَا أَوْ هَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلِقُ النَّفْيَ لِهَذَا وَلِهَذَا. وَالصَّوَابُ التَّفْصِيلُ بَيْنَ مَا يُقْطَعُ بِهِ مِنْ الْإِجْمَاعِ وَيُعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مُنَازِعٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَصْلًا؛ فَهَذَا يَجِبُ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ حَقٌّ؛ وَهَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّا بَيَّنَ فِيهِ الرَّسُولُ الْهُدَى؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ " [1].

فإذا أنكر شخص ممن يعيش بين المسلمين ما هو معلوم من الدين بالضرورة كوحدانية الله أو أحقيته بالعبادة ونبوة محمد صلي الله عليه وسلم والبعث والحساب والجنة والنار والصلاة والصيام والحج ونحو ذلك مما يعلمه العام والخاص فهذا لا شك في كفره .

ثانيا :- إذا ثبت حكم شرعي بالإجماع القطعي كتحريم الجمع بين البنت وعمتها أو خالتها وتحريم الكذب علي النبي صلى الله عليه وسلم ، فمنكر هذا الحكم كافر أيضا لأنه أنكر حكما شرعيا ثبت بالدليل القطعي ، إلا من يعذر بجهله كأن يكون حديث عهد بإسلام أو يعيش في بادية لا يعرف كثيرا من أحكام الدين ، فمثل هذا قد يعذر بجهله في بعض المسائل المعلومة بالدليل القطعي .

ثالثا :- من أنكر ما ثبت بالإجماع الظني كالإجماع السكوتي ، فهذا لا يكفر.

ماذا بالنسبة للإجماع في مسائل الاعتقاد ؟

بعض المتكلمين قالوا لا يمكن أن يحدث إجماع في مسائل الاعتقاد . لماذا؟

---

[1] – مجموع الفتاوى (7/ 39)

قالوا لأن مسائل الاعتقاد القطع فيها لا يحدث إلا من جهة العقل ولا نحتاج بعد العقل إلي دليل آخر لا إلي الإجماع ولا غيره.

وبعضهم قال: نفرق بين المسائل التي تتوقف صحة الإجماع عليها , وبين المسائل التي لا تتوقف صحة الإجماع عليها .

وكل هذا من البدع المبنية علي أنهم يقسمون العلوم إلي شرعية وعقلية .

تعريف العلوم الشرعية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

" الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ قَدْ يُرَادُ بِهِ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الشَّارِعُ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا شَرَّعَ أَنْ يُعْلَمَ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا عَلَّمَهُ الشَّارِعُ.

فَالْأَوَّلُ: هُوَ الْعِلْمُ الْمَشْرُوعُ – كَمَا يُقَالُ: الْعَمَلُ الْمَشْرُوعُ – وَهُوَ الْوَاجِبُ أَوْ الْمُسْتَحَبُّ وَرُبَّمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُبَاحُ بِالشَّرْعِ.

وَالثَّانِي: هُوَ الْعِلْمُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ الشَّارِعِ وَهُوَ مَا عَلَّمَهُ الرَّسُولُ لِأُمَّتِهِ بِمَا بُعِثَ بِهِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَوْ الْإِجْمَاعُ أَوْ تَوَابِعُ ذَلِكَ.

فَالْأَوَّلُ: إضَافَةٌ لَهُ بِحَسَبِ حُكْمِهِ فِي الشَّرْعِ .

وَالثَّانِي: إضَافَةٌ إلَى طَرِيقِهِ وَدَلِيلِهِ .

ثُمَّ كُلٌّ مِنْ الْقِسْمَيْنِ عَلَى قِسْمَيْنِ: فَإِنَّهُ إذَا عَرَفَ أَنَّ الشَّرْعِيَّ: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا أَمَرَ بِهِ. فَمَا أَخْبَرَ بِهِ: إمَّا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ دَلِيلًا عَقْلِيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ. وَمَا أَمَرَ بِهِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصُودًا لِلشَّارِعِ؛ أَوْ لَازِمًا لِمَقْصُودِ الشَّارِعِ وَهُوَ مَا لَا يَتِمُّ مَقْصُودُهُ الْوَاجِبُ أَوْ الْمُسْتَحَبُّ إلَّا بِهِ . فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ "[1].

والخلاصة في قضية الإجماع أنه إذا ثبت فهو حجة شرعية يجب العمل بها في باب الاعتقاد وغيره, والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين .

---

[1] مجموع الفتاوى (19/ 229)

وأهل السنة والجماعة يَزِنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة مما له تعلق بالدين.

العقل والنقل .

أما بالنسبة للعقل فهو مصدر عقل يعقل عقلا فهو معقول وعاقل ، وأصل معني العقل في اللغة المنع ، يقال عقل بطنه الدواء يعني أمسكه وعقل البعير إذا شده بحبل لمنعه من الهرب .

ويطلق العقل في اللغة علي معان كثيرة منها :

الحِجْر، الجَمْع، الْحَبْس، التَثبت في الأمور، التميُّز، الفَهْم، المَسْك، الملْجَأ.[1]

أما معني العقل اصطلاحا : فإن العقل يطلق علي أربعة أمور :-

أولا:- وهو التعريف المختار ، يطلق العقل علي الغريزة التي في الإنسان فبها يعلم ويعقل ويفهم وهي كقوة البصر في العين وقوة السمع في الأذن وهذا العقل هو مناط التكليف وبه يمتاز الإنسان عن الحيوان .

ثانيا:- يطلق العقل علي العلم بالعلوم الضرورية ، كالعلم بالواجبات والممكنات والممتنعات .

ثالثا : يطلق علي العلم بالعلوم النظرية التي تحدث بالنظر والاستدلال .

فإن قال قائل ما هو الفرق بين العلوم الضرورية والنظرية ؟

الجواب : العلوم الضرورية هي التي لا تحتاج إلي أدني تفكير تعرف بداهة مثل أن السماء فوق الأرض وأن الواحد نصف الاثنين فهذه المعرفة تهجم علي العقل هجوما ولا تحتاج إلي أدني نظر أو تأمل .

العلم بالواجبات عقلا والممكنات والممتنعات عقلا ، فمثلا يمتنع عقلا أن يوجد شخص لا حي ولا ميت ، يمتنع أن يكون هناك شيء لا موجود ولا معدوم .

وأما العلوم النظرية فهي التي تحدث بالنظر والاستدلال والناس يتفاوتون فيها فهذه تحتاج إلي تذكر وتأمل ، وهذه الأشياء التي تكون في الدنيا مقطوعا بها لا تحتاج إلي نظر.

---

[1] - انظر: لسان العرب (458/11)

رابعا :- العقل هو الأعمال التي تكون بموجب العلم الصحيح ، ولذلك قال الأصمعي: العقل هو الإمساك عن القبيح وحبس النفس علي الحسن ، فإذا قلت هذا عنده عقل يحبسه عما يشينه ويلزمه ما يليق فهذا إنسان عاقل لا يفعل الأشياء المشينة .

فإذاً كل هذه المعاني المتقدمة تكون للعقل ، وبعض الفلاسفة قصروه علي العلوم الضرورية فقط ، كلامهم كله في الواجبات والممتنعات فقط ، فكل معاني العقل المتقدمة لا يوصف بها بأنه قائم بنفسه ، وكلام الفلاسفة معناه أنه ممكن أن يكون العقل قائما بنفسه .

العقل صفة وهو القوة المدركة عند الإنسان، فهذا ليس قائما بنفسه وإنما يقوم بالعاقل فلا نتصور عقل من غير عاقل .

والله عز وجل قد فاوت بين العقول ، ومن زعم أن الناس سواء في العقل وأنه موزع عليهم توزيعا متساويا فهو مخطئ ، ومذهب الأشاعرة والفلاسفة والمعتزلة والمتكلمين أن العقل عند الناس واحد ولا يقبل التفاوت ؛ حتى قال ديكارت :

" العقل هو أحسن الأشياء بين الناس توزيعا بالتساوي " إلي أن قال:

" واختلاف آرائنا ناشئ من غيرة بعضنا من البعض الآخر "

وهذه مكابرة وعناد للواقع ، كيف لا يكون أناس أعقل من أناس ؟

فالحق أن يقال أن العقول تتفاوت من شخص إلي آخر بل قد يحدث هذا التفاوت في الشخص الواحد قد تأتي عليه فترة يكون أعقل مما مضي ، وقد قال الشاطبي رحمه الله :

" فَالْإِنْسَانُ وَإِنْ زَعَمَ فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ أَدْرَكَهُ وَقَتَلَهُ عِلْمًا - لَا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ إِلَّا وَقَدْ عَقَلَ فِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ عَقَلَ، وَأَدْرَكَ مِنْ عِلْمِهِ مَا لَمْ يَكُنْ أَدْرَكَ قَبْلَ ذَلِكَ، كُلُّ أَحَدٍ يُشَاهِدُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ عِيَانًا، وَلَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ عِنْدَهُ بِمَعْلُومٍ دُونَ مَعْلُومٍ، وَلَا بِذَاتٍ دُونَ ذَاتٍ وَلَا بِصِفَةٍ دُونَ صِفَةٍ، وَلَا فِعْلٍ دُونَ حُكْمٍ "[1]

وكثير من أصحاب دعوى الحرية والمساواة يقولون إن المرأة لا تولد امرأة، بل الناس هم الذين يتصرفون معها تصرفا يجعها امرأة ! فهذه مكابرة .

---

[1] - الاعتصام (ص: 835)

ومن الأدلة عند أهل السنة علي تفاوت العقول بين الناس : حديث النبي صلي الله عليه وسلم (ما رأيتُ من ناقِصَات عَقْلٍ ودِيْنٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرجل الحازِمِ من إحْدَاكُنَّ يا مَعْشَرَ النساء)[1]

إذاً هناك تفاوت بين الناس في العقل ، وهذا التفاوت بالزيادة والنقصان المثبت في النفوس ، يُثبت أن التفاوت غريزي أيضا لأن النبي صلى الله عليه وسلم قرر أن جنس النساء فيه نقصان للعقل بالنسبة للرجال وهذا لا يكون إلا في الغريزة التي خلقهن الله بها .

بعض الناس يقولون إن الناس إذا تفاوتوا يتفاوتون من أجل أن هذا تعلم أكثر من هذا وتدرب أكثر منه فقط ، فهذا غير صحيح ، حتى في أصل الخلقة هناك أناس عقلهم أقل من غيرهم ، ولو عرضوا جميعا لنفس المستوي من التدريب والتعليم فلن يصبحوا سواء ، فبعضهم يفهم أكثر وعنده حكمة أكثر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " الصَّوَابُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ أَهْلِ السُّنَّةِ – وَهُوَ ظَاهِرُ مَذْهَبِ أَحْمَد وَهُوَ أَصَحُّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ وَقَوْلُ أَكْثَرِ أَصْحَابِهِ – أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعَقْلَ وَنَحْوَهُمَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ "[2].

أين مكان العقل في الإنسان ؟

اختلف أهل العلم في مكان العقل من جسم الإنسان:

فذهب البعض إلي أن محله الدماغ ، أي الرأس ودليلهم أن الإنسان إذا ضرب علي رأسه ضربة قوية زال عقله ، وأن العرب تقول للعاقل : وافر الدماغ ، ولضعيف العقل ، خفيف الدماغ.

وذهب المالكية والشافعية وبعض الحنابلة أن العقل محله القلب ؛ لقوله تعالي (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ). (الحج–46) .

فالقلب هو الذي يعقل ، فمنفعة القلب إذاً أن يعقل كما أن منفعة الأذن أن تسمع ، وقد قال عمر في ابن عباس : " إنَّ لَهُ لسانًا سئولًا، وقلبًا عقولًا "[3]

[1] – متفق عليه

[2] – مجموع الفتاوى (722/10)

[3] – سير أعلام النبلاء (4/ 387)

ولعل التحقيق في هذه المسألة الذي يجمع بين الأمرين : أن العقل له تعلق بالدماغ والقلب معا، حيث يكون مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ومبدأ الإرادة والقصد في القلب . فإذا أراد الإنسان شيئا لا يريده إلا بعد تصور المراد وهذا يكون في الدماغ ، ولهذا يمكن أن يقال: إن القلب موطن الهداية والدماغ موطن الفكر ، وقد يوجد في الناس من فقد عقل الهداية ولكن عنده عقل الفكر ، كما يمكن أن يوجد العكس ، فهناك مفكرون عظماء عند أهل الدنيا لكنهم من أهل النار ضلال كفار . فالعقل بين الإسلام والمذاهب الضالة قضية كبيرة ، ضلت للأمم الكافرة فيه سفن وتاهت في الظلمات يبتغون الوصول للحق واليقين ، فمنهم من جنح ناحية الفكر فلا يصدق إلا الحس ، ومنهم من جنح إلي العقل فحكّمه في أمره كله حتى قالوا إنه هو الوجود الحقيقي ، حتى قالوا إن العقل هو الخالق الفعال الذي خلق الكون ودبّر أمره.

وكان العالم الأوروبي يتخبط باحثا عن وسيلة للمعرفة الحقة ونشأت المذاهب الفلسفية المتعددة والمتصارعة من غير أن يقعوا علي طريق سواء ، أما الإسلام فقد اعتمد في الوصول للمعرفة طريقين اثنين :- طريق الوحي ، فكل ما جاء عن الله تعالي فهو الحق اليقين .

والطريقة الثانية للمعرفة في الإسلام التجربة الجامعة بين الحس والعقل ، الأشياء المحسوسة والتفكير والنظر بالعقل وهنا تظهر وسطية هذا الدين والله تعالي قال (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (يوسف-109).

فبالسير في الأرض تكون الصور الحسية لآثار السابقين ، كيف تعرف أن المدن ذهبت والديار خربت ؟ بالحس مثلا ، بالنظر .

بعد ذلك يأتي دور العقل لينظر في هذا العطاء الحسي الذي كتبته بحواسك فيربط بين أجزائه ويستنتج منه ويقيس الغائب علي الشاهد والنظير علي النظير والفرع علي الأصل إلي غير ذلك من مهمات العقل وتخرج بالنتيجة وهي أن الدنيا فانية والآخرة هي الباقية .

وهكذا يستعمل النظر حينما يمر علي ديار الذين ظلموا فيخرج بالعبرة والعظة ، قال تعالي (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (الفرقان–44).
يعني لو كانوا يعقلون ويستفيدون مما أعطاهم الله تعالي لصاروا على الهدى.
فالمنهج الإسلامي في تحصيل المعرفة أساسه الوحي ثم معرفة الأشياء العينية والأشياء المرئية بالحس واللمس والذوق ، والعقل يفكر فيها ويستنبط ويستخرج ، هذه يستعمل فيها الإنسان حسه وعقله .

ولقد أنتج المؤمنون إنتاجا عظيما باستعمال ما أتي الإسلام به ، حارب الجاهلية والخرافات والأشياء المنافية للحس والعقل ، وجه المسلم أن يعمل في الدنيا بحسه وعقله يخترع ويطور ، فطوّر المؤمنون أشياء كثيرة تقدموا في جانب الدين أقاموا خلافة ، وفي المجال الدنيوي بالحس والعقل تقدموا وتطوروا واخترعوا، ولهم صناعات وكتابات ودخلوا في علوم الرياضيات والطب وقد استفادت أوروبا هذا المنهج التجريبي لما دخلت الحضارة الإسلامية بلادهم، ولكنهم قوم بهت كعادتهم ينسبون الفضل إلي غير أهله فيقولون المنهج التجريبي ابتكره فرانسيس بيكون ونحو ذلك مع أن المنهج التجريبي أسسه المسلمون وهذا ما يقوله منصفوهم .
لكن بعض المسلمين نتيجة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتكاكهم بالآخرين أمثال اليونان وترجمة الكتب التي كانت موجودة في الخزائن المغلقة تأثر بعض المسلمين بأنماط الفكر الأجنبي وحاولوا إيجاد صيغة جديدة لها تتوافق مع الإسلام بزعمهم فلما فتحوا كتب اليونان وجدوا فيها الفلسفة والمنطق فأخذوا يجمعون بينها وبين الإسلام فأتوا بأشياء مشوهة لأن هذا الباطل لا يتفق مع الحق، وأرادوا الاعتماد علي الحجج العقلية فقط للرد علي اليهود والنصارى وغيرهم حتى زعم بعض المسلمين أن الحجج التي في القرآن غير كافية ولابد أن يستدل بالأدلة العقلية وعلم الكلام بالأشياء القاطعة والبراهين الملزمة ، وقالوا إن الدليل النصي ظني أي الكتاب والسنة فالآية والحديث دلالتها ظنية أما العقل فدلالته قطعية وهذه بدعة عظيمة في الإسلام كان لها آثار سيئة للغاية علي المسلمين .

ولذلك إذا تعارض عندهم دليل سمعي مع آخر عقلي فإنهم يقدمون العقل ، وأحدثوا في دين الله ما ليس منه وهؤلاء هم المتكلمون ومنهم المعتزلة والأشاعرة قدموا العقل حتى جعلوا القرآن والإيمان تابعين للعقل وهو عندهم الأصل الكلي ويُستغنى به عن القرآن .

وفي المقابل ظهر المتصوفة فذموا العقل كله وعابوه وادعوا أن كل شيء منه باطل ولذلك تجدهم يذمون العقل ويمدحون الجنون والوله في كلامهم ، واعتبروا أن السكر والوله غاية رقي الإنسان إذا وصل إليه، وبذلك يكون في كمال الإيمان وأوج اليقين والمقام الرفيع .

وكان أهل السنة والجماعة بمنهجهم وسطا بين الفريقين وجمعوا بين الوحي وحسنات العقل ، وجعلوهما معا لا تعارض بينهما . وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

" الْعَقْلُ شَرْطٌ فِي مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ وَكَمَالِ وَصَلَاحِ الْأَعْمَالِ وَبِهِ يَكْمُلُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا بِذَلِكَ ؛ بَلْ هُوَ غَرِيزَةٌ فِي النَّفْسِ وَقُوَّةٌ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ قُوَّةِ الْبَصَرِ الَّتِي فِي الْعَيْنِ ؛ فَإِنْ اتَّصَلَ بِهِ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ كَانَ كَنُورِ الْعَيْنِ إذَا اتَّصَلَ بِهِ نُورُ الشَّمْسِ وَالنَّارِ . وَإِنْ انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ لَمْ يُبْصِرْ الْأُمُورَ الَّتِي يَعْجِزُ وَحْدَهُ عَنْ دَرْكِهَا وَإِنْ عُزِلَ بِالْكُلِّيَّةِ : كَانَتْ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ مَعَ عَدَمِهِ : أُمُورًا حَيَوَانِيَّةً قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَحَبَّةٌ وَوَجْدٌ وَذَوْقٌ كَمَا قَدْ يَحْصُلُ لِلْبَهِيمَةِ . فَالْأَحْوَالُ الْحَاصِلَةُ مَعَ عَدَمِ الْعَقْلِ نَاقِصَةٌ وَالْأَقْوَالُ الْمُخَالِفَةُ لِلْعَقْلِ بَاطِلَةٌ "[1].

وهذه مسألة مهمة جدا ، وهي أن العقل لا يستقل بنفسه ، هذه من القواعد فالعقل غريزة في النفس وقوة مثل قوة البصر في العين فإذا اتصل به نور الوحي والإيمان والقرآن كان كنور العين في ضوء الشمس ، وإذا انفرد العقل بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها ، وما قاله الصوفية من إلغاء العقل فهو بدعة ، وما ذهب إليه هؤلاء أيضا وهم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمون من تقديس العقل ضلال ، والذين ذهبوا إلي تمجيد العقل لم يصلوا إلي شيء متفق عليه .

[1] – مجموع الفتاوى [3 /338]

والإسلام قد جاء بتشريف العقل وتكريمه لكنه لم يجعله شيئا مستقلا ، وهؤلاء الذين يتحدثون عن تقديس دور العقل هم أنفسهم لما استعملوا عقولهم بمفردها لم يأتوا بجواب واحد في أمر واحد ، وإنما أتوا بأجوبة مختلفة في الأمر الواحد ؛ حتى قال ابن قتيبة رحمه الله مبكّتا علي أهل الكلام: " وَقَدْ كَانَ يَجِبُ –مَعَ مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقِيَاسِ وَإِعْدَادِ آلَاتِ النَّظَرِ– أَنْ لَا يَخْتَلِفُوا كَمَا لَا يَخْتَلِفُ الحُسّاب والمُسّاح، وَالْمُهَنْدِسُونَ، لِأَنَّ آلَتَهُمْ لَا تَدُلُّ إِلَّا عَلَى عَدَدٍ وَاحِدٍ، وَإِلَّا عَلَى شَكْلٍ وَاحِدٍ، وَكَمَا لَا يَخْتَلِفُ حُذَّاقُ الْأَطِبَّاءِ فِي الْمَاءِ وَفِي نَبْضِ الْعُرُوقِ؛ لِأَنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ وَقَّفُوهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ فَمَا بَالُهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ اخْتِلَافًا، لَا يَجْتَمِعُ اثْنَانِ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ فِي الدِّينِ "[1].

لما انفرد أهل العقول بعقولهم فالشئ الواحد تكلموا فيه وأتوا فيه بأشياء مختلفة ، ولم يتماثلوا في إنجازاتهم كما يتماثل أصحاب الإنجازات ، وهذا شأن كل من أعرض عن الكتاب والسنة وجعل العقل مستقلا وحده ، قال تعالي (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) .(البقرة–137) . أي في خلاف، وهذا حال أصحاب العقل الذين جعلوا العقل وحده حجة دون الوحي .

قلنا أن الإسلام قد كرم العقل وجعله مناطا للتكليف عند الإنسان ويسخر نعم الله تعالي ويستفيد منها . ومن تكريم الإسلام للعقل ما جاء في الكتاب العزيز أن الله خص أصحاب العقول بالمعرفة التامة في مقاصد العبادة وحكم التشريع ، قال تعالى بعد أن ذكر جملة من أحكام الحج (وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ).(البقرة–197) وقال لما ذكر القصاص (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).(البقرة–179).

وقصر سبحانه وتعالي الانتفاع بالذكر علي أصحاب العقول فقال (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) .(آل عمران–7)، وقال (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) (يوسف–111)، وذكر الله أصحاب العقول وجمع لهم بين التفكر في آلائه ودوام ذكره ومراقبته

[1] – تأويل مختلف الحديث (ص: 62)

وعبادته ؛ كما قال (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).(آل عمران–191)

أما الذين اعتمدوا علي العقل فقط طريقا لمعرفة الحق اليقين مع البعد عن الوحي ، كما هو حال الفلاسفة ؟ فلم يصلوا إلي شئ وإنما وصلوا إلي التيه والضلال والحيرة ، أما أهل العلم والإيمان فينظرون في ملكوت الله وخلقه والسموات والأرض نظرا يستدعي عندهم اتعاظا ويستجلب التذكر ومعرفة الله عز وجل وزيادة الإيمان وهو الذي له الخلق والأمر سبحانه وتعالي ، وقد ذم الله الذين قلدوا آباءهم وألغوا عقولهم فقال (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (البقرة–170).

خامسا :– الإسلام حرم الاعتداء علي العقل، أي شئ يعطله أو يوقفه . فمثلا حرم المسكرات والمخدرات وكل ما خامر العقل وغطاه ، وقال تعلي (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).(المائدة–90) ونهي النبي صلي الله عليه وسلم عن كل مسكر ومُفتِّر [1] .

وجعل الدية كاملة في العقل ، لو أن أحدا ضرب رجلا ففقد عقله فيدفع فيه دية كاملة كأنه قتله.

سادسا:– شدد الإسلام في تعاطي ما ينافي العقل حتي الناحية المنهجية كالتطير والتشاؤم فهذا يخالف العقل السليم ولذلك حرم الله التطير والتشاؤم ، ولأن الودع وضرب الكف والحصا كل ذلك يتنافي مع العقل ولذلك حرمه .

لَقِي بعض الأكاسرة فِي موكبه رجلا أَعور فحبسه فَلَمَّا نزل خلاه وَقَالَ تطيرت مِنْك قَالَ أَنْت أشام مني لِأَنَّك خرجت من مَنْزِلك ولقيتني فَمَا رَأَيْت إِلَّا خيرا وَخرجت من منزلي فلقيتك فحبستني فَلم يعد بعْدهَا يتطير .[2]

---

[1] – رواه أبو داود (3686) وصححه السيوطي وحسنه ابن حجر وضعفه الألباني

[2] – الأذكياء (ص: 138)

ولذلك فكل ما كان من اعتقادات باطلة كاعتقادات العرب في الجن أو الوحوش أنها تتلون وتضلهم عن الطريق كما يعتقدون في الغول كل ذلك اعتقادات باطلة ، الجن موجودون ، وقد يؤذون الناس ، ولكن فرق بين هذا وذاك ، فالاعتقادات الباطلة التي اخترعها هؤلاء العرب ، وكذلك قضية التنجيم ، كله من الباطل ؛ فما علاقة ذهاب كوكب من مكان إلي مكان بما يحدث علي الأرض ؟ لا علاقة .

بما أن هذا يتنافي مع العقل السليم والعقل لا يقبل هذا فقد حرمه الإسلام.

وهنا نأتي إلي قضية ماهي مجالات العمل العقلي؟

فنحن قلنا أن كمال الإنسان أن يكون عاقلا ولكن العقل له حدود لا يتجاوزها وقدر لا يتخطاه والإنسان نفسه مخلوق ضعيف فعقله فيه ضعف أيضا ولذلك فإن هناك أشياء لا يدركها العقل ، فلو قال قائل إلي أي حد نستعمل العقل ؟ فنقول: أنه لا يتعدي عالم المحسوسات يعني لو دخلت في عالم الغيبيات ما صار للعقل أي دور في الاستنباط أو التفكير في عالم الغيبيات ، ولو كان العقل يدرك الغيبيات كان تساوى البشر مع الله في علم الغيب وهذا لايمكن ، وكذلك فإن الإدراك وهو العلم بتفاصيل الأمور والصفات والأحكام ليس إلا لله تعالي ولا يمكن للعقل في ضعفه أن يستخرج هذه الأشياء ، مثلا الروح التي هي سر الحياة إذا مات الإنسان خرجت روحه ولكن لا تنفصل عنه انفصالا كليا تاما ، ويمكن أن تقطع الروح المسافات الشاسعة وتصعد وتنزل وتفعل من الأعاجيب مالا يخطر بالبال ولكن لانعرف ماهيتها ولا حدودها (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) .(الإسراء–85)

فالله تعالي أخبرنا بأشياء عن الروح فقط هذا الذي نعرفه . فأخبرنا سبحانه أنها تصعد وتنزل وتذهب وتجئ غير هذا لا نعرف . فإذاً مجال العقل هو العلوم النظرية لكن ليس مجاله العلوم الغيبية ، يمكن أن يدرك العقل ما في الطبيعة والصناعات والرياضيات (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) .(النحل–16) ، خلق لهم علامات وأمرهم أن يستخدموا عقولهم في التوجه للقبلة لكن الأشياء الاعتقادية لا ، ومن أجل ذلك دخلنا في الموضوع وهو مصادر تلقي العقيدة .

ما هو موقف العقل في الأشياء الاعتقادية ؟

العلوم التي لا تدركها العقول مثل مسائل الاعتقاد لا يمكن للعقل أن يعلمها لولا مجئ الوحي ، لو أن واحدا مثلا قال وجود الله لا يمكن للعقل أن يدركه ؟ نقول نعم هذه أخبار معروفة للعقل لكن التفاصيل والجزئيات لا يمكن للعقل أن يعرفها ، أما مسألة وجود الله فممكن تعرف بالعقل أو بالفطرة التي فطر الله الناس عليها لكن تفاصيل الوحي لا . فهل ممكن أن نعرف بالعقل تفاصيل حوض النبي صلى الله عليه وسلم ، مربع أم دائري أم مستطيل ؟ أتعرف بالعقل لون الماء الذي فيه أنه أبيض من اللبن وأحلي من العسل ؟ لا يمكن أن نعرف لأن هذه تفاصيل الغيب ، لا يمكن معرفتها بالعقل ، لابد أن نرجع إلي الوحي فكثير من مسائل الاعتقاد لا تدرك العقول حقيقتها وكيفيتها . ولو عرف العقل بعض التفاصيل الغيبية من الوحي فهو لا زال غير قادر علي تصور كيفيتها ، يعني الآن أخبرنا الله تعالي أن له وجه وله يدان وله أصابع كما جاء في السنة وله سمع وبصر وله قدم وأنه يُري في الآخرة ولكن بعد أن أخبرنا بذلك ، فهل تصور العقل كل شئ ؟ لا ، مازالت القضية بالنسبة لنا مجرد معلومات نؤمن بها من جهة الوحي لكن لا نستطيع أن نتخيل الكيفية بعقولنا ، فأي شكل يخطر ببالك عن الله أو عن وجهه فليس هو الحقيقة فلا يمكن للعقل أن يعرف الكيفية ، لو قال قائل هل العقل يمكن أن يتوصل إلي أن هناك أشياء غيبية لا يعرفها ؟ نعم ممكن ، ولذلك جاءت الرسل بمحيرات العقول لا بالمستحيلات جاءت بمحاراة العقول لا بمحالات العقل . قال شيخ الإسلام رحمه الله :

"وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ – وَإِنْ كَانَ مَعْلُومًا بِالْفِطْرَةِ الضَّرُورِيَّةِ الْبَدِيهِيَّةِ وَبِالشَّرْعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ – فَهُوَ أَيْضًا مَعْلُومٌ بِالْأَمْثَالِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ. لَكِنْ الْمُتَكَلِّمُونَ إنَّمَا انْتَصَبُوا لِإِقَامَةِ الْمَقَايِيسِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ "[1]

والقرآن جاء بالمقاييس العقلية علي أكثر من وجه ، مع أصول الدين من الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وليس في الكتاب والسنة وإجماع الأمة شئ يخالف العقل الصريح لأن ما خالف

---

[1] – مجموع الفتاوى (2/ 37)

العقل الصريح باطل ، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل ، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون فيها معنى باطلا فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة .

فنحن نعرف أن الله يُري يوم القيامة ونؤمن بذلك ونؤمن بأن له وجه وليس كوجه المخلوقين ولكننا لا نعرف الكيفية ولا يمكن أن نهتدي إليها بعقولنا (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا).(طه–110)

إذاً ، ما هو موقف العقل من النقل ؟

أولا :– لا يجوز وضع العقل في مقابل الشرع . بعض الناس يقولون عندنا فرع وأصل وهذا تقسيم سئ جدا ولا يجوز، ولذلك فإن العقل من الشرع ، والعقل الصحيح دليل من أدلة الشرع ، لو أنك سألت كافرا ولكن عقله صحيح فقلت: هل تستطيع أن تثبت لي أن في الآخرة حساب ؟ ممكن . ووجود الله ونزول الوحي هذا شئ يدركه العقل ، يستطيع العقل الصحيح أن يتوصل إلي كلام عام لا تفاصيل الأمور كتطاير الصحف ولكن قد يدرك العقل أن هناك يوما آخر وحسابا لكن التفاصيل لابد فيها من وحي . إذاً لا يجوز وضع العقل مقابل الشرع .

ثانيا :– العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح .

ثالثا :– أن الرسل جاءت بمحارات العقول لا بمحالات العقول . ولذلك لما قيل لأعرابي كيف عرفت أنه رسول الله ؟ قال لم يأمر بشئ فقال العقل ليته نهي عنه ، ولم ينه عن شئ فقال العقل ليته أمر به ، فهذا أعرابي عاقل ، يعني لما أمر بالصلاة أو بصلة الأرحام فما في عقل صحيح يقول لماذا أمر بذلك ، فالعقل الصحيح يؤيد ذلك، وما فيه شئ نهي عنه وقال العقل ليته أمر به، مثل الزنا وشرب الخمر والسرقة .

وكذلك من القواعد :– العقل قد يخفي عليه بعض الأشياء في الشرع فحقه في ذلك التسليم والانقياد ، كأنصبة الزكاة وعدد الصوات ، والتفاصيل الغيبية لا يمكن معرفتها إلا من جهة الوحي . فهناك أشياء لا يمكن للعقل معرفتها ، والوحي هو الذي يأتي بها وعلي العقل التسليم ، بخلاف المعتزلة الذين قالوا: يمكن للعقل معرفة التفاصيل في الصفات والشرائع .

رابعا :– أن العقل مع النقل كالعين مع ضوء الشمس ، فإذا ضعف أحدهما ضعف الآخر وإذا كان كلاهما قويا كانت البصيرة قوية وإن كان أحدهما ضعيفا فتضعف البصيرة .

ولم يصح في فضل العقل حديث متصل ، وقد نص على ذلك غير واحد من أهل العلم بالحديث، كأبي الفتح الأزدي وأبي جعفر العقيلي وابن حبان وغيرهم .[1]

وما أحسن قول الشاعر في قضية العلم والعقل :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا ** من ذا الذي فيهما قد أكمل الشرفا

فالعقل قال أنا أحرزت غايته ** لأن بي رب الناس قد عرفا

فأفصح العلم إفصاحا وقال له ** بأينا الله في تنزيله إتصفا؟

فبان للعقل أن العلم ســـــيده ** فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

فالعلم سيد العقل ولابد أن يكون العقل صحيحا حتي تكون النتيجة المرجوة .

كتاب "درء تعارض العقل مع النقل" كله في الرد علي هؤلاء العقلانيين والمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة ، وليس هناك تعارض أصلا بين العقل الصحيح والنقل الصحيح ، وهم يقولون إذا ما تعارض العقل مع النقل نقدم العقل ، ليس هناك تعارض أصلا بين العقل والنقل. ولكن ما يزعمه أولئك من التعارض هو مرض في عقولهم ، ولذلك مثلا : أصحاب العقول الصحيحة يعرفون أن الله في العلو حتي الكافر ولذلك إذا أصابته مصيبة ، لا شعوريا يرفع رأسه وبصره إلي السماء ، وهو كافر لما أصابته مصيبة تلقائيا رفع رأسه للسماء ، هذا مركوز في الفطرة ، وهو الدليل الأخير الذي نتحدث عنه لمصادر تلقي العقيدة .

الفطرة

المصادر الثانوية هي العقل والفطرة وهما دليلان مساندان لا مستقلان .

فنقول ما هي الفطرة؟ هي ما فُطر عليه الإنسان ، فالطفل مفطور علي أن الله في السماء والقلوب مفطورة علي محبة من أحسن إليها هذا مثال . حتي عند البهائم حتي الحمل عند الحيوانات يخاف الذئب ، وما رأي الذئب من قبل ، ولكن عند رؤيته للذئب يهرب لماذا؟ بالفطرة، شئ مركوز في الفطرة .

---

[1] – سلسلة الأحاديث الضعيفة [12 /111]

الفطرة في اللغة: مِن فَطر الشئ يفطره فانفطر ، يعني شقه قال تعالي (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ).(الإنفطار1–). يعني انشقت، وكان النبي صلي الله عليه وسلم يقوم الليل حتي تتفطر قدماه [1] أي تتشقق ، فطر الله الخلق : خَلَقَهُمْ وبدأهم. والفِطْرةُ أيضا: الِابْتِدَاءُ وَالِاخْتِرَاعُ. [2]؛ كما قال تعالي (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).(فاطر–1) وقال ابن عباس قد كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض؟ حتي أتاني أعربيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها أي بدأتها [3]، فعرف ابن عباس أن فاطر بمعني بدأ .

والفطرة في الاصطلاح هي الإسلام ، ورد لفظ الفطرة في القرآن الكريم في آية واحدة وهي قوله تعالي (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) .(الروم–30)

وفي السنة : حديث: (كُلُّ مولودٍ يُولد على الفِطْرة فأبواه يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصرِّانِهِ)[4]

فذهب بعض الناس إلى أن الفطرة هي الخلقة التي عليها المولود ولكن هذا الكلام ناقص ، وقيل بأن الفطرة هي السلامة من المعرفة والإنكار ، فبعض الناس قالوا أن الفطرة حيادية (لا تعرف الله ولا تنكر الله) وهذا قول باطل ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ) ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) الْآيَةَ [5] ولم يقل (أو يسلمانه) لماذا ؟ لأنه مفطور علي الإسلام ، لو كانت الفطرة حيادية ما مدح الله الفطرة (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).(الروم–30) .

---

[1] – متفق عليه.
[2] – نظر: لسان العرب (5/ 56)
[3] – تفسير الطبري (283/11)
[4] – متفق عليه
[5] – متفق عليه

وقد قالوا في الفطرة أقوالا كثيرة . قالوا التمكن من المعرفة ، وقالوا إن الفطرة في الابتداء الذي خلقهم عليه ، ابتدأهم الله عليه من الحياة والموت والسعادة والشقاء ، ولكن الفطرة علي الصحيح هي الإسلام وهذا أصح الأقوال وهوالمعروف عند عامة السلف حتي من أهل التأويل .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

" يَقُولُ تَعَالَى: فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ على الدين الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لَهَا وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَأَشْهَدَهُمْ على أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) [الْأَعْرَافِ: 172] . وَسَنَذْكُرُ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ طَرَأَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَدْيَانُ الْفَاسِدَةُ كاليهودية والنصرانية والمجوسية "[1].

وكذلك فإن قوله (لاتبديل لخلق الله) هذا خبر بمعني الطلب يعني جعلتها سليمة، فلا تغيروها ولا تبدولها ولا تحرفوها . كل مولود يولد علي الفطرة بمعني الإسلام ، ومن مات أبواه وهما كافران فإنه يحكم بإسلامه كما قال الإمام أحمد رحمه الله ، ولا يمكن أن يتحول من الإسلام لأنه أصلا مفطور عليه .

يخلق على الإسلام ثم ينسبه أباه إلي ملة أخري بوذية أو نصرانية أو يهودية أو غير ذلك ، فإذاً الفطرة هي الإسلام والله تعالي فطر الخلق علي توحيده ومعرفته عز وجل . فالفطرة علي توحيد الربوبية .

وكذلك فإن الفطرة دالة علي توحيد الأسماء والصفات في الجملة ، فالخلق مفطورون علي أن الله أجلّ وأعلم وأكرم وأكمل من كل شئ ، هذا ثابت في فطر الناس ، بمعني أن أسماء الله العليم والكريم هذه في الفطرة أما تفاصيل الصفات فبالوحي .

---

[1] – تفسير ابن كثير (6/ 282)

وكذلك الناس مفطورون علي الإقرار بوجود الله . والفطرة تدل علي صفة العلو أيضا لأن الإنسان كما في عقيدته حتي عند العجائز والصبيان والكفار إذا قيل لهم أين الله ؟ ارتفعت أبصارهم إلي جهة العلو .

قال شيخ الإسلام : " وأكثر الفطر السليمة إذا ذكر لهم قول النفاة بادروا إلى تجهيلهم وتكفيرهم، ومنهم من لا يصدق أن عاقلاً يقول ذلك، لظهور هذه القضية عندهم، واستقرارها في أنفسهم، فينسبون من خالفها إلى الجنون، حتى يروا ذلك في كتبهم أو يسمعوه من أحدهم "[1].

يعني حتي النصراني واليهودي يجهّل الأشعري الذي يقول أن الله في كل مكان.

الفطرة تدل علي توحيد الإلهية لأن الفطرة تأبي أن يكون هناك مخلوقان يُقصدان معا بالعبادة ، فالفطرة تتجه إلي عبادة إله واحد لا تقبل توزيع العبادة . لكن الناس الذين يربون أولادهم علي الشرك . والإنسان من البيئة السيئة يولد علي الشرك ويتأثر به فلا يري في عبادة المقبور ذما ولا خطرا ونحو ذلك .

ما هو موقف الفرق من مصادر تلقي العقيدة ؟

هذه الفرق لها أقوال مضطربة كثيرا في قضية المصادر ، فمثلا الخوارج يعظمون القرآن ولكنهم لا يفهمونه علي وجهه كما فهمه السلف .

وبالنسبة للسنة لا يرون اتباع السنة التي تخالف القرآن في ظنهم كالرجم ونصاب التركة .

والإجماع : المنقول عنهم أنهم ينكرونه ، وأقوالهم اختلفت في قضية العقل والفطرة .

أما الرافضة فالقول المأثور عنهم في تحريف القرآن والنقص والزيادة فيه واضح ، ومؤلفاتهم في ذلك معروفة مثل كتاب "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" للطبرسي ، وهو منهم ، إذاً عقيدتهم فيه أو علي الأقل عقيدة البعض منهم أنه مُحرف ، وكذلك نعمة الله الجزائري الرافضي من فقهاء الإمامية نقل في كتابه أن الأصحاب– أي أصحابه– قد اتفقوا علي صحة الأخبار المستفيضة بل المتواترة الدالة بطريقها علي وقوع التحريف في القرآن ، وهكذا عند كثير منهم .

---

[1] درء تعارض العقل والنقل (6/ 343)

أما بالنسبة للسنة النبوية فمعروف أنهم ينكرون جلها ، لأنها عن الصحابة الذين كفروهم ووضعوا بدلا من ذلك "الكافي" .

أما الإجماع فهم يعتقدون في كتب أصولهم بعدم إمكانه ، وكذلك بالنسبة للعقل اختلفت أنظارهم فيه فبعض فرقهم يحظرون الاجتهاد ولا يقيمون للعقل وزنا .

أما الإمامية فافترقوا علي قسمين :- الأصوليون رفعوا العقل إلي مرتبة الدليل . والأخباريون اقتصروا علي أخبارهم من كتبهم الموثوقة بزعمهم . وأما بالنسبة مثلا لمصادرهم فيقولون: إن الإمام من مصادر التلقي وكلامه ينسخ الآيات .

فإذا كان التشريع عندنا انتهي بوفاة النبي صلي الله عليه وسلم ، فالتشريع عندهم استمر حتي سنة 260 هجرية عندما دخل آخر واحد من أئمتهم بزعمهم في السرداب .

أما المعتزلة : فالقرآن عندهم من جملة الدلائل لكنهم نصبوا العقل علي النقل وهذه بليتهم كما صرح بذلك عبد الجبار الزنداني وهو أكبر معتزلي وأكبر مؤصل لهم ، وكذلك السنة ينكرونها إذا خالفت العقل ، فالعقل عندهم هو الأصل كما تقدم .

والأشاعرة يقولون بحجية القرآن ، وجمهور المعتزلة في اعتقادهم أن الدليل النقلي كالقرآن والسنة لا يفيد اليقين وأن البراهين العقلية تفيد اليقين .

فأما السنة: فهم لا يعتقدون بخبر الآحاد ولا يرونه حجة في العقيدة .

وأما الصوفية : فلهم بحث مستقل ، والخبر والإلهام أي ما يلهمه الشيخ والولي من مصادر التلقي عندهم . والهواجس ما يسمعه الولي والشيخ بأذنه – ممكن يكون من الجن أو مرض نفسي – من مصادر التلقي عندهم ، وعندهم أن الشيخ قد يسمع أشياء من السماء ويعطي أحكاما فهذا من مصادر التلقي عندهم .

والشيخ عندهم قد يكون جالسا فتنكشف له الحجب فيقول علمت ما في السماوات والأرض ! والرؤي والمنامات عندهم من مصادر التلقي ، وكثيرا ما يقولون في دليلهم: رأي شيخنا في منامه كذا .

نتحدث الآن عن التوحيد :

فمِن أسس العقيدة وعلي رأسها : التوحيد.

قلنا أن السلف يطلقون علي العقيدة الصحيحة عدة أسماء ، ومن ذلك التوحيد .

فما هو تعريف التوحيد وما هي أنواعه ؟

التوحيد في اللغة :– مصدر قولهم : وحد يوحّد ، قال ابن فارس : الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد ، والواحد المنفرد. [1]

وقال ابن منظور : التوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له ، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد.[2]

وروى الأَزهري عن أَبي العباس أَنه سئل عن الآحاد أَهي جمع الأَحَدِ ؟ فقال معاذ الله ليس للأَحد جمع ولكن إِن جُعلت جمعَ الواحد فهو محتمل مثل شاهِد وأَشْهاد قال: وليس للواحد تثنية ولا للاثنين واحد من جنسه. وقال أَبو إِسحق النحوي: الأَحَد أَن الأَحد شيء بني لنفي ما يذكر معه من العدد والواحد اسم لمفتتح العدد وأَحد يصلح في الكلام في موضع الجحود وواحد في موضع الإِثبات، يقال ما أَتاني منهم أَحد فمعناه لا واحد أَتاني ولا اثنان وإِذا قلت جاءني منهم واحد فمعناه أَنه لم يأْتني منهم اثنان فهذا حدُّ الأَحَد ما لم يضف فإِذا أُضيف قرب من معنى الواحد وذلك أَنك تقول قال أَحد الثلاثة كذا وكذا وأَنت تريد واحداً من الثلاثة والواحدُ بني على انقطاع النظير [3]

وقال الشوكاني رحمه الله : قال الأزهري : لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ولا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل واحد ودرهم واحد . قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه . فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد .[4]

---

[1] – معجم مقاييس اللغة (90/6)

[2] – لسان العرب (90/6)

[3] – لسان العرب [3 /446]

[4] – فتح القدير [5 /731]

وأما شرعا :

فهو إفراد الله بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

قال السفاريني رحمه الله :

"التَّوْحِيدِ هُوَ إِفْرَادُ الْمَعْبُودِ بِالْعِبَادَةِ مَعَ اعْتِقَادِ وَحْدَتِهِ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَأَفْعَالًا، فَلَا تَقْبَلُ ذَاتُهُ الِانْقِسَامَ بِوَجْهٍ، وَلَا تُشْبِهُ صِفَاتُهُ الصِّفَاتِ وَلَا تَنْفَكُّ عَنِ الذَّاتِ، وَلَا يَدْخُلُ أَفْعَالَهُ الِاشْتِرَاكُ، فَهُوَ الْخَالِقُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ. وَإِنَّمَا كَانَتِ الْعُلُومُ كَالْفَرْعِ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ ; لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلُ الطَّاعَاتِ، وَشَرْطٌ فِي صِحَّةِ كُلِّ عِبَادَةٍ وَطَاعَةٍ، وَشَرْطٌ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ، إِذْ هُوَ مَعْرِفَةُ ذِي الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، فَمَنْ لَمْ يُوَحِّدِ الْمَعْبُودَ، فَكُلُّ عَمَلِهِ مَرْدُودٌ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَذَا الْعِلْمُ بِالتَّوْحِيدِ ; لِأَنَّهُ أَشْهَرُ مَسَائِلِهِ وَأَشْرَفُهَا"[1]

التوحيد في القرآن والسنة .

قد ذكر الله تعالي في كتابه المجيد من الآيات ما يدل علي توحيده كما قال (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) .(آل عمران–64) وكذلك جاء استعمال التوحيد في القرآن علي نفي الشراكة عن الله تعالي (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) .(الكهف–38) . وكذلك جاء بما يدل علي أن لله الأسماء الحسني وقصرها علي الله تعالي : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) .(البقرة–255)

وكذلك جاء التوحيد بما يدل علي تفرد الله بالألوهية وتوحيده بها وأنها لا تجوز لغيره (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) .(ص–65) ، كما جاء التوحيد دالا علي الربوبية (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) .(الرعد–16) ، وجاء التوحيد بتفرد الله بالإيمان به (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) .(غافر–84) ، كذلك جاء ما يدل علي أن الإسلام يكون له وحده (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ) .(الأنعام–56) ، . (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) .(لقمان–22) ، وكذلك جاء في القرآن ما يدل علي أنه الدين (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) .(الأنفال–39) ، وجاء أيضا في سياق القرآن

---

[1] – لوامع الأنوار البهية (57/1)

ما يدل علي تفرده سبحانه بالولاية (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .(الأنعام–14)، وجاء أيضا التوحيد في مسألة الحكم (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ).(الأنعام–57) ، كذلك أن الله منفرد بالخلق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضر (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).(الأعراف–54) ، وتوحيده هنا يكون بكونه سبحانه منفردا بالخلق والأمر ، وقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).(الملك–1) ، وتوحيده هنا يكون بكونه منفردا بالملك التام، وكذلك قوله (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).(آل عمران–26) ، وقوله : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا).(الفرقان –55) ، إفراده بأنه هو الذي يضر وينفع ، كذلك جاء التوحيد بما يفيد أن المخلوقات عاجزة عن نفع نفسها وأنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . كقوله (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .(الأعراف–191)، وكذلك جاء التوحيد في سياق قضية تفرد الله بالنعم الظاهرة والباطنة (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ). (ابراهيم–32)) . كذلك في نصر أوليائه وإهلاك أعدائه ، {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [آل عمران: 126]

وأما من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم :

فعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ وَكَانَ جَاهِلِيًّا فأَسْلَمَ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا وَهُوَ لَا يَسْكُتُ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا ، إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ ؟ قَالُوا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ "[1]

[1] – رواه أحمد (15593) وصححه الألباني في صحيح السنة (ص142)

كما بعث رسله صلى الله عليه وسلم إلى الناس يدعوهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده ، كما بعث دحية الكلبي إلى هرقل ، وبعث معاذا إلى اليمن .

وكان في كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ . وَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ إِلَى قَوْلِهِ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[1]

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ : (ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ)[2]

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ ، وَقَالَ (احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)[3]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ)[4] والحنيفية السمحة هي التوحيد .

وعن جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .[1]

---

[1] – متفق عليه .

[2] – متفق عليه .

[3] – متفق عليه .

[4] – رواه أحمد (21788) وصححه الألباني في الصحيحة (2924)

وكذلك كان يربي أصحابه علي التوحيد ، كذلك الأذكار التي علمها لأمته عند النوم والطعام والسفر والفطر . وهكذا كلها تذكّر العبد بالتوحيد .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

" فَالتَّوْحِيدُ: مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وأول وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ – كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ.

فَالتَّوْحِيدُ: أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ، وَآخِرُ وَاجِبٍ، فَالتَّوْحِيدُ: أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ "[2].

أما بالنسبة لإطلاق التوحيد فإنه يطلق علي عدة أشياء :-

قد يطلق التوحيد ويقسم إلي ثلاثة أشياء (توحيد القلب والقول والعمل) .

وإذا قلت إن توحيد القلب ينقسم إلي قول القلب وعمل القلب . وقول القلب هو التصديق ، وعمل القلب هو الحب الخضوع والمحبة والرجاء والحياء وغير ذلك ، فيكون توحيد القلب قولا وعملا .

وبقي توحيد العمل والجوارح .

وأما توحيد العمل والجوارح : فقال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).(الأنعام–162) ، وقال تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) .(الكوثر–2).

هل يمكن أن نقول أن التوحيد ينقسم إلي توحيد القول وتوحيد العمل ؟ ممكن أيضا ، وتفصيلا في أربعة :-

1–توحيد القول باللسان .

2–توحيد القول بالقلب.

3–توحيد العمل بالقلب.

4–توحيد العمل بالجوارح.

---

[1] – متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

[2] – مدارج السالكين (3/411–412)

وهذه الأقسام متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض ، ولا يمكن لواحد أن يؤمن بالجوارح وهو مشرك بقلبه .

وكذلك يمكن أن يقسم التوحيد من جهة أخري من الناحية اللفظية إلي توحيد المعرفة والإثبات ، وتوحيد القصد والطلب .

فيكون توحيد المعرفة والإثبات شاملا لتوحيد اللسان وهو قول اللسان ولبعض توحيد القلب وهو التطبيق، وتوحيد القصد والطلب شاملا لأعمال القلب والجوارح .

ويمكن تقسيم التوحيد أيضا بإعتبار أفعاله فنقول:

توحيد الله بأفعاله وتوحيد الله بأفعال المكلفين ، فتوحيد الله بأفعاله وكمالاته وصفاته ، وتوحيد الله بأفعال المكلفين مثل صلاتنا له وزكاتنا لله فقط .. وهكذا .

ويمكن أن يقسم التوحيد بإعتبارات أخرى : لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، إذاً مسألة تقسيم التوحيد هي مسألة فنية ، ليس منصوصا عليها في القرآن والسنة أن التوحيد ينقسم إلي كذا وكذا . هذه مسألة فنية يعني يمكن ألا يوجد نص فيه أن توحيد الله هو توحيد الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات ، فهذه تقسيمات فنية مأخوذة من النصوص . فبعض العلماء نظروا في النصوص فأخذوا تقسيم التوحيد منها لتسهيل فهمه فقط، ليس هناك نص ملزم لنا أن نقسم التوحيد بطريقة معينة .

فلو قال قائل: أنتم يا من تنتسبون للسلف مبتدعة . لماذا؟ فيقول: أنتم قسمتم التوحيد إلي ثلاثة فأين الدليل علي ذلك ؟ نقول: عندنا تقسيم أربعة وعندنا ثلاثة وعندنا اثنين عندنا أكثر من شكل إن أردت ، فالمسألة عندنا تبسيط للفهم وليست تقسيما لا يمكن الخروج عنه ، هذه مسألة لابد من فهمها ؛ لأن هؤلاء المبتدعة قد هاجموا أهل السنة ، في قضية تبديع أهل السنة في مسألة التقسيم .

فيجب اعتقاد أن الله واحد ، فنوحده عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو الذي يحي ويميت وينزل الغيث ويدبر الأمر ويصرف الآيات، وكذلك نوحده بأفعالنا وهي صلاتنا له فقط وصيامنا ونذرنا له فقط ، وكذلك سائر أنواع العبادات .

هذه خلاصة التوحيد ، أما تقسيمه فلاعتبارات من أجل الشرح وتيسير الفهم على الناس ليتضح لهم صورته وحقيقته التي يجب عليهم أن يفهموه بموجبها .

تعريف توحيد الله : هو إفراد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته وحقوقه – أي أعمالنا نحن– ولهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وأمر الأنبياء بمقاتلة المخالفين ، كل الدنيا خلقت لأجل ذلك حتي السموات والأرض ، ونعادي ونوالي من أجلها ، فإذاً هذه الحقيقة من إفراد الله نموت عليها ونحيا عليها وبها نبعث وعليها نحاسب وهي خلاصة الدين كله ، والقرآن من أوله إلي آخره توحيد ، لأنه إما في بيان أسمائه وصفاته وحقوقه – ومن حقوقه طبعا أن تقوم بالأوامر والنواهي– أو بيان ثوابه لأوليائه وعقابه لأعدائه ومن خالفه ، فكل القرآن يدور حول ذلك .

قال ابن القيم :

" كُلّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَهِيَ حُقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتُهُ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ، فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ. فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ "[1]

أما التوحيد عند المخالفين :– فالقدرية قد ضلت ضلالا بعيدا فذهبوا إلي أن التوحيد هو إثبات وجوده مجردا عن الصفات فقط ، هذا التوحيد عند ابن سينا الذي يطنطنون اليوم بتقدم الطب علي يد ابن سينا ، وأحيانا يقال من أعلام المسلمين في الطب ابن سينا ، يقول ابن سينا أن التوحيد هو إثبات وجود مطلق ، ومن المعلوم أن هذا الإثبات نفي للوجود لأنه لا يتصور وجود

[1] – مدارج السالكين (3/ 417)

ذات من غير صفات ، لو قال قائل أن الله ليس له أسماء ولا صفات ولكن فقط نثبت وجوده ، فنقول له كأنك أثبت عدما ، قال ابن القيم :

" وَقَدْ تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ التَّوْحِيدَ وَسَمَّى كُلُّ طَائِفَةٍ بَاطِلَهُمْ تَوْحِيدًا:

فَأَتْبَاعُ إِرِسْطُو وَابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الطُّوسِيِّ، عِنْدَهُمُ التَّوْحِيدُ: إِثْبَاتُ وُجُودٍ مُجَرَّدٍ عَنِ الْمَاهِيَّةِ وَالصِّفَةِ، بَلْ هُوَ وُجُودٌ مُطْلَقٌ، لَا يَعْرِضُ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ، وَلَا يَقُومُ بِهِ وَصْفٌ، وَلَا يَتَخَصَّصُ بِنَعْتٍ، بَلْ صِفَاتُهُ كُلُّهَا سُلُوبٌ وَإِضَافَاتٌ، فَتَوْحِيدُ هَؤُلَاءِ: هُوَ غَايَةُ الْإِلْحَادِ وَالْجَحْدِ وَالْكُفْرِ، وَفُرُوعُ هَذَا التَّوْحِيدِ: إِنْكَارُ ذَاتِ الرَّبِّ، وَالْقَوْلُ بِقِدَمِ الْأَفْلَاكِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَأَنَّ النُّبُوَّةَ مُكْتَسَبَةٌ، وَأَنَّهَا حِرْفَةٌ مِنَ الْحِرَفِ، كَالْوِلَايَةِ وَالسِّيَاسَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ عَدَدَ الْأَفْلَاكِ وَلَا الْكَوَاكِبِ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْمُعَيَّنَةِ الْبَتَّةَ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى قَلْبِ شَيْءٍ مِنْ أَعْيَانِ الْعَالَمِ وَلَا شَقِّ الْأَفْلَاكِ وَلَا خَرْقِهَا، وَأَنَّهُ: لَا حَلَالَ وَلَا حَرَامَ، وَلَا أَمْرَ وَلَا نَهْيَ، وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ، فَهَذَا تَوْحِيدُ هَؤُلَاءِ .[1]

التوحيد عند الإتحادية وهم طائفة من غلاة الصوفية:

التوحيد عندهم أن الحق هو عين الخلق فكل ما تري بعينك فهو الله كل الكون هو الله ، فالخلق يساوي الخالق عندهم ، وهذا أشد من كفر اليهود والنصارى ، قال ابن القيم رحمه الله :

" وَأَمَّا الِاتِّحَادِيَّةُ، فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ: أَنَّ الْحَقَّ الْمُنَزَّهَ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَحَقِيقَتُهُ وَمَاهِيَّتُهُ، وَأَنَّهُ آيَةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهُ فِيهِ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَيْنُهُ، وَهَذَا عِنْدَ مُحَقِّقِيهِمْ مِنْ خَطَأِ التَّعْبِيرِ، بَلْ هُوَ نَفْسُ الْآيَةِ، وَنَفْسُ الدَّلِيلِ، وَنَفْسُ الْمُسْتَدِلِّ، وَنَفْسُ الْمُسْتَدَلِّ عَلَيْهِ، فَالتَّعَدُّدُ: بِوُجُودِ اعْتِبَارَاتٍ وَهْمِيَّةٍ، لَا بِالْحَقِيقَةِ وَالْوُجُودِ، فَهُوَ عِنْدَهُمْ عَيْنُ النَّاكِحِ، وَعَيْنُ الْمَنْكُوحِ وَعَيْنُ الذَّابِحِ، وَعَيْنُ الْمَذْبُوحِ، وَعَيْنُ الْآكِلِ، وَعَيْنُ الْمَأْكُولِ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ: هُوَ السِّرُّ الَّذِي رَمَزَتْ إِلَيْهِ هَوَامِسُ الدُّهُورِ الْأَوَّلِيَّةِ، وَرَامَتْ إِفَادَتَهُ الْهِدَايَةُ النَّبَوِيَّةُ، كَمَا قَالَهُ مُحَقِّقُهُمْ وَعَارِفُهُمُ ابْنُ سَبْعِينَ.

---

[1] – مدارج السالكين (3/ 415)

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التَّوْحِيدِ: أَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مُؤْمِنُونَ كَامِلُو الْإِيمَانِ، عَارِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا عَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا غَيْرَهُ، وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ الْحَقَّ أَنْ لَا فَرْقَ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأُخْتِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ، وَالزِّنَا وَالنِّكَاحِ، الْكُلُّ فِي عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ "[1]

ويقول عبد الكريم الزيني : " أضل الناس المحمديون ، وأهدي منهم الثنوية – الذين يقولون هناك إلهان – وأهدي منهم المثلثون – النصاري – وأهدى منهم من يرى ربه ويعبد ربه في كل شئ "

التوحيد عند الجهمية :

وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ، فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ: إِنْكَارُ عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ بِذَاتِهِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَإِنْكَارُ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَقُوَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، وَكَلَامِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَمَحَبَّةِ الْعِبَادِ لَهُ، فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ: هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي إِنْكَارِ التَّوْحِيدِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ.

التوحيد عند القدرية :

وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ، فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ: هُوَ إِنْكَارُ قَدَرِ اللَّهِ، وَعُمُومِ مَشِيئَتِهِ لِلْكَائِنَاتِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، وَمُتَأَخِّرُوهُمْ ضَمُّوا إِلَى ذَلِكَ: تَوْحِيدَ الْجَهْمِيَّةِ، فَصَارَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ: إِنْكَارَ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارَ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى، وَرُبَّمَا سَمَّوْا إِنْكَارَ الْقَدَرِ، وَالْكُفْرَ بِقَضَاءِ الرَّبِّ وَقَدَرِهِ: عَدْلًا، وَقَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ.

التوحيد عند الجبرية :

وَأَمَّا الْجَبْرِيَّةُ، فَالتَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ: هُوَ تَفَرُّدُ الرَّبِّ تَعَالَى بِالْخَلْقِ وَالْفِعْلِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ غَيْرُ فَاعِلِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا مُحْدِثِينَ لِأَفْعَالِهِمْ، وَلَا قَادِرِينَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَمْ يَفْعَلْ لِحِكْمَةٍ، وَلَا غَايَةٍ تُطْلَبُ بِالْفِعْلِ، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قُوًى وَطَبَائِعُ وَغَرَائِزُ وَأَسْبَابٌ، بَلْ مَا ثَمَّ إِلَّا مَشِيئَةٌ مَحْضَةٌ تُرَجِّحُ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ وَلَا حِكْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ الْبَتَّةَ. [2]

وأما التوحيد عند أهل السنة والجماعة :

---

[1] – مدارج السالكين (3/ 415-416)

[2] – راجع : مدارج السالكين (3/ 415-416)

فبتأمل دعوة الرسل والآيات والأحاديث نجد أن التوحيد نوعان :-

الأول : إثبات حقيقة ذات الرب عز وجل وصفاته وأسمائه وأفعاله.

والثاني : توحيد القصد والطلب من جهة العباد .

والأول : هو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، والثاني هو توحيد الألوهية .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله :

" ومن يتأمل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وحال الأمم الذين دعتهم الرسل يتضح له أن التوحيد الذي دعوا إليه ثلاثة أنواع , نوعان أقر بهما المشركون فلم يدخلوا بهما في الإسلام وهما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

أما توحيد الربوبية فهو الإقرار بأفعال الرب من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة إلى غير ذلك من أفعاله سبحانه فإن المشركين قد أقروا بذلك واحتج الله عليهم به , لأنه يستلزم توحيد العبادة ويقتضيه , كما قال تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } وقال تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } الآية وقال تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ }

والآيات في هذا المعنى كثيرة وكلها دالة على إقرارهم بأفعال الرب سبحانه ولم يدخلهم ذلك في الإسلام , كما تقدم لعدم إخلاصهم العبادة لله وحده وذلك حجة عليهم فيما أنكروه من توحيد العبادة لأن الخالق لهذه الأشياء التي أنكروها هو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له .

أما النوع الثاني وهو توحيد الأسماء والصفات : فقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرات ، وكلها دالة على أن الله سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا وله الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له في ذلك .

وقد أجمع سلف الأمة على وجوب الإيمان بكل ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيحة من الأسماء والصفات وإقرارها كما جاءت , والإيمان بأن الله سبحانه موصوف بها على الحقيقة لا على المجاز على الوجه اللائق به لا شبيه له في ذلك ولا

ند له ولا كفو ولا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه وهو الموصوف بمعانيها كلها على الكمال المطلق الذي لا يشابهه فيها أحد كما تقدم في قوله عز وجل : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } أما النوع الثالث فهو توحيد العبادة : وهو الذي جاءت به الرسل , ونزلت الكتب بالدعوة إليه , والأمر بتحقيقه وخلق الله من أجله الثقلين , وفيه وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم , كما قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } وقال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }

وقال سبحانه : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } وقال عز وجل : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } والآيات في هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على أن الله سبحانه أرسل الرسل وأنزل الكتاب وخلق الخلق ليعبد وحده لا شريك له ويخص بالعبادة دون كل ما سواه " انتهى باختصار.[1]

وبعض العلماء جعلوا توحيد الأسماء والصفات نوعين ، توحيد الأسماء وتوحيد الصفات، وكما قلنا لا مشاحة في التفصيل ؛ فالقضية هي قضية فنية ، وأنكر هؤلاء المبتدعة هذا التقسيم وأنه ماجاءت به الرسل ، ولكن النقل فيه ذلك ، لما نظرنا في النقل وجدنا فيه توحيد الله بأفعال العباد وتوحيد الرب بأسمائه وصفاته ، إذاً القضية قضية استقرائية من الكتاب والسنة .

توحيد الربوبية : هو إفراد الله بالملك والخلق والرزق والتدبير وأنه لا خالق غيره ولا مدبر سواه قال تعالي (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) . (الأعراف–54). (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).(المائدة–120) ، وهذا مما يدل علي الحصر.

إن قال قائل إن البشر يملكون ، فنقول إن ملكهم ناقص ، فممكن يملكه ولكن لا يستطيع أن يتصرف فيه كأن يحجر عليه أو يؤخذ منه ، وليس له دوامه لأنه بعد موته ينتقل إلي غيره ، فملك البشر ملك ناقص أما الملك التام فلله تعالي .

أما توحيد الألوهية: فهو إفراد الله بالعبادة كما قال (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) . (الإسراء–23).

---

[1] – مجموع فتاوى ابن باز (34/2–35)

وإفراده بأسمائه وصفاته لأمرين :- إثبات ما جاء عن الله من أسماء وصفات .

والثاني: نفي المماثلة . وسوف نتعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

أنواع التوحيد متلازمة

لابد أن نعرف أن علاقة أنواع التوحيد الثلاثة ببعضها علاقة وثيقة جدا وهي علاقة تلازم وشمول وتضمن ، فتوحيد الربوبية مثلا مستلزم لتوحيد الألوهية. كيف ، وتوحيد الربوبية مقدمة وتوحيد الألوهيه نتيجة ؟ يعني لو آمنت أنه هو الرب الملك المحي المميت ماذا ينتج من ذلك ؟ النتيجة أنك تفرده بالعبادة ولا يستحقها إلا هو ، فلما أفردته بالربوبية كانت النتيجة أن تفرده بالألوهية والعبادة لأنه لا يستحق العبادة إلا هو . إذاً توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية . توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ، لأنك إن أفردته بالعبادة فلابد أنك تعتقد أن هذا الرب الذي لا رب غيره ، ولذلك فأنت عبدته .

وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين معا ، لماذا ؟ لأنه قائم علي إفراد الله بكل ما له من أسماء حسني وصفات عليا لا تنبغي إلا له ، ومن جملتها كلمة رب لا شريك له ، فاسم الرب لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق ، فممكن أن نقول رب الدار أو رب العبد أو رب المنزل أو رب المال، أما إن قلت (الرب) هكذا بالإطلاق فلا تنصرف إلا لله فقط .

فالأنواع الثلاثة متلازمة ولا يكمل توحيد العبد إلا باجتماعها كاملة فيه .

ومن عبد الله وحده واعتقد أن هناك من له قدرة مثل قدرة الله أو أنه ينفع أو يضر من دون الله فهذا إنسان مشرك ، وإن أقر لله بالربوبية والألوهية ولكنه لا يثبت له الأسماء والصفات فذلك لا يصح إيمانه ولا ينفعه توحيده للربوبية ولا الألوهية حتى يثبت له الأسماء والصفات . فمن كفر ببعضه وآمن ببعضه فقد ضل ضلالا بعيدا .

لماذا دعوة الرسل أكثرها في توحيد الألوهية ؟

لكثرة ضلال الخلق فيه وليس لأن الأنواع الأخرى غير مهمة ، ولذلك لاحظ أن البشرية منذ وجودها ليس أكثر انحرافها في نفي وجود الله بالكلية ، ولا أكثر انحرافها في جحد الأسماء

والصفات ولكن أكثر انحرافها في توحيد الألوهية في العبادة، يشركون في عبادة الله أو يصرفونها إلي غيره ، هذه مشكلة البشرية ، ولذلك تصدر دعوة الرسل بها بالأساس لا علي أنه لا يوجد الانحراف في الأنواع الأخرى ، فقد وجد الشيوعيون والملحدون الذين ينكرون وجود الله بالكلية ، كما وجد الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات ، ولذلك العالم الذكي الذي يفهم الأمور ينصب جهده علي منكَر عصره ، والمصلح الداعية ينصب جهده علي أكثر ما يقع الناس فيه في زمنه من الانحراف ، ولو أنك أردت تقويم الناس في مشكلة ما وهم مقرون بوجود الله ، فعلي أي شيء ينصب جهدك ؟ علي إثبات وجود الله أما على ما هم يقعون فيه ؟ ينصب جهدك علي أكثر منكر في عصرك فهذا ما تقتضيه الحكمة ، ولذلك من استطلع مؤلفات شيخ الإسلام بن تيمية يجد أنه قد صب جهده في الأسماء والصفات لكثرة الانحرافات في الأسماء والصفات في عصره ، تكلم في أبواب أخرى في القضاء والقدر وشاتم الرسول ، وحتى في قضايا السلوكيات وألف كتاب الاستقامة وأنكر علي الصوفية مسائل كبيرة جدا ، لكن انصب جهده في أكثر منكر في عصره وهو الانحراف في الأسماء والصفات .

الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكثر تأليفه في ماذا ؟ فمثلا في كتابه التوحيد هل تجده وزع الكلام بالتساوي علي جميع الأبواب ؟ تجد أكثر ما تكلم فيه قضية الألوهية ؛ لذلك تجد أكثر عناوين كتاب التوحيد في هذه القضية ، وهكذا .

فالمصلح الداعية الذي يسير علي خطي الأنبياء يعرض الدين كاملا هذا أولاً ؛ حتى يفهمه الناس ، ولا يتكلم في مقطع واحد من الدين ويترك الباقي ، عرض كامل للدين ويكون الجهد الأكبر في المنكر الموجود في عصره.

لذلك تجد الإمام أحمد قد خصص جهدا ووقتا كبيرا في الإنكار علي مسألة خلق القرآن ؛ لأن هذه القضية كانت مشكلة كبيرة وقتئذ ، ولذلك مثلا لو أن البلد بها قبورية وأضرحة يصب عليها التركيز ، مثلا في بلد يكثر فيها القوانين الوضعية والدساتير المخالفة لشرع الله ويعطون البرلمان حق التشريع ويضعون مواد مخالفة للدين ، فالحكمة أن يكون أكثر كلام الداعية علي أن الحكم لله ومحاربة قضية الحكم لغير الله وهكذا .

وإذا كان فيه بلد مثلا فيها صوفية يؤمنون بوحدة الوجود تكلم في هذا الموضوع وأعطاه مزيدا من العناية .

وهكذا ينبغي أن يكون منهج الدعوة وهي إعمال الجهد في الأولويات مع عرض شامل للدين حتى لا يفهم الناس أن الدين فقط كله هو أن الحكم لله أو محاربة القبورية ، فلابد أن نعرف الدين كله ، ولكن أكثر ما نتحدث عنه هو أكثر ما يخالف الناس فيه منهج النبوة .

قولهم لا جسم له ولا بعض له

ومن المخالفين مثلا من أهل الكلام من يقول: واحد لا خصيم له ولا جسم له ولا بعض له فالتوحيد عندهم أن الله لا يتجزأ ولا ينقسم ولا يتبعض ، وهم يقصدون بذلك نفي الصفات ، حينما نقول له أن لله يد أو لله وجه يقول هذه أبعاض ونحن عرفنا التوحيد أن الله لا يتبعض ولا يتجزأ . ولذلك إن قال لك قائل ما هو رأيك في تنزيه الله عن الأبعاض والأجزاء ؟ فنقول له ما هو قصدك ؟ وهذه هي القاعدة العظيمة التي أشار إليها شيخ الإسلام رحمه الله: قبل أن تنكر علي أحد اسأله عن قصده ماذا يريد بقوله ذلك ؟ لأن بعض الكلام مجمل ممكن تنكر عليه وهو يقصد الحق وممكن تقره وهو يقصد الباطل فاسأله عن قصده وذلك يكون ديدنك دائما حينما تدخل مع المخالف في معركة قل ما قصدك بهذا الكلام ؟ فإن كان الكلام مجملا ، استفهمت منه مقصوده على التفصيل ، ثم ينظر في هذا التفصيل هل يوافق الحق أم يخالفه .

أما إن كان الكلام باطلا كأن يقول الله ثالث ثلاثة فهذا شرك وكفر ، لكن إن قال لك أحد أن الله لا يتبعض ولا يتجزأ فقل له ما قصدك ؟ إن قال قصده أن الله صمد ، والصمد ورد في معناه الذي يصمد إليه الخلق في حوائجهم . هو السيد الذي كمل في سؤدده والعظيم الذي كملت عظمته وورد في الصمد أنه غير المصمت أي الأجوف ليس له جوف ، فكل مخلوق له جوف والصمد ليس له جوف ، فإذا قال أقصد أنه لا جوف له فينبغي ألا يتبعض ولا يتجزأ فنقول له هذا حق ولكن إن أردنا أن نتكلم عن الحق لا نستعمل ألفاظ لم ترد في الكتاب أو السنة .

فهذا التوحيد الذي جاءت به الرسل هل فيه أن الله لا يتبعض ولا يتجزأ ؟ ما هذه الألفاظ ؟ هل هذا هو الأدب مع الله ؟ إذا فلا نستعملها .

فمثلا أن يوصف الله بنفي الجسم ، شيخ الإسلام يقول ما يصلح نفي الجسم عن الله ، فما تقصد بنفي الجسم عن الله ؟ إن قال لك ليس له جسم كأجسام المخلوقين ، نقول له جيد ولكن ليس من الأدب في التعبير أن نقول أن الله ليس بجسم، لأن هذا الوصف موهم ، قد يريد به صاحبه نفي بعض صفات الله كاليد والوجه والقدم .

وبعض أهل البدع لا يكون توحيدهم إلا في النفي ، فيقولون الله ليس بأعور ولا بأعرج وليس كذا ولا كذا ، لماذا ؟ لأنهم لا يريدون الإثبات ، عندهم مشكلة في الإثبات ، فمصيبة عندهم أن يثبتوا أن الله يحب ويغضب ، توحيد الله علي النفي ، فكيف تمدح به ربك والشخص العادي لا يعتبره من المدح؟ .

أما الموقف من التوحيد عند الصوفية : فيقولون : عندنا توحيد الخاصة وهذا يثبت بالمكاشفات ، وتوحيد خاصة الخاصة وهذا توحيد معناه أنه لا فرق بين القدم والحدوث عندهم ، يعني هو قول بالاتحاد ، فلا إله إلا الله عندهم هذا لعامة الناس ، والخاصة توحيدهم يثبت بالمكاشفات ، وخاصة الخاصة قالوا هذا يرى الله في كل شيء ، ويعبرون عنه ب(السوي) أي سوي الله ، ويسمونه توحيد العمل يعني لا نصلي لغير الله (نفي إرادة السوى) أما نفي شهود السوي هذه فيسمونها وحدة الشهود ، والفناء عن وجود السوي هذه وحدة الوجود ، فليس إلا الله .

قال ابن القيم رحمه الله :

" الْفَنَاء اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ: الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوَى، وَالْفِنَاءِ عَنْ شُهُودِ السِّوَى، وَالْفِنَاءِ عَنْ إِرَادَةِ السِّوَى.

فَأَمَّا الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوَى: فَهُوَ فَنَاءُ الْمَلَاحِدَةِ، الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ مَا ثَمَّ غَيْرٌ، وَأَنَّ غَايَةَ الْعَارِفِينَ وَالسَّالِكِينَ الْفَنَاءُ فِي الْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَنَفِيُ التَّكَثُّرِ وَالتَّعَدُّدِ عَنِ الْوُجُودِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، فَلَا يَشْهَدُ غَيْرًا أَصْلًا، بَلْ يَشْهَدُ وُجُودَ الْعَبْدِ عَيْنَ وُجُودِ الرَّبِّ، بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ رَبٌّ وَعَبْدٌ.

وَأَمَّا الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى: فَهُوَ الْفَنَاءُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الصُّوفِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَيَعُدُّونَهُ غَايَةً، وَلَيْسَ مُرَادُهُمْ فَنَاءَ وُجُودِ مَا سِوَى اللَّهِ فِي الْخَارِجِ، بَلْ فَنَاؤُهُ عَنْ شُهُودِهِمْ وَحِسِّهِمْ، فَحَقِيقَتُهُ: غَيْبَةُ أَحَدِهِمْ عَنْ سِوَى مَشْهُودِهِ.

وَقَدْ يَغْلِبُ عندهم شُهُودُ الْقَلْبِ بِمَحْبُوبِهِ وَمَذْكُورِهِ حَتَّى يَغِيبَ بِهِ وَيَفْنَى بِهِ، فَيَظُنَّ أَنَّهُ اتَّحَدَ بِهِ وَامْتَزَجَ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُه ... " [1]

توحيد الربوبية

وتوحيد الربوبية مركب من كلمتين: (توحيد – ربوبية) وقد عرفنا معني كلمة التوحيد وأما الربوبية فمأخوذة من الرب ، وكلمة الرب في اللغة لها أربعة معان :

1- مالك الشيء وصاحبه

2- السيد المطاع

3- المصلح للشيء

4- التربية والإنشاء

وفي الشرع توحيد الله بأفعاله كالخلق والملك والتدبير ، أن يعتقد المسلم أن الله هو الملك والخالق وحده، فمن اعتقد أن لله شريكا في هذه الأشياء، أو اعتقد أن أحدا ينازع الله فيها فهو مشرك في الربوبية ، ومن قال مطرنا بنوء كذا فهذا مشرك في الربوبية ، ومن قال الدنيا والآخرة للإمام كما يقول الإمامية الرافضة فهذا شرك في الربوبية ومن قال أن الولي يتصرف في الكون وينفع ويضر فهذا شرك في الربوبية ؛ كما قال غلاة الصوفية ، ومن قال :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ** ومن علومك علم اللوح والقلم

فهذا شرك في الربوبية .

فأما توحيد الربوبية فالفطرة تدل عليه ، والفطرة كما عرفناها هي الإسلام علي الراجح من أقوال أهل العلم ، وأن كل إنسان مفطور عليه وأن الله عز وجل فطر كل مخلوق علي معرفته وتوحيده

---

[1] مدارج السالكين (1/ 174-175)

وقبول دعوة الحق إليه ، ولكن ليس معني ذلك أن بالفطرة تستطيع أن تفهم الإسلام في كل شيء (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا).(النحل–78). لكن الأصل أن الله واحد فهذا في الفطرة ، وأما التفاصيل : فتعرف بالعلم . والعقل كذلك يثبت وجود الله وربوبيته .

ودلت الأدلة الشرعية علي توحيد الربوبية (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). (الفاتحه–2)، (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). (لقمان–11).

وكذلك فإن آيات الأنبياء وكراماتهم تدل عليه وإجابة الدعاء تدل عليه ، والأدلة الحسية في الأنفس والآفاق تدل عليه (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).(فصلت–53) ، وكذا التنوع الموجود في الخلائق (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ). (الروم–22) يدل علي ربوبيته عز وجل ، ومن الأدلة علي وجوده : قوله تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ).(الطور36:35)

فالشئ لا يوجد نفسه ولا بد له من موجد، كما يحكى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ . فَقَالَ لَهُمْ : أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةَ ، تَذْهَبُ ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا ، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا ، فَتَرْسُو بِنَفْسِهَا ، وَتُفْرِغُ وَتَرْجِعُ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبِّرَهَا أَحَدٌ ؟ ! فَقَالُوا : هَذَا مُحَالٌ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا ! فَقَالَ لَهُمْ : إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالًا فِي سَفِينَةٍ ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ عُلْوِهِ وَسُفْلِهِ !! وَتُحْكَى هَذِهِ الْحِكَايَةُ أَيْضًا عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ .[1]

وَعَنِ الإمَام الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ وُجُودِ الصَّانِعِ، فَقَالَ: هذا ورق التوت طعمه وَاحِدٌ تَأْكُلُهُ الدُّودُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْإِبْرَيْسِمُ، وَتَأْكُلُهُ النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر وَالْأَنْعَامُ فَتُلْقِيهِ بَعْرًا وَرَوَثًا، وَتَأْكُلُهُ الظِّبَاءُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمِسْكُ وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هَاهُنَا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا مَنْفَذٌ، ظَاهِرُهُ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَبَاطِنُهُ كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذا انْصَدَعَ جِدَارُهُ فَخَرَجَ

[1] – شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص 36)

مِنْهُ حَيَوَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذُو شَكْلٍ حَسَنٍ وَصَوْتٍ مَلِيحٍ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْبَيْضَةَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا الدَّجَاجَةُ. وَسُئِلَ أَبُو نواس عن ذلك فأنشد:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ** إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ** بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ** بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

فكل مخلوق له خالق وهذا موجود في فطر الناس ؛ وكَمَا أَجَابَ بِهِ الْأَعْرَابِيُّ الْأَصْمَعِيَّ عَنْ دَلِيلِ سُؤَالِهِ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَآثَرُ الْأَقْدَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ. [1]

أما المتكلمون : فقد سلكوا طرقا شتى لإثبات الربوبية ، قالوا مثلا : عندنا دليل الصانع . فما هو؟ قالوا لو كان للعالم صانعان فهذا يريد تحريك شيء وهذا يريد تسكينه ، وهذا يريد إماتته وهذا يريد إحياءه ، فإما أن يقع مراد أحدهما وإما أن يقع مرادهما جميعا وإما ألا يقع مرادهما جميعا ، فالأول ممتنع ، والثاني ممتنع لوجود النقيض ، والثالث أن يقع مراد أحدهما فسيكون هو الله الخالق ، والآخر لا يستحق الربوبية ، فما رأيك في هذا الكلام ؟

رأينا أنه صحيح من جهة المعني ، ولكن السؤال هو هل نحتاج لهذه الطريقة لإثبات وجود الله ؟ طبعا لا نحتاج إليه ، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" الْمَنْطِقَ الْيُونَانِيَّ لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الذَّكِيُّ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْبَلِيدُ " [2]

لا يحتاج إليه الذكي لأن عنده أدلة أخري ، هي في الظهور وقيام الحجة أبين وأوضح ، فلماذا نحتاج إلى مثل هذا الكلام ؟

---

[1] – معارج القبول (111/1)

[2] – مجموع الفتاوى (82/9)

والله سبحانه وتعالي قال (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).(الأنبياء–22) لو كان فيهما آلهة موجودة لفسدتا بعد الوجود.

وبالاستقراء يتبين لنا موقف الطوائف من توحيد الربوبية أن أكثر الناس يقرون به ظاهرا وباطنا ، ومنهم من يقر به باطنا وينكره ظاهرا مثل فرعون وقومه ، قال تعالى : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا).(النمل–14) وحتي الشيوعية ، منهم من يقرّ به ، ولكن يشركون مثل المجوس والنصاري .

هل توحيد الربوبية هو الغاية من معرفة التوحيد ؟

تحدثنا عن توحيد الربوبية وقلنا أن هذا التوحيد حق لا ريب فيه ولكن ليس هو غاية التوحيد ، وقد ذهب كثير من أهل النظر والكلام إلي اعتباره هو الغاية من التوحيد ، وهذه مشكلة الدعاة الذين يسافرون إلي الخارج فهم لا يعرفون من التوحيد إلا توحيد الربوبية فقط وأنه هو الذي دعت إليه الرسل وأُنزلت من أجله الكتب وهو معني لا إله إلا الله أي لا رب سواه ، وهذا خطأ من وجوه :–

أولا :– أن المشركين قد أقروا به فلم يُحكم لهم بالإسلام ، فلماذا قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم لو كانوا موحدين؟

ثانيا:– أنه أمر قد فطر عليه البشر ، فلو كان هو الغاية فما كان هناك فائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب .

ثالثا :– معني لا إله إلا الله ليس معناها أي لا رب إلا الله ، معناها لا معبود بحق إلا الله فالمسألة مسألة عبودية (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ). (يوسف–39) .

ولم يغفل أحد من الطوائف التي في العالم ميثاق توحيد الربوبية إلا شُذّاذ من البشر مثل الدهرية الذين أنكروا الرب والميعاد وقالوا إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ، وقد قال الله عنهم (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ). (الجاثية–24) ، وهؤلاء رد عليهم بقوله: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) حيث بنوا كلامهم علي ظن وجهل .

الطائفة الثانية يقولون: أن العالم وجد نتيجة الطبيعة ، ويفسرون الطبيعة بأحد أمرين: – وينبغي التركيز علي هذه الطائفة كثيرا –

الأول : أنها ذات الأشياء كالسماء والأرض والجبال !

هل هذه الكائنات هي التي أوجدت نفسها وأوجدت غيرها ؟ لا يمكن .

الثاني: قالوا إن خصائص الأشياء والتي هي الطبيعة كالبرودة والحرارة والقابليات من الحركة والسكون : هذه هي الطبيعة !

فهل هذه هي التي أوجدت نفسها وأوجدت غيرها ؟

ويلزم من التفسير الأول للطبيعة أن تكون هي الخالق والمخلوق ، فهل يعقل أن تكون الأرض هي التي خلقت الأرض والسماء هي التي خلقت السماء ؟ قال تعالي (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ). (الطور–35)، ثم هذه الأشياء كانت تفتقر للوجود أصلا فكيف تهب الوجود لغيرها ؟ فمعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه.

وأما التفسير الثاني للطبيعة وهو خصائص الأشياء فإنه باطل ، لأن الأشياء إن كانت عاجزة عن إيجاد نفسها فمن باب أولي فهي أعجز عن أن توجد خصائصها ، لأن الذات أقوي من الصفات ، والصفة تابعة للموصوف ، فكيف تخلق وهي تابعة له . ثم نقول إن المستقر في الفطر أن الأشياء قسمان خالق ومخلوق ، فكيف يكون الخالق والمخلوق معا ؟

هناك أناس منكرون للربوبية وهم القائلون بالصدفة ، كيف؟

قالوا : إن الكائنات وجدت عن طريق المصادفة ، بمعني أن تجمع الذوات والصفات عن طريق المصادفة أدي إلي ظهور الحياة بلا تدبير من خالق ، وكثير من علماء الغرب القائلين بنظرية المصادفة علي هذا المذهب ، وهي نظرية تدرس في الجامعات الأوروبية ، أن الكون حدث نتيجة انفجار عظيم ، وهم هناك يبحثون عن تاريخ الانفجار هذا متي حدث ؟ ويعملون نظريات بناء عليه ، ولذلك أي شخص يدرس كتب الغربيين في بلاد المسلمين يمكن أن يدرك الكفر الأكبر في كلامهم حينما يدرس هذه النظرية أن العالم وجد صدفة . وهذا كلام ترده العقول والفطر .

فإن هذا الكون المنظم في سماواته ومخلوقاته بهذه الدقة العجيبة كيف يمكن أن يكون وجد صدفة دون خالق قادر عليم؟

لابد من خالق مدبر حكيم خبير ، ونقول لهم مثال:

إذا قلنا إنه قد حدث انفجار في مكتبة مثلا ، فأدي إلي وجود مجلد مكون من فصول وأبواب وعناوين جانبية وكلام مرتب ، فهل ذلك ممكن ؟ هذا لا يقول به إلا مخبول مجنون ، والغريب أن يقول مثل هؤلاء الأذكياء من أهل الشهادات العليا عندهم مثل هذا الكلام التافه .

وكذلك ممن تجاهل توحيد الربوبية فرعون لعنه الله ، وتظاهر بإنكاره وكان متيقنا به في الباطن ولذلك قال موسى عليه السلام له ، كما أخبر الله تعالى : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا). (الإسراء–102)

ومن صفات الداعية الناجح أنه إذا علم بحقيقة ما في صدر من أمامه أن يواجهه به ، فموسي أوقف فرعون علي الشيء الذي ينكره (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرِ) ولكنهم كما قال الله: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ). (النمل–14)

والطوائف التي أشركت في الربوبية لم يقولوا بخالقين متماثلين ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ : مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا مُمَاثِلَ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ ؛ بَلْ مِنْ أَعْظَمِ ما نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثنوية الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ " النُّورِ " و " الظُّلْمَةِ " وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ وَالثَّانِي : أَنَّهَا قَدِيمَةٌ لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إلَّا الشَّرَّ فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصَفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ " [1]

فهؤلاء يشركون في الربوبية كالمجوس والنصارى والمنوية .

[1] – مجموع الفتاوى (96/3–97)

كما قال أبو عيسي الوراق وقد كان مجوسيا فأسلم وهو عالم بمذهبهم ، قال " المجوس قالوا بالأصلين النور والظلمة ، قالوا أن النور أزلي والظلمة حادثة " يعني هؤلاء المجوس يقولون بإلهين ، إله النور وإله الظلمة ، ومع ذلك يقولون أن إله النور أزلي وإله الظلمة حادث ، فلا يقولون بإلهين متساويين من جميع الجهات .

والثنوية أصحاب الإلهين الأزليين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس ، ولكن قالوا أنهما يختلفان في الجوهر والطبع والمكان والأرواح ، ويقولون بتماثلهما في الصفات والأفعال تماما .

والمنوية قالوا أن العالم مصنوع من أصلين قديمين ، ولكن قالوا باختلافهما في العقل والصورة والتدبير ، ووضع الشهرستاني جدولا لبيان الفرق عندهم بين النور والظلمة ، فهم بذلك يشركون في عقيدة الربوبية .

وبعض الذين نأتي بهم من العمالة والخدم والسائقين من المجوس أو المنوية أو الثنوية الذين يقولون بهذه المقالات فهم مشركون في الربوبية ، طبعا النصارى الذين يقولون بالتثليث لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضها عن بعض وإنما يتفقون علي أن صانع العالم واحد ويقولون عنه الأب والابن والروح القدس ، وأنه إله واحد ، واحد في الذات وثلاثة في الأقنوم ، والطوائف تارة يفسرونه بالذات وتارة يفسرونه بالصفات وهؤلاء متناقضون في أنفسهم ومضطربون في أفهامهم .

ما وجه إشراك القدرية في الربوبية ؟

القدرية يرون أن الإنسان يخلق أفعاله وأن الله عز وجل لا يخلق أفعال الإنسان ، وهذا معناه أننا صار عندنا خالقين بعدد أعمال الناس .

الفلاسفة الصابئة يعتقدون أن الكواكب والنجوم تخلق ، وكان منهم طائفة موجودة في العراق يسمون بعباد النجوم .

وكثير من مشركي العرب كانوا يعتقدون في آلهتهم أشياء من النفع والضر ، ما كانوا يقولون أن هبل يخلق ولكن يعتقدون أنه ينفع ويضر ، وهذا من وجه يعتبر شركا في الربوبية .

فليست مشكلة مشركي العرب فقط الشرك في الألوهية ، حتى في الربوبية، كان عندهم مصائب لأننا قلنا أن توحيد الربوبية هو توحيد الله في أفعال الله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة والمطر ، فإن قال أحدهم أن هذا الصنم ينفع ويضر فهذا متعلق بشرك الربوبية .

وأما غلاة الصوفية : فيقولون بأن الأولياء يضرون وينفعون ويتصرفون في الكون ، ويعتقد بعض الصوفية أن الأولياء يجتمعون في غار حراء ليلة السابع والعشرين من رمضان مع القطب الأعظم والغوث الأكبر ، وطبعا التيجانية يقولون أنه أحمد التيجاني ، والرفاعية يقولون أنه أحمد الرفاعي ، وأنهم يدبرون أحوال السموات والأرض ويوزعون أرزاق الخلق في تلك السنة ، فهذا شرك في الربوبية .

وأما الروافض : فيقولون إن الدنيا والآخرة للإمام المعصوم يضعهما يكف يشاء ، ويعتقدون أن تراب الحسين شفاء من كل داء وأمان من كل خوف ، وإبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء يقول (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ). (الشعراء–80:78). فالشفاء من الله وحده ، فدخلوا في شرك الربوبية .

ولما انتشر شرك الربوبية بيّن الله تعالي للناس بطلانه فقال (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ). (المؤمنون–91).

النوع الثاني من التوحيد هو توحيد الألوهية :

وهو مشتق من كلمة الإله وهو المعبود المطاع ويطلق علي المعبود بحق (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).(البقرة–255) ، ويطلق علي المعبود بالباطل أيضا (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ). (الجاثية–23) ولكن غلب استعماله علي الحق .

فإن قلت عرف الإله ؟ فنقول هو من تألهه القلوب حبا وتعظيما وإجلالا، وعرف العلماء توحيد الألوهية بتعريفات متقاربة فمنها:

قالوا هو إفراد الله بأفعال العباد ، وقالوا هو إفراد الله بالعبادة ، وقالوا هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولا وعملا ، ومن أدلة هذا قول الله عز وجل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ).(النحل-36) .

والعبادة تطلق علي أمرين : تطلق علي الفعل وتطلق علي المفعول .

فالعبادة تطلق علي الفعل الذي هو ذات التعبد ، فيقولون : العبادة هي طاعة الله تعالي بفعل المأمور وترك المحظور.

كما تطلق العبادة أيضا علي المفعول أي المتعبد به ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" الْعِبَادَةُ " هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ؛ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ. وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ. وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ} وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ " [1]

فإذا أخذنا الصلاة وطبقنا عليها التعريفين ففعل الصلاة عبادة وهو تعبد ، نفس الصلاة عبادة وهو المتعبد به ، القيام في الصلاة فعل الصلاة عبادة وهو التعبد ، وعلي المعني الثاني الصلاة نفسها عبادة وهو المتعبد به .

فقد أخطأ أهل الكلام حينما قالوا أن الإله هو القادر علي الاختراع والإيجاد ، فالأشعري يعرف الإله بأنه هو القادر علي الاختراع والإيجاد ويقول : معني لا إله إلا الله أي لا قادر علي الاختراع إلا الله ، وهذا خطأ من وجهين :-

[1] - مجموع الفتاوى (10/149-150)

أولا : أن الإله لم يأت في لغة العرب ولا في كتاب الله بمعني المخترِع ولم يقل أحد من أئمة اللغة المعروفين أن الإله هو القادر علي الاختراع ، وإنما أتى القرآن بالإله بمعني المعبود بحق أو المعبود بالباطل .

ثانيا: أن المشركين كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض وأنه لا يقدر علي الخلق والإحياء والإماتة إلا الله { ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله } .[25 لقمان] ومع ذلك لم يصيروا موحدين بل كانوا مشركين ، فإن قلت لي إن تعريف الإله أنه هو القادر علي الاختراع ، فالمشركون كانوا يقرون أنه هو الرب القادر علي الاختراع ، فماذا فعلنا ؟

ويطلق علي توحيد الألوهية أحيانا توحيد العبادة باعتبار إضافته للعبد ، ويطلق عليه توحيد الألوهية باعتبار إضافته إلي الله ، ويطلق عليه توحيد الإرادة والقصد لأنه يتضمن توحيد الإخلاص ، ويطلق عليه التوحيد الطلبي لأنه يتضمن الدعاء والطلب من الله ، ويطلق عليه التوحيد العملي لتضمنه أفعال العباد وأعمال القلوب والجوارح للعباد . فكل ما فات مقصوده واحد، هو توحيد الألوهية.

ما هي العبادة ؟

في لغة العرب: هي الذل والخضوع ، فيقال: بعير مُعبّد أي مذلل ، وطريق معبد أي مذلل ووطئته الأقدام .

أما تعريف العبادة شرعا فقد تقدم تعريفها .

والعبادة لها ركنان :- فالأول هو كمال الحب الذي هو غايته ومنتهاه .

فغاية العبودية الحب ولا يكون إلا لله وحده فإنه وحده هو المحبوب لذاته وما سواه فلا يحب إلا لعلل وأغراض ، يعني لو قلت لي أنا أحب فلانا وأحب هذا الطعام فأنت تحبه لعلل وأغراض ، لكن الذي يُحَب لذاته فقط هو الله عز وجل (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). (البقرة–165) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ

إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[1] هذا هو الركن الأول .

الركن الثاني للعبودية: هو الذل والخضوع لله والمراد به غايته ومنتهاه يعني غاية الذل والخضوع ، مثل المحبة فإننا لا نقصد أول درجات المحبة وإنما نقصد غاية المحبة ومنتهاها ، وإن قلنا أن العبودية ركنها الثاني الذل والخضوع فإننا نقصد غاية الذل والخضوع ومنتهاه وهذا لا يكون إلا لله عز وجل ، فمنتهي الذل والخضوع ومنتهي الحب لا يمكن صرفه إلا لله .

ولذلك فالمؤمن لا يقدم شيئا علي الله ، فإن تعارض مراده مع مراد الله قدم مراد الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). (النساء–65)

بعض العلماء يجعل العبادة أربعة أقسام :– الحب والخوف والتعظيم والرجاء، ولكن لا تعارض . لماذا ؟ لأن الرجاء ناشئ من الحب والخوف ناشئ من التعظيم فلا تعارض .

وهنا مسألة : لو قال أحدهم أيهما أفضل ، الخوف الذي نشأ من التعظيم أم الرجاء الذي نشأ من الحب ؟ وأيهما يُغَلَّب ؟ يعني هل نغلب علي أحوالنا الخوف أم الرجاء ؟

قيل : ينبغي للمرء أن يغلب جانب الخوف ليحمله علي فعل الطاعة وترك المعصية ، يعني يذكر نفسه دائما بالخوف من الله ووعيد الله .

وقيل : في فعل الطاعات يغلب جانب الرجاء لينبعث علي العمل ، وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف لأجل أن يمنعه ذلك من المعصية .

وقيل : يغلب جانب الرجاء ليكون متفائلا بعكس الأول والنبي صلي الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل .

وقيل : يغلب جانب الخوف في الصحة وجانب الرجاء في المرض.

وقيل : هما كجناحي طائر فالمؤمن يسير إلي الله بجناحين هما الخوف والرجاء فإذا استويا تم طيرانه وإذا ذهب أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا جميعا هلك الطائر.

---

[1] – متفق عليه

وقيل : تختلف المسألة باختلاف حال الأشخاص والأحوال ، ولذلك بعض العلماء يقول إن كان في حال الطاعة يغلب الرجاء لتقبل ، وإن كان في حال المعصية يغلب الخوف لكي يتوب وفي حال نزول الموت يغلب الرجاء ليحسن ظنه بالله تعالي ، ولذلك قالوا يختلف باختلاف الأحوال أما اختلافه باختلاف الأشخاص فمشاهد ، يعني هناك أناس إن كلمتهم عن الرجاء اندفعوا للعمل فهم عباد ليست المعاصي من همتهم ولا من حالهم فيحتاجون إلي التشجيع ليزيدوا في العبادة ، يحتسبون أجرها ويرجون رحمة الله ، وهناك أناس عصاة إذا ما أكثرت عليهم في الوعيد وذكر النار فربما لا ينزجرون .

وقال ابن القيم رحمه الله :

" الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى فُقِدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ، وَلَكِنَّ السَّلَفَ اسْتَحَبُّوا أَنْ يَقْوَى فِي الصِّحَّةِ جَنَاحُ الْخَوْفِ عَلَى جَنَاحِ الرَّجَاءِ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا يَقْوَى جَنَاحُ الرَّجَاءِ عَلَى جَنَاحِ الْخَوْفِ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِ، قَالَ: يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفَ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَسَدَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ: اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَغَلَبَةُ الْحُبِّ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ. وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ "[1] .

أما شروط العبادة فهي ثلاثة شروط :

أولا : صحة العزيمة ومعناه ترك التواني والتكاسل في امتثال الأمر والنهي وبذل الجهد لكي يكون فعله مصدقا لقوله ؛ كما قال تعالي (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ). (الصف–2) .

ثانيا : إخلاص النية لله تعالي وتجريدها مما سواه بألا يعبد إلا الله ولا يخضع إلا له فيكون عمله كله لله كما قال تعالي : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام–162) . وقال : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ). (البينة–5)

[1] – مدارج السالكين (513/1)

ثالثا : موافقة الشرع بأن تكون الأعمال الظاهرة والباطنة موافقة لما أمر الله به ورسوله ، قال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ).(الشورى–21).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)[1]

فإن قال قائل: نحن نعرف أن للعبادة شرطين: وهما الإخلاص والمتابعة.

نقول نحن قد ذكرناهما فهذان الشرطان للقبول ، أما الأول الذي ذكرناه وهو صدق العزيمة فهو للوجود .

فالشرط الأول لوجود العبادة، والشرطان الآخران لقبول العبادة.

الأصول التي تقوم عليها العبادة :

الأصل الأول: وهو المحبة . محبة الله ورسوله المتضمنة تقديم أوامر الله ورسوله علي مراد النفس وتقديم مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي مراد نفسك وعلي ما سواهما عموما ، ولا بد للعبد فيهما من ثلاث مقامات .

الأول : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فلا يكفي أصل الحب ولا مبتدأ الحب بل لابد من غاية الحب ومنتهاه (هذه مهمة) لأن من يصل فقط إلي أول الحب فأول الحب لا يقدم كل شيء ولذلك تجده يعمل المعاصي فإذا وصل الإنسان بالمجاهدة إلي أن يجعل حب الله مقدما على كل شيء آخر ، فإن جاءه داعي المعصية لم يقع فيها لأن محبة الله أكثر من محبة الشهوات عنده .

الثاني: التفريق: وهو أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ويفرق بين ما يحبه لله وما يحبه لغير الله ، وبين ما يكرهه لله وما يكرهه لغير الله ، من جهة أخري أن يتبين له التفريق: ما هو الذي يحبه الله وما هو الذي يكرهه ؟ هذا هو الأهم لأن عددا من الناس يقول أنا أحب الله وهو لا يدري ما الذي يحبه الله وما الذي يكرهه الله ، مِن جهله لا يدري فلا يستطيع التفريق .

فإذاً في المحبة لابد أن نفرق بين ما يحبه الله وما يكرهه الله عز وجل من الأقوال والأفعال.

[1] – متفق عليه

ثالثا: مقام دفع الضد ، أن تكره أن ترجع إلي الكفر بعد إذ أنقذك الله منه كما تكره أن تلقي في النار.

الأصل الثاني: وهو الخوف: ونقول أيضا يراد منه غايته وكماله فلا يكفي أن يخاف الله خوفا ضعيفا ، أو أول درجات الخوف، بل لابد أن يصل إلي غاية الخوف ونهايته بحيث لا يخاف من أي شيء آخر كائنا من كان أعظم من خوفه من الله (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). (آل عمران–175).

وضد الخوف من الله هو الأمن من مكر الله (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ). (الأعراف–99). وكذلك أثنى الله علي أنبيائه أنهم كانوا يخافونه : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).(الأنبياء–90). وإذا نقص الخوف في نفس العبد فذلك لنقص معرفته بالله فإن أعرف الناس بالله هم أخشاهم له وأخوفهم منه سبحانه وتعالي وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ) [1] ، وفي رواية : (وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ)[2]

ينشأ الخوف من الله من ثلاثة أشياء:–

1–معرفة العبد بجنايته وخبثها وتقصيره في حق ربه .

2–تصديقه وإيمانه بوعيد الله وعذابه وأن الله رتب العقوبات علي المعاصي .

3–أن يعلم أنه لربما حيل بينه وبين التوبة .

وبحسب قوة هذه الأشياء تكون قوة الخوف وضعفه ، والخوف يوجب الهروب من الله والسكون إليه ولذلك فهو مقرون بحلاوة وطمأنينة وسكينة ، بخلاف الخوف من العباد ، فكل واحد إذا خفته هربت منه إلا الله فإنك إذا خفته هربت إليه ؛ كما قال تعالى {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: 50] . وهذه ميزة عظيمة ، فأي شيء تخاف منه تهرب منه فإن خفت من أفعى أو عقرب مثلا

---

[1] – متفق عليه ، واللفظ لمسلم (1108)

[2] – رواه أحمد (23798) وإسناده صحيح

تهرب منه ، إلا الله عز وجل فإنك إن خفته هربت إليه ، فإلي أين تهرب منه إلا إليه ؟ لا ملجأ ولا منجى منه سبحانه إلا إليه .

فإن قال قائل : فما هو الفرق بين الخوف والحب ؟

فالجواب أن متعلق الحب هو الذات والصفات وأما الخوف فإنه متعلق بذنب العبد وعقوبة الله . ولا شك أن لله أسماء وصفات تخوف العبد مثل الجبار ، وأنه شديد العقاب ، وأنه عزيز ذو انتقام .

أما بالنسبة للحب فإنه متعلق أكثر بالذات والصفات.

والحب سببه الكمال ، والخوف سببه توقع المكروه .

الأصل الثالث: الرجاء.

فالبعض يقول : العبودية ثلاث مقامات وهي المحبة والخوف والرجاء

، والمسألة واسعة فبعضها يؤدي إلي بعض ، لكن أحيانا يكون الفرع كبيرا فتضطر أن تفصله ويكون مستقلا ، أو لأهميته مثلا.

فالرجاء متفرع من المحبة ، والخوف متفرع من التعظيم ، فبعضهم قال محبة وتعظيم وبعضهم قال محبة وخوف وتعظيم ، ولو قال أحدهم أن السائر إلي الله كالطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه ، فلا بأس .

فأما الرجاء فهو طلب ما عند الله من غير يأس ولا قنوط ، والمطلوب في الرجاء أيضا غايته ونهايته .

هل يجوز أن ترجو من المخلوق شيئا ؟

نعم يجوز ، لكن لا يجوز أن تجعل أقصي درجات الرجاء للمخلوق فهذا لا يكون إلا لله، وهذا قد يفهمنا ما هو الرجاء الشركي والرجاء الجائز ، وما هو الخوف الشركي والخوف الجائز ، وما هو الحب الشركي والحب الجائز ، فأقصي الدرجات لو صارت لغير الله صار شركا (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ). (الأنبياء–90) ، (رغبا) هو الرجاء أي رجاء ما عند الله ، إذ كل نعمة فهو معطيها .

ما هو ضد الرجاء ؟

اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ). (الحجر56) .

بأي شئ يحصل الرجاء ؟

أولا: يحصل بأن تشهد كرمه وإحسانه وإنعامه علي عباده فإن شهدت كل ذلك يحصل لك من الرجاء ما شاء الله منه .

ثانيا : صدق الرغبة فيما عنده من الثواب والنعيم ، وكلما كان عندنا علم بتفاصيل ما في الجنة وتفاصيل الثواب ازداد رجاؤنا .

ثالثا: التسلح بصالح الأعمال والمسابقة في الخيرات ، من الذي يتحقق له الرجاء ؟ الذي عنده رصيد يرجو عليه أجرا وثوابا ، أما من لا يملك حسنات فعلي أي شيء يرجو ؟ فلابد من بذل أسباب يرجو العبد بها فضل الله ، ولا بد من عمل طاعات يرجو لها القبول ومضاعفة الأجر.

ولابد من اجتماع ذلك كله في قلب العبد : الخوف والحب والرجاء ، لأن الاختلال يولد شيئا خطيرا ، فلو أن أحدا عبد بالحب فقط فهو زنديق فقال أنا فقط أحبه ولا أخافه ولا أرجوه .

والذي يعبد الله بالخوف وحده فهو من الخوارج .

والذي يعبده بالرجاء وحده فهو مرجئ أو من المتواكلين ، فلا يمكن أن يكون هناك عبادة صحيحة إلا بهذه الثلاثة مجتمعات ، قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حروري وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَجْرِيدَ الْحُبِّ وَالذِّكْرِ عَنْ الْخَوْفِ يُوقِعُ فِي هَذِهِ الْمَعَاطِبِ فَإِذَا اقْتَرَنَ بِالْخَوْفِ جَمْعُهُ عَلَى الطَّرِيقِ وَرَدُّهُ إلَيْهَا كُلَّمَا كَلَّهَا شَيْءٌ كَالْخَائِفِ الَّذِي مَعَهُ سَوْطٌ يَضْرِبُ بِهِ مَطِيَّتَهُ؛ لِئَلَّا تَخْرُجَ عَنْ الطَّرِيقِ. وَالرَّجَا حَادٍ يَحْدُوهَا يَطْلُبُ لَهَا السَّيْرَ وَالْحُبُّ قَائِدُهَا وَزِمَامُهَا الَّذِي يُشَوِّقُهَا فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَطِيَّةِ سَوْطٌ وَلَا عَصًا يَرُدُّهَا إذَا حَادَتْ عَنْ الطَّرِيقِ خَرَجَتْ عَنْ الطَّرِيقِ وَضَلَّتْ عَنْهَا. فَمَا حَفِظَتْ حُدُودَ اللَّهِ

وَمَحَارِمَهُ وَوَصَلَ الْوَاصِلُونَ إلَيْهِ بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَسَدَ فَسَادًا لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ ضَعُفَ إيمَانُهُ بِحَسَبِهِ " [1]

والعبادات تنقسم إلي أربعة أنواع :-

أولا . العبادات القلبية وهي التي ترجع إلي عمل القلب وحده وتعتبر أساسا لما وراءها من العبادات القولية والعملية .

ثانيا. العبادات القولية وهي التي تتعلق باللسان وهي كثيرة جدا مثل التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والدعاء ونحو ذلك .

ثالثا. العبادات البدنية وهي التي تتعلق بالجوارح كالصلاة والصيام والحج ونحو ذلك .

رابعا. العبادات المالية وهي التي نعبد الله بها في أموالنا كالزكاة والصدقات والذبائح .

قدر توحيد العبودية.

1-هو أعظم نعمة أنعم الله بها علي عباده والله جعل نعمة التوحيد فوق كل نعمة (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ).(النحل-2).

2-هو الغاية من خلق الجن والإنس (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). (الذاريات-56) .

3-هو الغاية من إنزال الكتب (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ). (هود-2).

4-هو أول واجب بعث الله به الرسل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).(النحل-36).

5-هو أول واجب علي المكلف نفسه .

6-هو السبب الأعظم لتفريج الكربات .

7-من حققه دخل الجنة بغير عذاب .

8-يمنع من الخلود في النار ، وهذه فائدة عظيمة.

9- جميع الأعمال متوقفة في القبول علي التوحيد .

[1] - مجموع الفتاوى (21/15)

10- أن الشارع احتاط له أعظم الحيطة في الأقوال والأفعال وجعل الوسائل إليه محفوظة ، لماذا حرم الشارع الحلف بغير الله وحرم الرياء والطيرة وبناء المساجد علي القبور ؟ سدا لطرق الشرك ، وكذلك السجود لغير الله حتى سجود التحية كان في شرع يوسف عليه السلام مسموح في شرعتهم به فأصبح ممنوعا في شرعتنا ، وهذه الشريعة أكمل الشرائع ولذلك سدت فيها كل الطرق الموصلة للشرك .

وقد جاء القرآن في تحقيق توحيد الألوهية بأساليب كثيرة فمن ذلك :

1-الاستدلال بالمقدمات عليه ومن أمثلة ذلك : توحيد الربوبية من المقدمات الضرورية المتفق عليها والتي تؤدي إلي توحيد الألوهية (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ). (النحل-17) ، وقلنا لا يمكن لشخص أن يوحد توحيد الألوهية إلا إذا كان مقرا بتوحيد الربوبية . يعني لو أن واحدا أفرد الله بالإحياء والإماتة والرزق والبعث ، وإنزال المطر والنفع والضر إذا أفرد الله بكل ذلك واعتقد أنه هو المحي المميت المبدئ المعيد الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ماذا يجب له بذلك ؟ الذي بعد ذلك أن يعبده ضرورة ولا بد ، وهكذا جاءت الآيات من كتاب الله في ذكر ربوبيته ومنته علي عباده حتى يعرفوا أنه لابد من عبادته وحده فقرر الله توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية وأعطانا مقدمات من توحيد الربوبية توصل إلي توحيد الألوهية .

2- الأقيسة الإضمارية ، الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات مثال (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).(آل عمران-59)) هذه الآية فيها دليل قوي في مسألة مهمة في الرد علي النصارى ، ما هي المقدمات في هذه الآية ؟ (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ).(آل عمران-59) فسننطلق من مقدمة ثم نأتي بعدها بنتيجة . فما هي المقدمة ؟ إن المقدمة هي إثبات مماثلة آدم لعيسي ، فمثل عيسي عند الله كمثل آدم خلقه من غير أب كما خلق آدم فلو كان عيسي ابنا لله لكان آدم ابنا لله من باب أولي وبما أنكم لا تقولون أن آدم ابنا لله إذا عيسي ليس ابنا لله .

طريقة أخري في الإقناع :

قال تعالى : (كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ). (الأنبياء-22) فيه الآن الشيء الممتنع ، وهو وجود أكثر من إله ، ماذا أبطل ؟ أبطل النقيض .

والمطلوب هو التوحيد أن الله واحد ، والنقيض أن هناك أكثر من إله ، فمن طرق الإثبات والإقناع لتوحيد الألوهية أنك إذا أبطلت أن هناك أكثر من إله إذاً لقد أبطلت أن هناك اثنين أو عشرة أو مائة ، فيثبت تلقائيا أن الله واحد ، لا شريك له ؛ إذ لو كان هناك أكثر من إله لكان كل إله يقول أنا أحرك كذا وأنا أسكن كذا ، وأنا أميت هذا وأنا أحي هذا ، أصبح لا يمكن أن تستمر الأمور في سائر الأكوان العلوية والسفلية ، بل تتعطل وتزول ، إذاً وجود أكثر من إله لا يمكن بأي حال ، وعليه : فلا يكون إلا إله واحد ، لو كان هناك أكثر من إله لتعارضت الرغبات ولتوالت المشكلات ولفسدت الأرض والسموات .

وقد سلك القرآن كذلك في إثبات توحيد الألوهية أيضا الأسلوب القصصي ، وهو من أساليبه العظيمة في الإقناع والتأثير ، وقد جاء في ذلك عدد منها في القرآن الكريم ، مثل قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وهي واضحة جدا في إثبات توحيد الألوهية ، وهذا من أسلوب التشويق والجذب للأفهام ، وقد يكون أكثر تأثيرا في القلوب .

وقد أمر الله سبحانه وتعالي أيضا بعبادته وترك عبادة ما سواه (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).(النساء-36) وهو كذلك أخبر أنه أرسل جميع الرسل بتوحيد الألوهية كما تقدم وأنه خلق الخلق لعبادته.

والاستدلال علي وجوب عبادته سبحانه في انفراده بصفات الكمال ؛ كما في قوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا). (مريم-65).(هل تعلم له سميا) فإنه لا سمي له ولا نظير ولا شبيه ولا أحد مثله في أسمائه وصفاته ، فهل يستحق أحد أن يعبد غيره ؟ أبدا .

فهذه إحدى طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية .

وكذلك تعجيز آلهة المشركين (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ). (سبأ-22) ، (قَالَ بَلْ

فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ).(الأنبياء–63) فتعجيز الألهة الأخري تقرير لتوحيد الألوهية ، ومنها تكفير المشركين الذين عبدوا غير الله (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) .

ومن الأساليب كذلك: بيان عاقبة المشركين الذين يشركون في توحيد الألوهية (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ). (البقرة–165).

فصار البيان القرآني لتوحيد العبادة متضمنا الدليل العقلي والنقلي الشرعي والفطري والقياسي والتنظيري ؛ لتقوم الحجة البالغة لله تعالى على عباده .

ولابد أن ننظر إلى القضايا المعاصرة نظرة صحيحة من جهة العقيدة التي يجب أن لا نخالفها ؛ لأنها أصل الدين وعنوان الملة ، ولا ننساق وراء الشعارات المخالفة والمقالات الزائفة والاتجاهات المعاكسة .

فبعض هؤلاء ممن يرى أن التوحيد هو مجرد الإيمان بوجود الله ، يرى أنه لا داعي إطلاقا لإقامة النزاع والخلاف مع من يستغيث بغير الله ويلجأ إليه في الملمات والكربات ؛ لأن هذه أشياء أخرى غير التوحيد – على حد زعمه وعلمه – .

وكذلك في قضية تقارب الأديان ، بعض المسلمين يجد لها مساغا لتوحيد الأمة وعدم انشقاقها وتصدعها – بزعمه – ، ويقول : تعالوا نجتمع على ما اتفقنا عليه ودعونا مما اختلفنا فيه !

وبعضهم يقول : الكل يقول لا إله إلا الله ، الروافض والخوارج والمعتزلة والجهمية والقدرية والصوفية ، وغيرهم من طوائف المسلمين ، فلا داعي لمزيد الخلاف والشقاق بين المسلمين ؛ حيث اتفقوا على كلمة سواء وهي كلمة التوحيد !

ما الذي نجتمع عليه وعلي ماذا نتفق ، إذا اختلفنا في أصول العقيدة وفي التوحيد ؟!

ونحن نؤكد علي هذه النقطة كثيرا لأن هناك انحرافا في الدعوة وانحرافا في التطبيق والفهم وانحرافا في النصائح ، فالله سبحانه وتعالي لما أنزل التوحيد يجب أن يطبق من جميع الجوانب . نجتمع علي توحيد الربوبية ونختلف علي توحيد الألوهية والأسماء والصفات !! هذا كلام لا قيمة له ، ولا يمكن تطبيقه .

كيف نوحد الله في نوع واحد ونشرك في الأنواع الأخرى ؟ ! هذا توحيد ، وهو أساس العمل وأساس الحياة ، لاحظ كثرة الدلائل علي توحيد الألوهية وكثرة الآيات المتضمنة لتوحيد الألوهية والأحاديث عن النبي صلي الله عليه وسلم ، والجهاد الذي قام به المسلمون في الصدر الأول كان أساسه توحيد الألوهية ، وهؤلاء يريدون اليوم أن يقولوا توحيد الألوهية أي نتفق علي توحيد الربوبية نجتمع علي توحيد الربوبية ، ومعني الربوبية أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وأن الله هو الذي خلق الوجود ، فلا مخترع إلا الله وهذا تعريف لا إله إلا الله عندهم ، وهذه كارثة كبيرة جدا .

قد تأتي كلمة رب متضمنة لبعض معاني الألوهية كقول الشاعر لما رأي ثعلبانا يبول علي الصنم الذي كان يحرثه فقال

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ** قد ذل من بالت عليه الثعالبُ

هذا الأعرابي لما رأي بول الثعلبان علي الصنم فهو يعلم أنه ليس ربا ولا يقصد أنه الخالق ، فالشاعر أراد بعض معاني الربوبية بدليل بول الثعلب عليه وأنه كان يحرثه .

وأحيانا يأتي اقتران بينهما كقوله تعالي (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). (الفاتحة–5)

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" وَهَذَا الْبَابُ يَكُونُ تَارَةً مَعَ كَوْنِ أَحَدِهِمَا بَعْضَ الْآخَرِ فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ تَخْصِيصًا لَهُ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ مَطْلُوبًا بِالْمَعْنَى الْعَامِّ وَالْمَعْنَى الْخَاصِّ وَتَارَةً تَكُونُ دِلَالَةُ الِاسْمِ تَتَنَوَّعُ بِحَالِ الِانْفِرَادِ وَالِاقْتِرَانِ فَإِذَا أُفْرِدَ عَمَّ وَإِذَا قُرِنَ بِغَيْرِهِ خَصَّ كَاسْمِ " الْفَقِيرِ " و " الْمِسْكِينِ " لَمَّا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} وَقَوْلِهِ: {فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ} دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ. وَلَمَّا قُرِنَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: {إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} صَارَا نَوْعَيْنِ "[1] .

يمكن أحيانا أن نفهم اجتماع التوحيدين كاجتماع الإسلام والإيمان ، إذا اجتمعت الألوهية والربوبية في نص واحد فإن الألوهية فعل العبد والربوبية فعل الرب ، قال ابن سعدي رحمه الله :

[1] – مجموع الفتاوى (10/174–175)

" الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم " [1].

فإذا اجتمع في نص واحد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فإننا نشير لتوحيد الألوهية بفعل العبد وتوحيد الربوبية بفعل الرب .

وختاما : فإن من الفروق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ما يلي :

أولا : الاختلاف في الاشتقاق فالربوبية مشتقة من لفظ الرب ، والألوهية مشتقة من لفظ الإله .

ثانيا: أن متعلق الربوبية الأمور الكونية مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ومتعلق توحيد الألوهية هي الأوامر والنواهي علي المكلفين من العباد .

ثالثا: أن توحيد الربوبية قد أقر بأصله المشركون علي الأقل في الجملة لأن عندهم في توحيد الربوبية مصائب ، لكن اقروا به في الجملة .

لكن توحيد الألوهية رفضوه ، قال الله تعالى عنهم : {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص: 5]

رابعا: أن توحيد الربوبية مدلوله علمي أما توحيد الألوهية فمدلوله عملي في أعمال الجوارح.

خامسا: أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية .

سادسا: أن توحيد الربوبية لا يدخل من آمن به بمجرد الإيمان بأصله في الإسلام ، فلو جاء شخص وقال أنا نصراني لكني أؤمن أنه هناك إله خلق هذا الكون ، فهل صار ذلك النصراني مسلما ؟ كلا ؛ لأن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي ليكون الشخص مسلما . فلا يدخل في الإسلام من يؤمن بالربوبية فقط ولكن إذا أقر وعمل بتوحيد الألوهية دخل في الإسلام .

سابعا: توحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله، وتوحيد الألوهية توحيد الله بأفعال العباد كالصلاة والزكاة وغيرها .

توحيد الأسماء والصفات

---

[1] – القواعد الحسان (ص9)

مِن نعم الله تعالى أنه قد نص علي توحيده وأمر به في كتابه وجمع بين أنواعه في سورتي الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). والكافرون (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) فقل هو الله أحد تتضمن توحيده العلمي الخبري ، وقل يا أيها الكافرون تتضمن وجوب عبادته وحده لا شريك له والتخلي عن كل ما سواه ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر ، والنبي صلي الله عليه وسلم كان يقرأ بهاتين السورتين في سُنة المغرب وسنة الفجر[1]؛ ليكون مبدأ النهار وخاتمته توحيدا يشمل توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

أما توحيد الأسماء والصفات فإنه أشوق العلوم وأهمها علي الإطلاق فإن شرف العلم تابع لشرف معلومه ، ومن أدلة وجوده وبراهينه مع شدة الحاجة إلي معرفته فإن أجل معلوم وأشرفه وأعظم معلوم هو الله عز وجل الذي لا إله إلا هو ، قال ابن القيم رحمه الله :

" وَلَا ريب ان أجلّ مَعْلُوم وأعظمه وأكبره هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ رب الْعَالمين وقيوم السَّمَوَات والارضين الْملك الْحق الْمُبين الْمَوْصُوف بالكمال كُله المنزه عَن كل عيب وَنقص وَعَن كل تَمْثِيل وتشبيه فِي كَمَاله وَلَا ريب ان الْعلم بِهِ وباسمائه وَصِفَاته وافعاله اجل الْعُلُوم وأفضلها ، وكما ان الْعلم بِهِ اجل الْعُلُوم وأشرفها فَهُوَ أصلها كلهَا كَمَا أن كل مَوْجُود فَهُوَ مُسْتَند فِي وجوده إِلَى الْملك الْحق الْمُبين ومفتقر إليه فِي تحقق ذَاته ، وكل علم فَهُوَ تَابع للْعلم بِهِ مفتقر فِي تحقق ذَاته اليه فالعلم بِهِ أصل كل علم كَمَا أنه سُبْحَانَهُ رب كل شَيْء ومليكه وموجده .

وَلَا ريب ان كَمَال الْعلم بِالسَّبَبِ التَّام وَكَونه سَببا يسْتَلْزم الْعلم بمسببه كَمَا ان الْعلم بِالْعِلَّةِ التَّامَّة وَمَعْرِفَة كَونهَا عِلّة يسْتَلْزم الْعلم بمعلوله وكل مَوْجُود سوى الله فَهُوَ مُسْتَند فِي وجوده اليه استناد الْمَصْنُوع إِلَى صانعه وَالْمَفْعُول الى فَاعله .

فالعلم بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاته وأفعاله يسْتَلْزم الْعلم بِمَا سواهُ فَهُوَ فِي ذَاته رب كل شَيْء ومليكه وَالْعلم بِهِ اصل كل علم ومنشؤه فَمن عرف الله عرف مَا سواهُ وَمن جهل ربه فَهُوَ لما سواهُ اجهل قَالَ تَعَالَى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فَتَأمل هَذِه الاية تَجِد تحتهَا معنى شريفا عَظِيما وَهُوَ ان من نسى ربه انساه ذَاته وَنَفسه فَلم يعرف حَقِيقَته وَلَا مَصَالِحه بل نسى مَا بِهِ

---

[1] – رواه الترمذي (431) وصححه الألباني في صحيح الترمذي

صَلَاحه وفلاحه فِي معاشه ومعاده فَصَارَ معطلا مهملا بِمَنْزِلَة الأنعام السائبة بل رُبمَا كَانَت الانعام أخبر بمصالحها مِنْهُ . وَأما هَذَا فَخرج عَن فطرته الَّتِي خلق عَلَيْهَا فنسى ربه فأنساه نَفسه وصفاتها وَمَا تكمل بِهِ وتزكو به وتسعد بِهِ فِي معاشها ومعادها قَالَ الله تَعَالَى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف: 28] . فَغَفَلَ عَن ذكر ربه فانفرط عَلَيْهِ امْرَهْ وَقَلبه فَلَا الْتِفَات لَهُ إِلَى مَصَالِحه وكماله وَمَا تزكو بِهِ نَفسه وَقَلبه بل هُوَ مشتت الْقلب مضيعه مفرط الامر حيران لا يهتدي سَبِيلا .

وَالْمَقْصُود ان الْعلم بِاللَّه أصل كل علم وَهُوَ اصل علم العَبْد بسعادته وكماله ومصالح دُنْيَاهُ وآخرته ، وَالْجهل بِهِ مُسْتَلْزم للْجَهْل بِنَفسِهِ ومصالحها وكمالها وَمَا تزكو بِهِ وتفلح بِهِ فالعلم بِهِ سَعَادَة العَبْد وَالْجهل بِهِ أصل شقاوته "[1] .

وقال الله تعالي (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا). (الطلاق–12)

فأخبر سبحانه وتعالي أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهذا العلم هو غاية الخلق والأمر .

فلو قال شخص : عرفنا أننا خُلقنا لتوحيد الألوهية (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). (الذاريات–56) فهل أيضا الغاية من الخلق معرفته عز وجل بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ؟ نقول نعم ، فإن قال ما هو الدليل ؟ قلنا قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

فخلق الله الخلق لأجل أنواع التوحيد الثلاثة ، فلابد أن نعرف الرب سبحانه وتعالي بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه كما أنه ينبغي أن يعبد بموجبها ومقتضاها .

فكما أن عبادته مطلوبة ومرادة لذاتها فكذلك العلم به والمعرفة به مطلوب ومراد . فالله يريد أن نعرفه ونعرف أسماءه وصفاته وأن يُتعبد بمعرفة أفعاله وأحكامه وأن يتعبد بموجبها ومقتضاها .

---

[1] – مفتاح دار السعادة (86/1)

فتوحيد الأسماء والصفات هو أصل العلوم الدينية كما أن العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها في أصلها كله ، وكل علم تابع له ومفتقر إليه فالعلم به أصل كل علم ومنشؤه .

لأن من عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو عن سواه أجهل .

ولذلك كان أصل علم السلف وعملهم هو أولا– العلم بالله . ثانيا – العمل لله .

هذان الأمران هما خلاصة ما يعمله الإنسان في الدنيا كلها .

فجمع السلف بين التطبيق العلمي والتطبيق العملي .

أما المتكلمة والمتصوفة فغالب كلامهم في إثبات واعتقاد وجود وعدم وجود قضايا تطبيقية ، فغايتهم مجرد التطبيق والعلم والخبر .

الصوفية غالب طلبهم وعملهم في المحبة والبغض والكراهة والإرادة والحركات العملية ، فغايتهم المحبة والانقياد والإرادة ، هذا من جهة الغايات ، لكن وسائلهم لتحقيق ذلك فيها انحراف كبير ، فصار عند هؤلاء المنحرفين من المتكلمين والصوفية مفسدتان عظيمتان إحداهما القول بلا علم وهم المتكلمة ، والعمل بلا علم وهم الصوفية .

أما السلف فقد حققوا كلا الأمرين من القول والتطبيق على منهج الكتاب والسنة ، والعمل الإرادي باتباع أوامر الله واجتناب النواهي وفق ما شرع الله لهم سبحانه وتعالي ، ولذلك كان السلف عملهم ظاهرا وباطنا بعلم ، فهؤلاء هم المسلمون حقا ، وجعلوا من توحيد الأسماء والصفات إحدى الركيزتين اللتين قام عليهما منهجهم المعتمد علي الكتاب والسنة .

والعلم بأسماء الله وصفاته أيضا يفتح للعبد باب معرفة الله تعالي ، فإن محبة الشيء فرع عن العلم به ، وأعرف الخلق به أشدهم له حبا ، ولا سبيل للحصول علي هذه المعرفة إلا من باب الأسماء والصفات ، ولا تستقر للعبد معرفته بالله إلا بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة فالعلم بأسمائه وصفاته يفتح باب المعرفة العظيم . قال صلي الله عليه وسلم (تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ) [1]

---

[1] – رواه مسلم (2931)

فإذا لم نره كيف سنعرفه؟ ليس هناك طريق إلا العلم بالأسماء والصفات وليس هناك طريق للعلم بالأسماء والصفات إلا الكتاب والسنة وقد اقتضت حكمته سبحانه وتعالي أن أرسل إلينا معرّفين يعرفوننا إياه عز وجل وأرسل إلينا داعين يدعوننا إليه ، فهؤلاء هم الرسل ، وأصل دعوتهم معرفة الله سبحانه وتعالي بأسمائه وصفاته ثم يتبعه تعريف الناس بالطريقة الموصلة إلي الله سبحانه وتعالي بإتباع الشريعة ولزوم أحكامها وتعريف الخلق بمآلهم في الآخرة هذه هى دعوة الرسل .

وأساس العلم الصحيح هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته وتتبني مطالب الرسلة جميعها علي هذا التوحيد ، فهو أصل الهداية والإيمان وأصل أصيل ولا يتصور إيمان صحيح لمن لا يعرف ربه ، فهذه المعرفة لازمة لانعقاد أصل الإيمان وهي مهمة جدا للمؤمن لشدة حاجته إلي الله ليسلم قلبه ويصلح معتقده ويستقيم عمله . فمعرفة الأسماء والصفات توجب للعبد التمييز بين الإيمان والكفر ، والشرك والتوحيد ، وتؤدي إلي إجلال الله تعالي .

ومعرفة الله نوعان :-

الأول :- معرفة إجمالية .

والثاني :- معرفة تفصيلية .

المعرفة الإجمالية لابد منها للعبد لينعقد بها إيمانه وتتحقق بالقدر الذي يميز به العبد بين الله والآلهة الباطلة ، فهي تجعل الإنسان في سلامة من الكفر والشرك وتخرجه عن حد الجهل بالرب إلي المعرفة ، هذه يعرفها العامة وممكن تحقيقها بمعرفة سورة (قل هو الله أحد) وآية الكرسي ، فإن عرفهما صار عنده معرفة إجمالية ولكنها لا تؤدي إلي الرسوخ وقوة الإيمان حتى تجيء المعرفة التفصيلية وهي معرفة الأدلة الواردة في هذا الباب ، باب الأسماء والصفات واعتقاد اتصاف الله بها ومعرفة معانيها والعمل بمقتضاها .

وكلما ازداد العبد علما بالله ازداد إيمانه وخشيته ومحبته لربه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ). (فاطر -28)

كما يوجب هذا العلم البصيرة والنور .

والعلم بالله يراد به أصلا نوعان :-

أحدهما : العلم به نفسه وما هو متصف به من نعوت الجلال والكمال التي دلت عليه الأسماء الحسني .

هذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة ، فلابد للعبد أن يعرف الله ، يثيب علي طاعته ويعاقب علي معصيته .

النوع الثاني : العلم بالأحكام الشرعية من الحلال والحرام التي قررها الله ، ولذلك قال سفيان الثوري رحمه الله :

" كَانَ يُقَالُ : الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ : عَالِمٌ بِاللَّهِ يَخْشَى اللَّهَ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِاللَّهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ يَخْشَى اللَّهَ فَذَاكَ الْعَالِمُ الْكَامِلُ ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ لَا يَخْشَى اللَّهَ فَذَلِكَ الْعَالِمُ الْفَاجِرُ " [1]

والعلم بأسماء الله وصفاته هو حياة القلوب فلا حياة ولا نعيم ولا طمأنينة للقلوب إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها وأن يكون عز وجل أحب إليها مما سواه ، والإنسان بغير الإيمان بالله لا يمكن أن ينال معرفة ولا هداية وبدون الإيمان لا يمكن إلا أن يكون شقيا معذبا ، فالله عز وجل خلق الإنسان وركبه من روح وجسد ، وشاء أن يكون خلق الجسد من تراب (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ).(الحج–5) فجعل حياة الجسد من حياة التراب فهو يأكل ويشرب مما يخرج من التراب وجعل في الجسد روحا (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).(الحجر–29) وشاء أن يكون قوامها وحياتها وكمالها وإشراقها ونورها بالمعرفة بالله عز وجل . فلا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أنعم من معرفة خالقه وبارئه وأن يفعل مرضاته .

لذلك فإن من في قلبه أدني حياة أو محبة للرب وشوق إلي لقائه لابد أن يطرق هذا الباب وهو الأسماء والصفات ، فيتحرك قلبه لمعرفة ربه ويحرص علي معرفة أسمائه وصفاته فيزداد تبصرا به سبحانه ويتعرف عليه ويكون أشد محبة له سبحانه وتعالي فهذا العلم في الحقيقة أفضل ما حصلته القلوب وأدركته العقول وليس لها فلاح إلا به .

أما ثمرة معرفة الأسماء والصفات : [1]

---

[1] – رواه الدارمي (363) وهو صحيح عن سفيان .

فإن هذه المعرفة تزيد الإيمان وترسخ اليقين وتوقد البصيرة وتوقظ الإنسان من الشهوات والشبهات ، لماذا ؟ لأن علم الأسماء والصفات إذا رسخ في قلب العبد أوجب خشية الله عز وجل لأن كل اسم من أسماء الله له تعلق وتأثير في القلب ، وإذا أدرك قلب العبد هذا الاسم لله وما يتضمنه وصدقه علي ذلك تجاوب مع المعاني وانعكست المعرفة علي التدبير والسلوك ، ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها فالأسماء الحسني والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية ، وهذا مرتبط بالقلب والجوارح ، فمثلا علم العبد بتفرد الرب بالضر والنفع والعطاء والمنع والرزق والإحياء والإماتة ، إذا أيقن العبد أن الله متفرد بهذه الأمور يثمر ذلك توكلا عليه عز وجل فلا يعتمد إلا علي الله ، وعلم الإنسان بسمع الله وبصره وأنه لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وما يخفي وأنه يعلم ما تخفي الصدور يثمر له حفظ جوارحه ولسانه وأيضا قلبه عن كل ما لا يرضي الله فيجعل الأعضاء متعلقة وتعمل لمرضاة الله عز وجل .

وكذلك إذا عرف العبد أن الله هو الغني الجواد الكريم يكون رجاؤه لله عز وجل وكذلك معرفته بجلاله وعظمته وعزه ويخضع لله محبة وخشية .. وهكذا .

يأتي الإيمان بالأسماء والصفات بآثار علي العبودية ، فالعبودية مرتبطة بالأسماء والصفات ، وكلما كان العبد أعرف بربه وبأسمائه وصفاته كلما ازداد له حبا وإخلاصا وقياما بأمره ونهيه .

وكلما كان العبد أخشع لله وأشد خشية من الله كلما كان أقرب إلى طاعة الله وأبعد عن معصية الله .

وإذا علم العبد تمام قدرة الله على البطش بالعصاة والانتقام من الجناة كلما كان أقرب إلى طاعة الله وأبعد عن معصية الله .

ويتحمل العبد مشقة الصيام وقيام الليل والجهاد ، إذا علم أن ربه كريم يعطي بلا حساب ويضاعف الأجر .

---

[1] – راجع لهذا الباب : معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات صـــ 22 ، وما بعدها

وقد قال الله تعالي (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). (الأعراف–180) فقوله (فادعوه بها) يتضمن دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فهو سبحانه يدعو عباده بأن يعرفوا أسماءه وصفاته ويدعوه بها ويثنوا عليه بها .

وفي خضم النزاع وحصول الاختلاف بين أهل السنة والجماعة وبين هذه الفرق المباينة والمخالفة نذكّر بقوله تعالي (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ).(النساء–59) أي عودوا إلي كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وقد قال تعالي (قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ).(البقرة–140) فالله تعالي أعلم بنفسه منا فهو الذي أخبر عن أسمائه وصفاته في كتابه وعلي لسان رسوله الذي قال عنه ربه (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى).(النجم3) ونظرا لامتلاء العالم بالشبهات الفلسفية والطرق الكلامية والمناهج المنحرفة في الرب عز وجل ، كان لابد من فهم باب الأسماء والصفات فهما صحيحا مستقيما حتى تستقر قدم العبد على طريق المعرفة والإيمان ويجتنب هؤلاء المبتدعة وطريقتهم بل ويرد عليهم .

تعريف توحيد في الأسماء والصفات :

هو إفراد الله بأسمائه الحسني وصفاته العلى الواردة في الكتاب والسنة والإيمان بمعانيها وأحكامها من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

شرح التعريف:

(إفراد الله) هو التوحيد الذي سبق ذكره.

(بأسمائه) الاسم في اللغة هو اللفظ الموضوع لمعني . فالاسم ما دل علي الذات أو ما قام بها من الصفات . فمن أسمائه عز وجل : الله الرحمن الرحيم الملك ... إلي آخره .

(الحسني) على وزن فُعْلى تأنيث أفعل التفضيل(الأحسن) ككبرى تأنيث أكبر، ويخطئ من يقول أن الحسنى تأنيث الحسن؛ لأن تأنيث الحسن حسنة، وأسماء الله ليست حسنة فقط بل هي الحسنى البالغة في الحسن أعلاه ، وورد ذكره في القرآن في أربعة مواضع :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).(الأعراف–180) ،

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ لْحُسْنَى).(الإسراء–110)

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى). (طه–8)

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).(الحشر24)

فمعنى قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسني) يعني لله أحسن الأسماء وأتمها لأنها تنبئ عن أتم المعاني وأشرفها .

ما هو الحكم المستفاد إذاً ؟

يجب الإيمان بهذا الوصف الذي أخبر الله به عن أسمائه والاعتقاد الجازم أن أسماء الله هي أحسن الأسماء وأكملها معني.

(وصفاته) الصفات جمع صفة وهي ما قام بالذات ، مما يميزها عن غيرها من أمور ذاتية أو معنوية أو فعلية.

وصفات الله منها ذاتية ومنها معنوية ومنها فعلية وهذا تقسيم فني وليس علمي ، فالصفات الذاتية مثل (اليدان والعينان والوجه والأصابع).

والمعنوية مثل (القدرة والعلم والإرادة والحياة).

والفعلية مثل (الاستواء والخلق والرزق) فهذه صفات لله تعالي .

(العُلى) جاء هذا اللفظ في القرآن في قوله (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). (النحل–60) تصريف الأعلى علي صورة أفعل التفضيل يعني أعلى من غيره من كل وجه ، ومعني قوله (ولله المثل الأعلى) أي: الكمال المطلق من كل وجه كما قال ابن كثير .[1]

---

[1] – تفسير ابن كثير (496/4)

وقال ابن سعدى رحمه الله : " { ولله المثل الأعلى } وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة "[1]

وقال ابن القيم رحمه الله :

"وصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمرادف محض بل هو على سبيل التقريب والتفهيم وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم دون السخي والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل والغفور العفو دون الصفوح الساتر وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه فتأكل ذلك فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون "[2] .

فيجب الاعتقاد الجازم بأن كل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه في كتابه أو أخبر به رسوله عنه سبحانه من الصفات أنها كلها صفات كمال من كل وجه ؛ لأن من اعتقد أن هذه الصفة فيها نقص سوف يلجأ إلى التحريف ، فأنت إن آمنت أنها كلها أسماء حسني وليس فيها نقص بوجه من الوجوه فقد قطعت طريق التحريف أو التأويل .

---

[1] – تفسير السعدي (ص442)

[2] – بدائع الفوائد (168/1)

فكل ما أخبر الله به في كتابه أو علي لسان رسوله من الصفات هى صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

وحينما نقول في التعريف الأسماء الحسني والصفات العلى الواردة في الكتاب والسنة ، فإننا يجب أن نكون وقافين ؛ فلا نسمي الله بأي صفة دون الرجوع إلي القرآن والسنة فليس لنا طريق لإثبات صفات الله وأسمائه إلا بالخبر الثابت الصحيح ، فلو قال قائل أن لله سمع بأذنين وقال الآخر سمع بلا أذنين فأيهما أصح ؟ كلاهما جريمة، لا تثبت ولا تنفي إلا بدليل ، فالحق أن يقال لله سمع يليق بجلاله وعظمته كما جاء ذلك في النصوص . وهو نهانا أن نتكلم في حقه بغير علم فقال تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا). (الإسراء–36) وبالتالي فلا إثبات ولا نفي إلا بنص . هذه قاعدة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" الْقَوْلُ الشَّامِلُ فِي جَمِيعِ هَذَا الْبَابِ : أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ السَّابِقُونَ ؛ الْأَوَّلُونَ لَا يَتَجَاوَزُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا يُوصَفُ اللَّهُ إلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَجَاوَزُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ . وَمَذْهَبُ السَّلَفِ : أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ "[1] .

(والإيمان بمعانيها وأحكامها) فيجب أن نؤمن بما تضمنته من المعاني ؛ فقد جاء الأمر بذلك والحث عليه كما قال الله (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) والشاهد قوله (فادعوه بها) فالله يدعو عباده أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها .

والدعاء هنا يتناول كلا من:

أ– دعاء الثناء والتعبُّد: كقولك: الحمد لله، سبحان الله، الله أكبر.

[1] – مجموع الفتاوى (26/5)

ب- دعاء المسألة والطلب: مثل : اللَّهمَّ ارزقني، ربي اغفر لي، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسئل إلا بها، فهو سبحانه يدعو عباده في هذه الآية إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديَّتها؛ إذ كل اسم من أسمائه عز وجل له تعبد مختص به، علما ومعرفة، وحالا.

علما ومعرفة: أي إن من علم أن الله مسمى بهذا الاسم، وعرف ما يتضمنه من الصفة ثم اعتقد ذلك: فهذه عبادة.

وحالا: أي إن لكل اسم من أسماء الله مدلولا خاصا وتأثيرا معينا في القلب والسُّلوك؛ فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره .

وقال صلي الله عليه وسلم في مسألة العمل بالأسماء والدعاء بها (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[1] ، فقوله : (من أحصاها) معناه حفظ ألفاظها وفهم معانيها وعمل بمقتضياتها وأحكامها.

فالإيمان بأسماء الله وصفاته والعمل بمقتضاها وإدراك القلب لمعانيها وما تضمنته من الأحكام هو المراد المقصود بإحصائها .

وقال الأصيليُّ: "ليس المراد بالإحصاء عدَّها فقط؛ لأنه قد يعدُّها الفاجر، وإنما المراد العلم بها".

وقال ابن بطال: "إن من حفظها عدا وأحصاها سردا ولم يعمل بها يكون كمن حفظ القرآن ولم يعمل بما فيه، وقد ثبت الخبر في الخوارج أنهم يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم"

وقال أبو عمرو الطَّلمنكي: "من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالما لمعاني الأسماء، ولا مستفيدا بذكرها وما تدلُّ عليه من المعاني" [2]

---

[1] - متفق عليه

[2] - فتح الباري (226/11)

فأهل السنة يؤمنون بما دلت عليه أسماء الله وصفاته من المعاني وما يترتب عليه من المقتضيات والأحكام بخلاف أهل الباطل الذين ينكرون ذلك ويعطلونه .

فأهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسمائه يدل علي معناه ، ولذلك فلابد من مراعاة الأمور التالية عند الإيمان بأسماء الله الحسنى.

أولا: الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة.

ثانيا: الإيمان بما دل عليه كل اسم منها من المعنى، واحترام ذلك المعنى وعدم تحريفه.

ثالثا: الإيمان بما يتعلَّق به من الآثار والحكم والمقتضى.

وكمثال على ذلك: "السميع".

اسم من أسماء الله الحسنى وردت به النصوص، فلابد للإيمان به وتحقيق إحصائه على الوجه المطلوب من:

1- إثبات اسم "السميع" اسما لله عز وجل.

2- إثبات ما دل عليه من المعنى الذي نسميه الصفة، فالله عز وجل متصف بصفة السمع، وهذا الاسم دل على ذلك

3- إثبات الحكم- أي الفعل- وهو أن الله يسمع السر والنَّجوى.

وإثبات المقتضى والأثر المترتب على ذلك: وهو وجوب خشية الله ومراقبته وخوفه والحياء منه، والالتجاء إليه، ودعاؤه عز وجل، فهو سبحانه يسمع السر والنَّجوى.

وهكذا الشأن في جميع أسماء الله يجب أن تعامل هذه المعاملة ليتحقق إحصاء أسماء الله ودعاؤه عز وجل بها كما أمر بذلك في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

كل اسم من أسماء الله عز وجل له تعبد مختص به

قال ابن القيم رحمه الله :

" كَلُّ اسْمٍ فَلَهُ تَعَبُّدٌ مُخْتَصٌّ بِهِ، عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَحَالًا، وَأَكْمَلُ النَّاسِ عُبُودِيَّةً الْمُتَعَبِّدُ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ، فَلَا تَحْجُبُهُ عُبُودِيَّةُ اسْمٍ عَنْ عُبُودِيَّةِ اسْمٍ آخَرَ، كَمَنْ يَحْجُبُهُ التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ الْقَدِيرِ عَنِ التَّعَبُّدِ بِاسْمِهِ الْحَلِيمِ الرَّحِيمِ، أَوْ يَحْجُبُهُ عُبُودِيَّةُ اسْمِهِ الْمُعْطِي عَنْ عُبُودِيَّةِ اسْمِهِ الْمَانِعِ، أَوْ عُبُودِيَّةُ اسْمِهِ الرَّحِيمِ وَالْعَفُوِّ وَالْغَفُورِ عَنِ اسْمِهِ الْمُنْتَقِمِ، أَوِ التَّعَبُّدُ بِأَسْمَاءِ التَّوَدُّدِ، وَالْبِرِّ، وَاللُّطْفِ، وَالْإِحْسَانِ عَنْ أَسْمَاءِ الْعَدْلِ، وَالْجَبَرُوتِ، وَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْكُمَّلِ مِنَ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ قَلْبِ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: 180] وَالدُّعَاءُ بِهَا يَتَنَاوَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ، وَدُعَاءَ الثَّنَاءِ، وَدُعَاءَ التَّعَبُّدِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفُوهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِ بِهَا، وَيَأْخُذُوا بِحَظِّهِمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهَا.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مُوجَبَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. فَهُوَ عَلِيمٌ يُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ، جَوَّادٌ يُحِبُّ كُلَّ جَوَّادٍ، وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَأَهْلَهُ، حَيِيٌّ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَأَهْلَهُ، بَرٌّ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، حَلِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْحِلْمِ، فَلِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ لِلتَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ خَلَقَ مَنْ يَغْفِرُ لَهُ، وَيَتُوبُ عَلَيْهِ وَيَعْفُو عَنْهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ مَا يَقْتَضِي وُقُوعَ الْمَكْرُوهِ وَالْمَبْغُوضِ لَهُ، لِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْمَحْبُوبُ لَهُ الْمُرْضِي لَهُ، فَتَوَسُّطُهُ كَتَوَسُّطِ الْأَسْبَابِ الْمَكْرُوهَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمَحْبُوبِ "[1] .

وينتظم المنهج الحق في باب الأسماء والصفات في ثلاثة أصول من حققها سلم من الانحراف في هذا الباب . وهي :

الأصل الأول : تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين .

الأصل الثاني : الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه وبما سماه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته .

---

[1] – مدارج السالكين (1/420–421)

الأصل الثالث : قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله تعالى لأن إدراك المخلوق لذلك مستحيل .

فمن حقق هذه الأصول الثلاثة فقد حقق الإيمان الواجب في باب الأسماء والصفات على ما قرره الأئمة المحققون في هذا الباب .

معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته يقوم علي ما يلي:

أولا : يسمون الله بكل ما سمي به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلي الله عليه وسلم .

ثانيا : يصفونه بما وصف به نفسه في كتابه وعلي لسان رسوله صلي الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

ثالثا : ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو علي لسان رسوله صلي الله عليه وسلم مع الاعتقاد بأن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي ، فإذا نفي الله عن نفسه مثلا صفة النوم فيجب أن نعتقد ونثبت كمال الضد, فكل صفة وردت لله تعالى فى الكتاب أو السنة الصحيحة من قبيل الإثبات يثبتونها, والنفى ينفون عن الله ما نفى عن نفسه مع الاعتقاد بكمال الضد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ : أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا وُصِفَ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ لُغْزٌ وَلَا أَحَاجِيٌّ ؛ بَلْ مَعْنَاهُ يُعْرَفُ مِنْ حَيْثُ يُعْرَفُ مَقْصُودُ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ ؛ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِمَا يَقُولُ وَأَفْصَحَ الْخَلْقِ فِي بَيَانِ الْعِلْمِ وَأَفْصَحَ الْخَلْقِ فِي الْبَيَانِ وَالتَّعْرِيفِ وَالدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَذْكُورَةِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَكَمَا نَتَيَقَّنُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً وَلَهُ أَفْعَالٌ حَقِيقَةً : فَكَذَلِكَ لَهُ صِفَاتٌ حَقِيقَةً وَهُوَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَكُلُّ مَا أَوْجَبَ نَقْصًا أَوْ حُدُوثًا فَإِنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْكَمَالِ الَّذِي لَا غَايَةَ فَوْقَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ

الْحُدُوثُ لِامْتِنَاعِ الْعَدَمِ عَلَيْهِ وَاسْتِلْزَامُ الْحُدُوثِ سَابِقَةُ الْعَدَمِ ؛ وَلِافْتِقَارِ الْمُحْدَثِ إلَى مُحْدِثٍ وَلِوُجُوبِ وُجُودِهِ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ فَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِ اللَّهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ كَمَا لَا يُمَثِّلُونَ ذَاتَه بِذَاتِ خَلْقِهِ وَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ . فَيُعَطِّلُوا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَيُحَرِّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيُلْحِدُوا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ فَرِيقَيْ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ : فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ .

أَمَّا الْمُعَطِّلُونَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصَفَاتِهِ إلَّا مَا هُوَ اللَّائِقُ بِالْمَخْلُوقِ ثُمَّ شَرَعُوا فِي نَفْيِ تِلْكَ الْمَفْهُومَاتِ ؛ فَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ مَثَّلُوا أَوَّلًا وَعَطَّلُوا آخِرًا وَهَذَا تَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ مِنْهُمْ لِلْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ بِالْمَفْهُومِ مِنْ أَسْمَاءِ خَلْقِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَتَعْطِيلٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاَللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى " [1] .

فالكلام على الصفات مبني على أصلين :

أولهما : أن الله تعالى منزه عن كل صفات النقص .

ثانيهما : أنه متصفٌ بصفات الكمال التى لا نقص فيها بوجه . فلا يماثله شيء من المخلوقات لا فى أسمائه ولا فى صفاته (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).(الشوري–11) ففى مقام النفى (ليس كمثله شيء) وفى مقام الإثبات (وهو السميع البصير) وقوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا).(الفرقان–58) ففى مقام الإثبات (وتوكل على الحى) وفى مقام النفى (الذى لا يموت)

وقال تعالى (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ).(البقرة–255) ففي مقام الإثبات: {اللَّهُ} ، و {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} . وفي مقام النفي: {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} ، و { لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} .

[1] – مجموع الفتاوى (27–26/5)

وأما من السنة : ففي مقام الإثبات قوله صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا عز وجل حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا)[1]

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي)[2]

وفي مقام النفي قوله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ)[3]

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ أَلَا وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى)[4]

وقول أهل السنة (من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل) :

ينبغى أن نعلم أن توحيد الأسماء والصفات له ضدان :

أولا :- التعطيل - ثانيا :- التكييف والتمثيل .

فمن نفى صفات الرب سبحانه وتعالي فقد كذب بالتوحيد لأنه عطل الصفة، ومن شبهه بخلقه ومثّله بهم فقد كذب بالتوحيد أيضا من جهة أنه شبه الله بخلقه أو مثله بهم .

1- التحريف لغة هو التبديل والتغيير والإمالة ، فهو مأخوذ من حرفت الشيء عن وجهه إذا أملته عن وجهه فهو منقول عن وجهه.

2- التحريف شرعا هو الميل بالنصوص عما هي عليه ، أو الميل بالنصوص عما يراد بها أو عن معناها الحقيقي ، إما بالطعن فيها أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها

فيكون تعريف التحريف في مجال الأسماء والصفات :-

هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلي غيره ، وهذا التحريف قد يكون باللفظ وقد يكون بالمعني .

---

[1] – متفق عليه

[2] – متفق عليه

[3] – متفق عليه

[4] – متفق عليه

أما تحريف اللفظ فله صور أربع :- [1]

1-الزيادة في اللفظ.

2-النقصان في اللفظ.

3-تغيير حركة إعرابية .

4-تغيير حركة غير إعرابية .

فمن أمثلة التحريف اللفظي تحريف قوله تعالي (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا).(النساء-164) ، حرف بعض هؤلاء المبتدعة هذه الآية بتحريف إعرابها ؛ فبدلا من أن يجعل لفظ الجلالة فاعلا جعله مفعولا فقال " وكلم اللهَ "

ولذلك لما حرف الجهمية هذا التحريف قال لهم بعض أهل التوحيد : كيف تصنعون بقول الله تعالي (وكلمه ربُّه) ؟! فهذه آيات القرآن يفسر بعضها بعضا.

هذا حرف في الآية الأولي وجعل الفاعل مفعولا به، فلما جاءت الآية الثانية ما استطاع أن يفعل شيئا .

وقد يكون التحريف بالزيادة ، كقولهم في (الرحمن على العرش استوى) يعني استولى .

ومن أمثلة تحريف المعنى:

قول المعطلة في معنى اليد في قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان} : النعمة والقدرة.

وفي معنى المجيء في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} : وجاء أمر ربك.

والله تعالي قد ذم التحريف وأخبر أن الخائضين فيه هم اليهود فهم شيوخ المحرفين وسلفهم ، حرفوا كثيرا من ألفاظ التوراة ، وذكر الله عيبهم وذمهم في تحريف التوراة في آيات متعددة ودرج علي آثارهم الرافضة فهم أشبه بهم حذو القذة بالقذة ، وكذلك الجهمية سلكوا في تحريف النصوص مسالك إخوانهم اليهود .

وأصحاب تحريف الألفاظ شر من أصحاب تحريف المعنى من وجه.

---

[1] - راجع : معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات صـــ 60 وما بعدها

وأصحاب تحريف المعنى شر من أصحاب تحريف اللفظ من وجه.

فأصحاب تحريف اللفظ عدلوا باللفظ والمعنى جميعاً عما هما عليه, فأفسدوا اللفظ والمعنى، بينما أصحاب تحريف المعنى أفسدوا المعنى وتركوا اللفظ على حاله فكانوا خيراً من أولئك من هذا الوجه.

فأصحاب تحريف اللفظ لما أرادوا المعنى الباطل حرفوا له لفظاً يصلح له لئلا يتنافر اللفظ والمعنى، بحيث إذا أطلق ذلك اللفظ المحرف فهم منه المعنى المحرف، فإنهم رأوا أن العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته مع بقاء اللفظ على حاله مما لا سبيل إليه، فبدأوا بتحريف اللفظ ليستقيم لهم حكمهم على المعنى الذي قصدوا .

وأما كون أصحاب تحريف المعنى شراً من أصحاب تحريف اللفظ من وجه؛ فلأن تحريف المعنى هو الأكثر استعمالاً عند أصحاب التحريف؛ ولأنه أسهل رواجاً وسوقاً عند الجهلة والعوام من الناس، فيفتتن به من ليس لديه زاد من العلم الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

أما التعطيل :

فالتعطيل لغة : قال ابن فارس : العين والطاء واللام أصل صحيح واحد يدل على خلوٍ وفراغٍ , تقول عطلت الدار ودار معطلة ، ومتى تركت الإبل بلا راع فقد عطلت ، وكذلك البئر إذا لم تورد ولم يستق منها. قال الله تبارك وتعالى (وبئر معطلة) وقال (وإذا العشار عطلت) [1]

وقال ابن منظور : والتعطيل التفريغ وعَطَّلَ الدارَ أَخلاها وكلُّ ما تُرِك ضَيَاعاً مُعَطَّلٌ ومُعْطَل.[2]

والتعطيل اصطلاحاً :

إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات ، أو بعضها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع إليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل

---

1 – مقاييس اللغة (286/4)

2 – لسان العرب (453/11)

أسمائه وصفاته وأفعاله وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد إيجادها .... ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا اسما ولا صفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها "[1].

- أقسام التعطيل :

1- تعطيل كلي : كتعطيل الجهمية للصفات ، وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضاً .

2- تعطيل جزئي : كتعطيل متكلمة الصفاتية من الكلابية والأشعرية والماتوريدية الذين أثبتوا بعضاً ونفوا أو أوولوا البعض الآخر .

- أصل مقالة التعطيل :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ثم أصل هذه المقالة – مقالة التعطيل للصفات – إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه" [2].

منهج أهل السنة في الإيمان بأسماء الله وصفاته في مسألة التعطيل :

هو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

إذا قلنا : نثبت الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، فما الفرق بينهما؟

الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ التَّكْيِيفَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ صِفَاتِهِ تَعَالَى عَلَى كَيْفِيَّةِ كَذَا ، أَوْ يَسْأَلُ عَنْهَا بِكَيْفَ .

وَأَمَّا التَّمْثِيلُ ؛ فَهُوَ اعْتِقَادُ أَنَّهَا مِثْلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ .

ولعل الصواب أن يقال: التكييف أعم من التمثيل ، التمثيل كأن يقول يد الله مثل يد المخلوق لكن التكييف ليس على صفات المخلوقين لأنك إن قلت ذلك صار تمثيلا، فالتكيف هو أن تعتقد

---

[1] – الجواب الكافي (ص130)

[2] – مجموع الفتاوى (20/5)

كييفية معينة غير موجودة بالكتاب والسنة ولو لو تكن فى مخلوق مثل قول الهشامية (نسبه إلى هشام بن الحكم الرافضى) فى الله تعالى : طوله كعرضه ، أين تجد هذه فى القرآن الكريم؟

فقالوا كييفية معينة ، فما شبهوها بصفة فى المخلوق ولكن ذكروا كيفية ليست موجودة فى القرآن ولا في السنة ، وبعضهم قال: طوله سبعة أشبار بشبر نفسه ! تعالى الله ، يقولون على الله ما لا يعلمون.

أما التمثيل فهو اعتقاد أن صفاته مثل صفات المخلوقين ، فهذا مثال على التكييف والتمثيل .

أما الفرق بين التمثيل والتشبيه ، فالمماثلة مساواة الشيء لغيره من كل وجه ، والمشابهة مساواته فى بعض الأشياء دون كلها .

وأهل السنة والجماعة لا ينفون الكيف مطلقا فالله له وجه وله كيفية ولكننا لا نعلمها ، فإن قالوا نثبت الوجه بلا كيف ، فالمعنى : بلا كيف معلوم لنا .

فإننا ننفى علمنا بالكيف ولا يعلم كيفية صفاته إلا هو سبحانه وتعالى ، فمن المعلوم أننا لا علم لنا بكيفية صفاته عز وجل ، فالله أخبرنا عن الصفات ولم يخبرنا عن الكيفية ، فوجب الوقوف عند حدود العلم .

ولذلك قال ربيعة ومالك وغيرهما: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)[1].

وكل معطل ممثل وكل ممثل معطل وهذه قاعدة مهمة ، فكل واحد من الفريقين يجمع بين التعطيل والتمثيل , **ولبيان ذلك نقول :**

لم يصل المعطل إلى درجة التعطيل إلا بعد أن صعد درجة التمثيل وبيان ذلك ، أنه قام في نفسه أنه لو أثبت الصفات لله تعالى لاستلزم ذلك أن يكون الله تعالى مماثلاً للمخلوقات ، فلو أثبتنا له اليد لصارت مثل أيدي المخلوقين ، فماذا نفعل ؟ ننفي هذه الصفات التي توهم المماثلة بخلقه ، فنفوها وعطلوها والسبب في ذلك هو الفرار من ربقة التشبيه كما زعموا فهذه شبهتهم وهذا زعمهم ، فالمعطل لم يصل إلى التعطيل إلا بعد أن قام في رأسه محذور التمثيل .

---

[1] – مجموع الفتاوى (25/3)

(وكل ممثل معطل) وهو أن الممثل يعتقد أن الصفات التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ووصف بها نفسه أنها مماثلةٌ لصفات المخلوقين ، فيده سبحانه كأيدينا وعينه كأعيننا ، وهكذا تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، فهم في هذا الاعتقاد – أعني اعتقاد مماثلة صفات الله تعالى لصفات خلقه – عطلوا ثلاثة أمور :

الأول : عطلوا النص الذي أثبت هذه الصفة بخصوصها عن كماله الواجب وعن المراد منه ، ذلك أن هذه النصوص لا تفيد المماثلة وإنما تفيد صفاتٍ لائقةٍ بالله تعالى ، لا تماثل صفات المخلوقين ، فإذا قالوا : بأنها تفيد مماثلة صفات الله لخلقه فقد عطلوا هذه النصوص عن المراد بها وعن حقيقتها ، فإذا قالوا : إن يد الله كأيدينا فقد عطلوا النصوص التي أثبتت صفة اليد ، عن المراد منها ، وإذا قالوا : إن سمع الله تعالى وبصره كسمعنا وبصرنا فقد عطلوا النصوص التي تثبت صفتي البصر والسمع بخصوصها ، وهكذا فهذا هو التعطيل الأول .

والثاني : أنهم إذا اعتقدوا هذا الاعتقاد فإنهم قد عطلوا النصوص التي تنفي مماثلة الله تعالى لخلقه إجمالاً ، كقوله تعالى : (ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير)

وأما التعطيل الثالث : فإنهم إذا قالوا هذا القول فإنهم قد عطلوا الله تعالى عن كماله الواجب له فالله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وصفاتنا ليست بعليا ، فإذا مثلنا صفات الله تعالى بصفاتنا فقد عطلناه عن كماله الواجب له جل وعلا ، هذا هو التعطيل الثالث .

تقديم الشرع علي العقل

الأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع وسبق أن ذكرنا أن العقل تابع وليس مصدرا مستقلا إنما هو مصدر مساند ، فالعقل لا يمكن أن يدرك ما يستحقه الله من الأسماء والصفات ، ولذلك ينبغي الاعتماد علي النقل ، والعقل يقصر عن إدراك حقائق المغيبات ومن جهة أخري فهو يحيط فقط بالمحسوس والمشاهد بما يقدره الله تعالي له ، ولذلك لما قال تعالي عن الروح (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا). (الإسراء–85) فالروح مخلوقة ، فإذا كانت هذه المخلوقة لا يحيط بها ولا يدرك كنهها العقل فما بالك بالخالق سبحانه وتعالي .

ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء من ذكر صفات الله تعالي وما تعبد الناس باعتقادهم من ذكر عذاب القبر وسؤال منكر ونكير والحوض والميزان والصراط والجنة والنار لوجدنا هناك أمورا لا ندرك حقائقها بعقولنا مع أنها مخلوقة فالجنة والنار مخلوقتان فإذا سمعنا بأمور تتعلق بها فلا يمكن أن ندركها إلا عن طريق الوحي ، فكيف بما يتعلق بالله تعالي ؟

والمعطلة فصل ما بيننا وبينهم هو مسألة العقل ، فإنهم أثبتوا دينهم علي المعقول وجعلوا الاتباع والمأثور تبعا للمعقول ، وأما أهل السنة فقالوا الأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع ، ولو كان أساس الدين علي المعقول لاستغني الخلق عن الوحي وعن الأنبياء ولبطل الأمر والنهي ولقال من شاء ما شاء .

فالقول بأن النقل مقدم علي العقل هو مذهب أهل السنة الذي لا يحق غيره ، ولكن لا يفهم منه أن أهل السنة ينكرون العقل بل إن للعقل وظائف مثل التفكر في خلق السموات والأرض وآيات الله الكثيرة ، وأما أهل الكلام فيفردونه ويجعلونه أصلا مستقلا .

التفويض :

التفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان :

الأول : معنى صحيح ، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه ، ثم تفويض علم كيفيته إلى الله ، فنثبت لله تعالى أسماءه الحسنى ، وصفاته العلى ، ونعرف معانيها ونؤمن بها ، غير أننا لا نعلم كيفيتها .

فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش ، استواء حقيقيا يليق بجلاله سبحانه ، ليس كاستواء البشر ، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا ؛ ولذا ، فإننا نفوض كيفيته إلى الله ، كما قال الإمام مالك وغيره لما سئل عن الاستواء : "الاستواء معلوم ، والكيف مجهول" [1].

[1] – انظر : "مجموع الفتاوى" لشيخ الإسلام (25/3) .

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة : إثبات صفات الله تعالى ، إثباتاً بلا تمثيل ولا تكييف ، قال الله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) .

قال ابن عبد البر رحمه الله :

" أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لم يكيفوا شيئا من ذلك " [1].

والمعنى الثاني للتفويض – وهو معنى باطل – : إثبات اللفظ من غير معرفة معناه .

فيثبتون الألفاظ فقط ، (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ثم يقولون : لا ندري معناه ، ولا ماذا أراد الله به !!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"وأما التفويض : فإن من المعلوم أن الله تعالي أمرنا أن نتدبر القرآن وحضّنا على عقله وفهمه ، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله ؟

وأيضا : فالخطاب الذي أريد به هدانا والبيان لنا وإخراجنا من الظلمات إلي النور إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره باطل وكفر ولم يُرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه ، أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك ، فعلي التقديرين لم نخاطَبْ بما بُيّن فيه الحق ، ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر .

وحقيقة قول هؤلاء في المخاطِب لنا : أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه ، بل دل ظاهره علي الكفر والباطل ، وأراد منا أن نفهم منه شيئا أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه ، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه ، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد ...

إلى أن قال : فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد " [1]

---

[1] – "العلو للعلي الغفار" (ص 250)

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله :

"السلف لم يكن مذهبهم التفويض ، وإنما مذهبهم الإيمان بهذه النصوص كما جاءت ، وإثبات معانيها التي تدلُّ عليها على حقيقتها ووضعها اللغوي ، مع نفي التَّشبيه عنها ؛ كما قال تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) الشورى/ 11 " [2]

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله :

"المفوضة قال أحمد فيهم : إنهم شر من الجهمية ، والتفويض أن يقول القائل : الله أعلم بمعناها فقط ، وهذا لا يجوز ; لأن معانيها معلومة عند العلماء . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وهكذا جاء عن الإمام ربيعة بن أبي عبد الرحمن وعن غيره من أهل العلم ، فمعاني الصفات معلومة ، يعلمها أهل السنة والجماعة ; كالرضا والغضب والمحبة والاستواء والضحك وغيرها ، وأنها معاني غير المعاني الأخرى ، فالضحك غير الرضا ، والرضا غير الغضب ، والغضب غير المحبة ، والسمع غير البصر ، كلها معلومة لله سبحانه ، لكنها لا تشابه صفات المخلوقين" انتهى .[3]

وقال أيضا :

" أنكر الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أئمة السلف على أهل التفويض , وبدّعوهم لأن مقتضى مذهبهم أن الله سبحانه خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه , والله سبحانه وتعالى يتقدس عن ذلك , وأهل السنة والجماعة يعرفون مراده سبحانه بكلامه ، ويصفونه بمقتضى أسمائه وصفاته وينزهونه عن كل ما لا يليق به عز وجل . وقد علموا من كلامه

---

[1] – "درء التعارض" (115/1) .

[2] – "المنتقى من فتاوى الفوزان" (1/25) .

[3] – "فتاوى نور على الدرب لابن باز" (ص 65) .

سبحانه ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سبحانه موصوف بالكمال المطلق في جميع ما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم " [1]

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

"التفويض نوعان : تفويض المعنى ، وتفويض الكيفية .

فأهل السنة والجماعة يفوضون الكيفية ، ولا يفوضون المعنى ، بل يقرُّون به ، ويثبتونه ، ويشرحونه ، ويقسمونه ، فمن ادعى أن أهل السنة هم الذين يقولون بالتفويض – ويعني به تفويض المعنى – فقد كذب عليهم" [2]

ثانياً :

توهم البعض أن مذهب السلف هو التفويض ، وفهموا ذلك من قول السلف في أحاديث الصفات : (أمروها كما جاءت بلا كيف) .

وهو فهم غير صحيح ، بل هذا القول الوارد عن السلف يدل على أنهم كانوا يثبتون الصفات بمعانيها لله تعالى ، ثم ينفون علمهم بكيفية ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"فقول ربيعة ومالك : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب) موافق لقول الباقين : (أمروها كما جاءت بلا كيف) فإنما نفوا علم الكيفية ، ولم ينفوا حقيقة الصفة .

ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ولما قالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف ، فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً ، بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم .

وأيضاً : فإنه لا يحتاج إلى نفى علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى ، وإنما يحتاج إلى نفى علم الكيفية إذا أثبتت الصفات .

---

[1] – "مجموع فتاوى ابن باز" (55/3) .

[2] – "لقاء الباب المفتوح" (24/67) .

وأيضاً : فإن من ينفى الصفات لا يحتاج إلى أن يقول : بلا كيف ، فمن قال : إن الله ليس على العرش ، لا يحتاج أن يقول : بلا كيف ، فلو كان مذهب السلف نفى الصفات في نفس الأمر لما قالوا : بلا كيف .

وأيضاً : فقولهم : "أمروها كما جاءت" يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه ، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معانٍ ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال : أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد ، أو : أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة ، وحينئذ فلا تكون قد أُمِرّت كما جاءت ، ولا يقال حينئذ : بلا كيف ، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول" [1]

والأساس الثاني الذي يقوم عليه منهج أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات :

هو تنزيه الله عن أن يشبهه شيء من مخلوقاته وقد قال تعالي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).(الشورى–11) ، وقال (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). (النحل–74) ، وقال (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا). (مريم–65) .

فقوله تعالي (ليس كمثله شيء) دليل علي أن الله تعالي منزه عن أن يكون له مثل في شيء مما يوصف به من صفات الكمال ، وهذه الآية في تفسيرها وجهان :–

الأول :– أن يكون المعني ليس هو كشيء من الأشياء ، وأدخل المثل في الكلام توكيدا له .

الثاني :– أن يكون معناها ليس مثله شيء ، فتكون الكاف مدخلة في الكلام توكيدا وهذا وجه قوي وحسن ولعله يكون هو الأظهر في تفسير الآية .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة علي أن الله تعالي ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

[1] – "مجموع الفتاوى" الفتوى الحموية (41/5) .

أما قوله (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ). (النحل–74) فقال ابن جرير : فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبه له الأشباه فإنه لا مثل له ولا شبه .[1]

قال ابن كثير : يعني لا تجعلوا له أندادا ولا أشباها ولا أمثالا .[2]

وقوله (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).(النحل–60) ، وقوله (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).(الروم–27) .

وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى فما هو ؟ يعني الكمال المطلق المتضمن الأمور الوجودية والمعاني الثبوتية لأن هذه الصفات كلما كانت أكثر في الموصوف كان أعلي وأكمل ، ألا تري أن الشخص إذا كانت له صفات حسنة أكثر عددا كان أعلي شأنا وقدرا ، ولما كانت صفات الرب أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان ، لأنهما إذا تكافئا من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر والله قال بأن له المثل الأعلى ، إذ ليس أحدٌ مثله عز وجل .

فلا يوصف بالمثل الأعلى إلا الله سبحانه وتعالي ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثيل أو نظير أو ند وهذا برهان قاطع علي استحالة التشبيه والتمثيل .

قال ابن القيم رحمه الله :

" وصف سبحانه نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل60] وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم27] فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل أي أعلى من غيره . فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف وأي مثل أدنى من هذا تعالى الله عن قول المعطلين علوا كبيرا.

---

[1] – تفسير الطبري (259/17)

[2] – تفسير ابن كثير (588/4)

فمثل السوء لعادم صفات الكمال ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملا وهي الإيمان والعلم والمعرفة واليقين والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والصبر والرضا والشكر وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة فلما سلبت تلك الصفات عنهم وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء فمن سلب صفات الكمال عن الله وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته وسائر ما وصف به نفسه فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى فإن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره .

ولما كان الرب تعالى هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته عليا كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير .

وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحدا إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهارا على الإطلاق وإن قهره لم يكن كفؤا وكان القهار واحدا .

فتأمل كيف كان قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى11] وقوله {وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى} [الروم27] من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه " [1].

ثانيا :- دلالة العقل على بطلان تشبيه الخالق بصفات المخلوقين .

فلو أن شخصا قال اقنعني عقليا أن صفات الخالق لا يمكن تشبيهها بصفات المخلوقين فنقول:-

---

[1] – الصواعق المرسلة (3/ 1030-1032)

1-هناك قاعدة عظيمة جدا ذكرها شيخ الإسلام وهى (القول في الصفات كالقول في الذات) والثانية (القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر)[1] وألزم شيخ الإسلام بهاتين القاعدتين أهل الكلام إلزاما عظيما وأفحمهم إفحاما بالغا ، ولذلك من حفظ هاتين القاعدتين سهل عليه أن يرد علي أهل الكلام .

القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر ، لماذا ؟ لأن بعض أهل الكلام يثبتون ذاتا فقط ولا يثبتون الصفات ، ويقولون إثبات الصفات فيه تجسيم أو تجسيد إلي آخره ، فإذا قالوا إن الذات موجودة والمخلوقات موجودة فنقول لهم لقد شبهتم علي قاعدتكم ، فإذاً ذاته ليست كذات غيره ، وصفاته ليست كصفات غيره .

وأما إذا قالوا نحن نثبت بعض الصفات وصفات أخري لا نثبتها قالوا لأنها توهم التشبيه ، فإذا قلنا ما الذي تثبتونه ؟ قالوا السمع والبصر والعلم والإرادة .

وما الذي تنفونه ؟ قالوا اليد والحب والوجه ... إلي آخره.

نقول لهم لماذا أثبتم السمع والبصر ؟ قالوا هذا سمعه وبصره لا يشبه المخلوقين .

فكذلك قدمه ووجهه لما لا تثبتونها ؟

قالوا لأنه تشبيه بأقدام المخلوقين ووجوهم . فما هو الفرق بين القول في بعض الصفات والقول في البعض الآخر ؟

إذاً نثبت السمع والبصر ونثبت الوجه والأصابع واليدين وكل شيء ثبت لله بالكتاب والسنة من الصفات ، فما الفرق أن أثبت الإرادة ولا أثبت الحب والبغض والغضب ، لماذا تثبت هذه ولا تثبت الأخرى ؟

القول في الذات كالقول في الصفات والله عز وجل ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإن كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات ، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات .

---

[1] - التدمرية (ص 36 ، 43)

ثبت عند جميع العقلاء أن بين الخالق والمخلوق تباين في الذات وهذا يستلزم تباينا في الصفات ، لأن صفة كل موصوف بحسبه ، فقوة البعير غير قوة النملة ، فإذا ظهر تباين بين المخلوقات فظهور التباين بينها وبين الخالق أظهر وأجلي .

فصفات الخالق أولي ألا تشابه صفات المخلوقين ، وفي ذلك إلزام لمن يقولون (إذا أثبتنا الصفات شبهناه بالخلق) نقول ها أنتم تثبتون للمخلوق صفات لا تشابه صفات المخلوقات الأخرى وكلها حادثة، أفعجزتم أن تثبتوا لله صفات لا تشابه صفات المخلوقين الحادثين ؟

وبهذا يُعلم أن الله لا مثل له ولا نظير ولا يضرب له الأمثال التي فيها مماثلة بالمخلوقين ، بل له المثل الأعلى .

وكذلك يقال كيف يكون الرب الكامل من جميع الوجوه مشابها للمخلوق الناقص المفتقر لمن يكمله ؟ وهل اعتقاد هذا إلا تناقض في الخالق ؟ ثم إذا كان المخلوق منزها عن مماثلة المخلوق الموافق له في الاسم فالخالق أولي أن ينزه عن مماثلة المخلوق وإن حدثت مماثلة في الاسم ، وهذه مسألة المماثلة والموافقة في الاسم مهمة ، ضل فيها أولئك المبتدعة قالوا إذا قلت يد الله ويد الإنسان إذا هنا يد وهنا يد ، نشبهه بالمخلوق ؟ فما الحل؟ ننفي يد الله ، لماذا؟ قالوا لأنه اشتركت يد مع يد ، اشتركت اللفظة مع اللفظة إذاً لابد أن ننفي حقيقة اليد عن الخالق حتى لا يشابه المخلوقين ، فقلنا : صفاته أصلا لا تشابه صفات المخلوقين وإن وافقتها في الاسم ، والله تعالي قد أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات من المطاعم والمشارب والمناكح وأن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وفاكهة وحورا وقصورا ولكن ابن عباس يقول (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء) [1]

فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله تعالي عنها في موافقة الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا لا مماثلة بينهما بل فيها تباين ، فهل خمر الدنيا مثل خمر الجنة رغم أن هذا اسمه خمر وهذا اسمه خمر ؟ هل قصور الجنة مثل قصور الدنيا ؟ طبعا لا ، رغم أن هذه قصور وهذه قصور ،

---

[1] – تفسير الطبري (392/1) وإسناده صحيح .

هل الاشتراك في اللفظ يوجب تشبيها ؟ لا ، وهذا علي مستوى المخلوقين فالجنة مخلوقة والدنيا مخلوقة فكيف بالخالق عز وجل ؟

ولذلك لابد أن نحفظ هذه القاعدة (الاتفاق في الاسم لا يلزم منه تماثل المسمى)، وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالي :

" إذَا كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ وَمَا هُوَ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ يَقْبَلُ الْوُجودَ وَالْعَدَمَ: فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا مِثْلَ وُجودِ هَذَا بَلْ وُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَوُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ: لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّى ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ.

فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ إذَا قِيلَ أَنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ: إنَّ هَذَا مِثْلَ هَذَا؛ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الشَّيْءِ وَالْوُجُودِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًى مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا هُوَ مُسَمَّى الِاسْمِ الْمُطْلَقِ .

وَإِذَا قِيلَ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ: فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءِ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءِ؛ وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إذَا أُضِيفَتْ إلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَسَمَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءِ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إلَيْهِمْ تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ إذَا قُطِعَتْ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ؛ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ: اتِّفَاقُهُمَا وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ.

فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ حَيًّا فَقَالَ: {اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ حَيًّا؛ فَقَالَ: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} وَلَيْسَ هَذَا الْحَيُّ مِثْلَ هَذَا الْحَيِّ لِأَنَّ قَوْلَهُ الْحَيَّ اسْمٌ لِلَّهِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَقَوْلَهُ: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} اسْمٌ لِلْحَيِّ الْمَخْلُوقِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنْ التَّخْصِيصِ .

وَكَذَلِكَ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ عَلِيمًا حَلِيمًا وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ عَلِيمًا فَقَالَ: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} يَعْنِي إسْحَاقَ ، وَسَمَّى آخَرَ حَلِيمًا فَقَالَ: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} يَعْنِي إسْمَاعِيلَ وَلَيْسَ الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ وَلَا الْحَلِيمُ كَالْحَلِيمِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ: {إنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ: {إنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} وَلَيْسَ السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ

وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ كَمَا وَصَفَ عَبْدَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} وَقَالَ {إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا} وَلَيْسَ الْمَكْرُ كَالْمَكْرِ وَلَا الْكَيْدُ كَالْكَيْدِ .

ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالْغَضَبِ فَقَالَ: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ: {فَرَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} وَلَيْسَ الْغَضَبُ كَالْغَضَبِ ، ووَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى غَيْرِهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} وَقَوْلِهِ: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} وَلَيْسَ الِاسْتِوَاءُ كَالِاسْتِوَاءِ . ووَصَفَ نَفْسَهُ بِبَسْطِ الْيَدَيْنِ فَقَالَ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِبَسْطِ الْيَدِ فِي قَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} وَلَيْسَ الْيَدُ كَالْيَدِ وَلَا الْبَسْطُ كَالْبَسْطِ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ الْإِعْطَاءَ وَالْجُودَ: فَلَيْسَ إعْطَاءُ اللَّهِ كَإِعْطَاءِ خَلْقِهِ وَلَا جُودُهُ كَجُودِهِمْ وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَلَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَنَفْيِ مُمَاثَلَتِهِ بِخَلْقِهِ فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِلَّهِ عِلْمٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا رَحْمَةٌ وَلَا كَلَامٌ وَلَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى وَلَا نَادَى وَلَا نَاجَى وَلَا اسْتَوَى: كَانَ مُعَطِّلًا جَاحِدًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ . وَمَنْ قَالَ لَهُ عِلْمٌ كَعِلْمِي أَوْ قُوَّةٌ كَقُوَّتِي أَوْ حُبٌّ كَحُبِّي أَوْ رِضَاءٌ كَرِضَايَ أَوْ يَدَانِ كيداي أَوْ اسْتِوَاءٌ كَاسْتِوَائِي كَانَ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْحَيَوَانَاتِ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتٍ بِلَا تَمْثِيلٍ وَتَنْزِيهٍ بِلَا تَعْطِيلٍ .[1]

---

[1] – مجموع الفتاوى (3/ 9–17) باختصار .

فإذا كان المخلوق يشترك مع المخلوقين في الاسم مع أن الحقيقة تختلف عن الحقيقة والذات تختلف عن الذات فالخالق عز وجل أبعد عن المماثلة فلا خشية من إثبات الصفات له عز وجل. حتى ولو شابهت صفات المخلوقين في اللفظ لكن المعني غير المعني والذات غير الذات.

ومن أجل إيضاح تلك القاعدة لابد من الرجوع إلي قضية لغوية :

فاعلم وفقك الله أن الألفاظ منها ما هو مترادف ومنها ما هو مشترك ومنها ما هو متباين ومنها ما هو متواطئ .

فالمترادف هو ما اختلف لفظه واتحد معناه ، يعني ذات واحدة ولكن أسماؤها مختلفة مثلا الأسد والغضنفر والليث وأسامة وقسورة ، هذه أسماء مختلفة لذلك تسمي في اللغة أسماء مترادفة وإن اختلفت في اللفظ لكن تدل علي شيء واحد.

أما المشترك فهو ما اتحد لفظه واختلف معناه فهو عكس الأول ، يعني كلمة واحدة لكن تدل علي أشياء مختلفة ، مثل (عين) فهي تطلق علي العين الباصرة ، وتطلق علي عين الماء وتطلق علي الجاسوس وتطلق علي الحسد ، فهذه لفظة واحدة ولكن تستعمل بمعان مختلفة.

أما المتباين فهو ما اختلف لفظه ومعناه ، مثل السماء والأرض فاللفظ مختلف والمعني مختلف، فالاسم والمسمي كلاهما مختلفان .

الأسماء المتواطئة تشترك في اللفظ والمعنى. أما المشتركة فإنها متفقة اللفظ مختلفة المعنى.

والمتواطئ نوعان تواطؤ مطلق ، وتواطؤ مشكك.

التواطؤ المطلق: إذا كان المعني متساويا في الجميع ، فيقال لفظ الرجل مثلا فزيد رجل وعمرو رجل فالمعني متساو في الجميع وهي الرجولة .

أما التواطؤ المشكك: فإذا كان المعني متفاوتا ، وسمي بالمشكك لتشكك السامع هل اللفظ من قبيل المتواطئ أم من قبيل المشترك ؟ مثلا لو قلت: النور ، عندنا نور الشمس ونور السراج ، فمعني النور في الاثنين واحد، ولكن هناك تفاوت وتفاضل، فهناك فرق بين الشمس والمصباح .

قال شيخ الإسلام: " الْأَسْمَاءُ الْمُتَّفِقَةُ اللَّفْظُ قَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مُتَّفِقًا وَهِيَ الْمُتَوَاطِئَةُ وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مُتَبَايِنًا وَهِيَ الْمُشْتَرَكَةُ اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا كَلَفْظِ سُهَيْلٍ الْمَقُولِ عَلَى الْكَوْكَبِ وَعَلَى الرَّجُلِ وَقَدْ يَكُونُ

مَعْنَاهَا مُتَّفِقًا مِنْ وَجْهٍ مُخْتَلِفًا مَنْ وَجْهٍ فَهَذَا قِسْمٌ ثَالِثٌ لَيْسَ هُوَ كَالْمُشْتَرَكِ اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا وَلَا هُوَ كَالْمُتَّفِقَةِ الْمُتَوَاطِئَةِ فَيَكُونُ بَيْنَهَا اتِّفَاقٌ هُوَ اشْتِرَاكٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ هُوَ اخْتِلَافٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ وَجْهٍ وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إلَّا إذَا خُصَّ كُلُّ لَفْظٍ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُخْتَصِّ "[1].

فالأسماء التي تطلق علي الله وعلي العباد هي من الأسماء المتواطئة التواطؤ المشكك، فالحق فيها أن يقال أنه بالنسبة للأسماء التي تطلق علي الله وعلي العباد كالحي والسميع والبصير والعلم والحياة ، هي حقيقة في الرب وحقيقة في العبد ولكن للرب تعالي منها ما يليق به عز وجل وللعبد منها ما يليق به .

قال ابن القيم رحمه الله :

" اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها: فقالت: طائفة من المتكلمين هي حقيقة في العبد مجاز في الرب وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادا . الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد وهذا قول أبي العباس الناشئ . الثالث: أنها حقيقة فيهما وهذا قول أهل السنة وهو الصواب واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله وللعبد منها ما يليق به .

والاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

– اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد

– اعتباره مضافا إلى الرب مختصا به

– اعتباره مضافا إلى العبد مقيدا به . فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتا للرب والعبد وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات والعليم والقدير وسائر الأسماء فإن شرط صحة إطلاقها

---

[1] – مجموع الفتاوى [20/ 427]

حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه بل ثبتت له على وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل . وهذا طريق أهل السنة .

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولا به مفتقرا إليه محاطا به كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى .

وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين آفة التعطيل وآفة التشبيه ؛ فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه "[1]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالي

" سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءِ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءِ؛ وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إذَا أُضِيفَتْ إلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَسَمَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءِ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إلَيْهِمْ تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ إذَا قُطِعَتْ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ؛ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ

[1] – بدائع الفوائد (1/ 164–166)

الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ: اتِّفَاقُهُمَا وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ "[1].

وقال الشنقيطي رحمه الله :

" بمجرد إضافة الصفة إليه، جل وعلا، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق، وبين شيء من صفات المخلوقين، وهل ينكر عاقل، أن السابق إلى الْفَهْمِ الْمُتَبَادِرِ لِكُلِّ عَاقِلٍ: هُوَ مُنَافَاةُ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ فِي ذَاتِهِ، وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ، لَا وَاللَّهِ لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا مُكَابِرٌ .

وَالْجَاهِلُ الْمُفْتَرِي الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ ظَاهِرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ كُفْرٌ وَتَشْبِيهٌ – إِنَّمَا جَرَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ تَنْجِيسُ قَلْبِهِ، بِقذرِ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَأَدَّاهُ شُؤْمُ التَّشْبِيهِ إِلَى نَفْيِ صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهَا، مَعَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، هُوَ الَّذِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ، فَكَانَ هَذَا الْجَاهِلُ مُشَبِّهًا أَوَّلًا، وَمُعَطِّلًا ثَانِيًا، فَارْتَكَبَ مَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، وَلَوْ كَانَ قَلْبُهُ عَارِفًا بِاللَّهِ كَمَا يَنْبَغِي، مُعَظِّمًا لِلَّهِ كَمَا يَنْبَغِي، طَاهِرًا مِنْ أَقْذَارِ التَّشْبِيهِ – لَكَانَ الْمُتَبَادِرُ عِنْدَهُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِهِ: أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، بَالِغٌ مِنَ الْكَمَالِ، وَالْجَلَالِ مَا يَقْطَعُ أَوْهَامَ عَلَائِقِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَيَكُونُ قَلْبُهُ مُسْتَعِدًّا لِلْإِيمَانِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ الثَّابِتَةِ لِلَّهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، مَعَ التَّنْزِيهِ التَّامِّ عَنْ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ الْخَلْقِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَلَوْ قَالَ مُتَنَطِّعٌ: بَيِّنُوا لَنَا كَيْفِيَّةَ الِاتِّصَافِ بِصِفَةِ الِاسْتِوَاءِ وَالْيَدِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ لِنَعْقِلَهَا، قُلْنَا: أَعَرَفْتَ كَيْفِيَّةَ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ؟

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: لَا، فَنَقُولُ: مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ الِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الذَّاتِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ أَنْ يُحْصِيَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ هُوَ، كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

فَتَحَصَّلَ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ الصِّفَاتِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا مُتَرَكِّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ:

---

[1] – مجموع الفتاوى (3/ 10)

الْأَوَّلُ: تَنْزِيهُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ.

وَالثَّانِي: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِثْبَاتًا، أَوْ نَفْيًا ; وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَشُكُّونَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا كَانَ يَشْكُلُ عَلَيْهِمْ "[1].

وقد اتفق أهل السنة والجماعة علي إثبات صفات الله وأسمائه سبحانه وتعالي بغير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، وأصل الخطأ أن يتوهم أن الاسم لما اشترك سيكون فيه تشبيه ، وهذا منفي فإن لكل منهما ما يليق به ويناسبه.

والأساس الثالث الذي يقوم عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته :

هو قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله ، وذلك لأسباب :

أولا أن الله عز وجل لم يطلع الخلق علي ذاته ولا أرانا ذاته فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم (تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ)[2]

ثانيا: أن الله لم يخبرنا عن ذاته من جهة الكيفية .

ثالثا: أن الله لم يكلف العباد أصلا بمعرفة الكيفية ولا تعبدنا بمعرفة الكيفية ولا أراد ذلك منا بل إنه أخبر أن ذلك مما يختص به عز وجل فقال (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا). (طه-110)

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله

" إِدْرَاك حَقِيقَة الْكَيْفِيَّة مُسْتَحِيل وَهَذَا نَص الله عَلَيْهِ فِي سُورَة طه حَيْثُ قَالَ (يعلم مَا بَين أَيْديهم وَمَا خَلفهم وَلَا يحيطون بِهِ علما) فَقَوله (يحيطون بِهِ) فعل مضارع وَالْفِعْل الصناعي الَّذِي يُسمى بِالْفِعْلِ الْمُضَارع وَفعل الْأَمر وَالْفِعْل الْمَاضِي ينْحَل عِنْد النَّحْوِيين عَن مصدر وزمن . وَقد حرر عُلَمَاء البلاغة فِي مَبْحَث الِاسْتِعَارَة التّبعِيَّة أَنه ينْحَل عَن (مصدر وزمن وَنسبَة) فالمصدر كامن فِي مَفْهُومه إِجْمَاعًا ؛ فـــ (يحيطون) تكمن فِي مفهومها (الْإِحَاطَة) فيتسلط النَّفْي على

---

[1] – أضواء البيان (2/ 30-31)

[2] – رواه مسلم (2931)

الْمصدر الكامن فِي الْفِعْل فَيكون مَعَه كالنكرة المبنية على الْفَتْح فَيصير الْمَعْنى : " لَا إحاطة للْعلم البشري بِرَبّ السَّمَوَات وَالْأَرْض " فينفي جنس أَنْوَاع الْإِحَاطَة عَن كيفيتها ، فالإحالة المسندة للْعلم منفية عَن رب الْعَالمين .

فَلَا يشكل عَلَيْكُم بعد هَذَا صفة نزُول وَلَا مَجِيء وَلَا صفة يَد وَلَا أَصَابِع وَلَا عجب وَلَا ضحك لِأَن هَذِه الصِّفَات كلهَا من بَاب وَاحِد فَمَا وصف الله بِهِ نَفسه مِنْهَا فَهُوَ حق وَهُوَ لَائِق بِكَمَالِهِ وجلاله لَا يشبه شَيْئا من صِفَات المخلوقين وَمَا وصف بِهِ الْمَخْلُوق مِنْهَا فَهُوَ حق مُنَاسِب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم . وهَذَا الْكَلَام الْكثير أوضحه الله فِي كَلِمَتَيْنِ (لَيْسَ كمثله شَيْء وَهُوَ السَّمِيع الْبَصِير) لَيْسَ كمثله شَيْء تَنْزِيه بِلَا تَعْطِيل ، وَهُوَ السَّمِيع الْبَصِير إِيمَان بِلَا تَمْثِيل . فَيجب من أول الْآيَة وَهُوَ (لَيْسَ كمثله شَيْء) التَّنْزِيه الْكَامِل الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَعْطِيل ، وَيلْزم من قَوْله (وَهُوَ السَّمِيع الْبَصِير) الْإِيمَان بِجَمِيعِ الصِّفَات الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَمْثِيل ، فَأول الْآيَة تَنْزِيه وَآخِرهَا إِثْبَات وَمن عمل بالتنزيه الَّذِي فِي لَيْسَ كمثله شَيْء وَالْإِيمَان الَّذِي فِي قَوْله وَهُوَ السَّمِيع الْبَصِير وَقطع النّظر عَن إِدْرَاك الكنه والحقيقة الْمَنْصُوص فِي قَوْله (وَلَا يحيطون بِهِ علما) خرج سالما .

وَقد ذكرت لكم مرَارًا أَنِّي أَقُول هَذِه الأسس الثَّلَاثَة الَّتِي ركزنا عَلَيْهَا الْبَحْث وَهِي : تَنْزِيه الله عَن مشابهة الْخلق ، والْإِيمَان بِالصِّفَاتِ الثَّابِتَة بِالْكتاب وَالسّنة وَعدم التَّعَرُّض لنفيها وَعدم التهجم على الله بِنَفْي مَا أثْبته لنَفسِهِ ، وَقطع الطمع عَن إِدْرَاك الْكَيْفِيَّة ، فلَو متم يَا إِخْوَانِي وَأَنْتُم على هَذَا المعتقد أَتَرَوْنَ الله يَوْم الْقِيَامَة يَقُول لكم لم نزهتموني عَن مشابهة الْخلق ؟ ويلوموكم على ذَلِك لَا وكلا وَالله لَا يلومكم على ذَلِك ، أَتَرَوْنَ أَنه يلومكم على أَنكُمْ آمنتم بصفاته وصدقتموه فِيمَا أثنى بِهِ على نَفسه وَيَقُول لكم لم أثبتم لي مَا أثبت لنَفْسِي أَو أثْبته لي رَسُولي ؟! لَا وَالله لَا يلومكم على ذَلِك وَلَا تَأْتيكُمْ عَاقِبَة سَيِّئَة من ذَلِك .

كَذَلِك لَا يلومكم الله يَوْم الْقِيَامَة وَيَقُول لكم لم قطعْتُمْ الطمع عَن إِدْرَاك الْكَيْفِيَّة وَلم تحددوني بكيفية مدركة .

ثمَّ إننا نقُول : لَو تنطع متنطع وَقَالَ : نَحن لَا ندرك كَيْفيَّة (نزُول) منزهة عَن نزُول الْخلق وَلَا ندرك كَيْفيَّة (يَد) منزهة عَن أَيدي الْخلق وَلَا ندرك كَيْفيَّة (اسْتِوَاء) منزهة عَن استواءات الْخلق فبينوا لنا كَيْفيَّة معقولة منزهة تدركها عقولنا .

فَنَقُول : أَولا : هَذَا السُّؤَال الَّذِي قَالَ فِيهِ مَالك بن أنس : وَالسُّؤَال عَن هَذَا بِدعَة . وَلَكِن نجيب فنقُول أعرفت أَيهَا السَّائِل المتنطع كَيْفيَّة الذَّات المقدسة الْكَرِيمَة المتصفة بِصفة النُّزُول وَصفَة الْيَد وَصفَة الاسْتوَاء وَصفَة السّمع وَالْبَصَر وَالْقُدْرَة والإرادة وَالْعلم ؟ فَلَا بُد أَن يَقُول لَا فَنَقُول : معرفَة كَيْفيَّة الصّفة متوقفة على معرفَة كَيْفيَّة الذَّات ، إِذْ الصِّفَات تخْتَلف باخْتلَاف موصوفاتها ... "[1]

رابعا: لأن العقل الذي وهبنا الله إياه لا يمكن أن يتصور كيفية صفات الله ، فالعقل لا يتحمل ذلك وعلم الإنسان محدود (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا). (الإسراء–85). إذا كانت أرواحنا لا نعرف عنها شيئا فكيف نعرف صفات الخالق ؟!

والله عز وجل علمنا وأدبنا في الأمور التي ليس لنا بها علم فقال (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا).(الإسراء–36) وجعل من الكبائر (أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ).(البقرة–169) وبما أن الله أخبرنا عن صفاته وما أخبرنا عن الكيفية فلابد أن نؤمن بها ونعرف معناها ونترك الكيفية؛ فيجب الكف عن التكييف تطهيرا بالجنان وتقريرا باللسان وتحريرا بالبنان ، فلا يجوز أن تخوض في كيفية الصفة لا بجنانك أي بخيالاتك ولا بلسانك.

هذا هو ما يجب علي المسلم أن يحذر منه وهو الخوض في التكييف والدخول في الكيفية ، فإن ألقي الشيطان في مخيلاته شيئا من تكييف الصفات فنقول له (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). (الأعراف–200) .

[1] – منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات – للشنقيطي (ص: 43–46)

ومن جهة أخري فإن عدم العلم بكيفية الصفات لا يقدح في العلم بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها ، قد يتصور البعض أن عدم معرفة الكيفية يقتضي نقص الإيمان وأنه لابد للإيمان من معرفة الكيفية ، فنقول لا ، فعدم المعرفة بالكيفية لا يقدح في الإيمان بالأسماء والصفات ومعرفة معانيها بأي وجه من الوجوه.

إذاً نثبت ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات ، ونثبت معانيها رغم أنف هؤلاء المعطلة ونقطع الطمع عن إدراك الكيفية ، ونعلم أن عدم إدراك الكيفية لا يضر بإيماننا.

شهادة أن لا إله إلا الله .

هذه الكلمة هي أصل الدين وأساسه ومعناها أنه لا معبود بحق إلا الله كما بين الله تعالي في آيات كثيرة كقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). (الفاتحة–5) وفي قوله : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ).(الإسراء–23) وفي قوله (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ).(البينة–5) إلي غير ذلك من الآيات ، وكذا الأحاديث التي تضمنت إبطال عبادة غير الله وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له ، فشهادة ألا إله إلا الله هي توحيد العبادة ، فيخطئ من يفسر لا إله إلا الله بأنها : لا رب إلا الله ، ويخطئ من يفسرها : لا مطاع بحق إلا الله ، إذ لو كان هذا معني الشهادة فما أنكرها المشركون فهم يعلمون أن الله ربهم وخالقهم فإذا قالوا لا رب إلا الله فنحن وإياهم متفقون على ذلك ، فلماذا نقاتلهم وعلي أي شيء نعاديهم ؟

لذلك هم لم ينكروا التوحيد لأجل هذين المعنيين وإنما أنكروه لأن معناه أن عبادة آلهتهم باطلة ولذلك رفضوا أن يقولوا : لا إله إلا الله .

أما بالنسبة لإعرابها :

(لا) نافية للجنس، و(إله) اسمها مبني على الفتح، و(إلا) أداة استثناء، و(الله) لفظ الجلالة ليس خبراً لـ(لا)؛ لأنه لا يصلح أن يكون خبراً لها لفظاً ولا معنى، أما كونه لا يصلح لفظاً فلأن (لا) لا تعمل إلا في النكرات. ولفظ الجلالة (الله) معرفة، فلا يمكن أن تعمل فيه (لا) من حيث اللفظ واللغة.

وأما من حيث المعنى فكذلك؛ لأنا إن جَعْلنَا لفظ الجلالة خبراً اقتضى إقراراً لمعبوداتٍ من دون الله، لأن المعنى يكون: لا معبود إلا الله وهذا ليس بصحيح، فهناك معبودات كثيرة غير الله عز وجل، ولهذا احتاج العلماء إلى تقدير خبر لهذه الجملة، واختلفوا في تقدير الخبر، فمنهم من قال: (لا إله) أي: لا معبود في الوجود ، ومنهم من قال: (لا إله حق) وهذا التقدير هو الصحيح .

فيكون المعنى: لا معبود بحق إلاّ الله تعالى.

يعني: لا إله يقصد بشيء من العبادة وهو مستحق لها وأهل لتلك العبادة إلا الله، فإنه هو المستحق للعبادة دون غيره: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [الحج:62] [1]

فالتقدير عند المحققين : (لا معبود بحق إلا الله)

قال الشيخ ابن باز رحمه الله :

" والصواب أن معناها : (لا معبود بحق إلا الله) , وهو الذي دل عليه كتاب الله سبحانه في مواضع من القرآن الكريم ، وهو الذي فهمه المشركون من هذه الكلمة حين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إليها , وقال : « يا قومي قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » فأنكروا ذلك , واستكبروا في قبوله , لأنهم فهموا أن ذلك يخالف ما عليه آباؤهم من عبادة الأصنام والأشجار والأحجار , وتأليههم لها , كما ذكر الله عز وجل في قوله سبحانه في سورة (ص) : { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } وقال سبحانه وتعالى في سورة الصافات عن المشركين : { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } فعلم من ذلك أنهم فهموا معناها بأنها تبطل آلهتهم وتوجب تخصيص العبادة لله وحده , ولهذا لما أسلم من أسلم منهم , ترك ما هو عليه من الشرك , وأخلص العبادة لله وحده , ولو كان معناها : لا رب إلا الله . أو لا مطاع إلا الله , لما أنكروا هذه الكلمة , فإنهم يعلمون أن الله ربهم وخالقهم , وأن طاعته واجبة عليهم , فيما

---

[1] – شرح الأصول الثلاثة – للمصلح [4 /5]

علموا أنه من عنده سبحانه , ولكنهم كانوا يعتقدون أن عبادة الأصنام والأنبياء , والملائكة والصالحين , والأشجار ونحو ذلك على وجه الاستشفاع بها إلى الله , ورجاء أن تقربهم إليه زلفى كما ذكر الله ذلك عنهم سبحانه في قوله الكريم : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } . فأبطل الله ذلك ورده عليهم بقوله سبحانه : { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } وفي قوله عز وجل : { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }

والمعنى أنهم يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى , فرد الله عليهم ذلك بقوله سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } .

فبين سبحانه بذلك أنهم كاذبون في زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى , كافرون بهذا العمل . والآيات في هذا المعنى كثيرة "[1].

وكذلك فإن شهادة أن لا إله إلا الله على مراتب :-

المرتبة الأولى :- مرتبة العلم . فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له به قال الله تعالى: إِلا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [الزخرف:86]

المرتبة الثانية :- التكلم والخبر. فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به وإن لم يتلفظ بالشهادة قال تعالى: (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) [الأنعام:150] وقال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) [الزخرف:19]

فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم. وشهادة الزور هي قول الزور كما قال تعالى: (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ

[1] – مجموع فتاوى ابن باز (2 /5-7)

الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج:30] وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ) [النساء:135] .

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد دخل في الإسلام وشهد شهادة الحق .

المرتبة الثالثة :- مرتبة الإعلام والإخبار وهي نوعان: إعلام بالقول وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله وتارة بفعله؛ ولهذا كان من جعل دارا مسجدا وفتح بابها لكل من دخل إليها وأذن بالصلاة فيها معلما أنها وقف وإن لم يتلفظ به .

وبيانه سبحانه وإعلامه بفعله هو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة وهذا أيضا يستعمل فيه لفظ الشهادة كما يستعمل فيه لفظ الدلالة والإرشاد والبيان ؛ فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره كما يبينه الشاهد والمخبر بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ وقد يسمى شاهد الحال نطقا وقولا وكلاما لقيامه مقامه وأدائه مؤداه ؛ كما قيل:

وقالت له العينان سمعا وطاعة ** وحدرتا بالدر لما يثقب

وقال الآخر:

شكا إلي جملي طول السرى ** صبرا جميلي فكلانا مبتلى

المرتبة الرابعة :- الأمر والإلزام. كما في قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(الإسراء-23) وقال تعالى: (وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ) [النحل:51] وقال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة: 5]

والقرآن كله شاهد بذلك ، ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل وإثباتها

أظلم الظلم فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها .

فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده .

وأيضا فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية فيقال للجملة الخبرية قضية وحكم وقد حكم فيها بكيت وكيت قال تعالى: (أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [الصافات: 151] فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما وقال في موضع آخر: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [القلم : 35–36] لكن هذا حكم لا إلزام معه والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن للإلزام .[1]

أما أركان لا إله إلا الله فاثنان : أولا نفى ، ثانيا إثبات .

فالنفى فى قوله (لا إله) حيث نفى الألوهية الحقة عن جميع ما يعبد من دون الله . والإثبات فى قوله (إلا الله) فأثبت العبادة له وحده لا شريك له.

أما شروطها :

فشروط لا إله إلا الله مشهورة ومعروفة ، وتكلم عليها عدد من العلماء:

أولا :– العلم المنافى للجهل قال تعالى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) (محمد–19).

وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)[2]

ثانيا :– اليقين المنافى للشك . بأن يستيقن بأن هذه الكلمة حق، وما دلت عليه هو الحق، وكل ما سواه فهو باطل. قال عز وجل (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).(الحجرات–15)) وقال صلى الله عليه وسلم (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ

[1] – راجع : مدارج السالكين (3/451–455)

[2] – رواه مسلم (4497)

الْجَنَّةَ)[1] وفى الرواية الأخرى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هُرَيْرَةَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ – وَأَعْطَاه نَعْلَيْهِ – قَالَ (اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ)[2]

ثالثا:– الإخلاص المنافى للشرك كما قال الله عز وجل (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)(البينة–5) وقال (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ).(الزمر–3) ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ – أَوْ نَفْسِهِ)[3]

رابعا :– الصدق المنافى للكذب ؛ كما قال الله عز وجل (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). (الزمر–33) فسر ابن عباس الصدق فى الآية بـ "لا إله إلا الله"[4] . ويدل عليه أيضا حديث النبى عليه الصلاة والسلام (مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ)[5]

خامسا :– المحبة المنافية للبغض قال عز وجل : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ). (المائدة–54) ، وعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[6]

سادسا:– الانقياد لها ظاهرا وباطنا كما قال الله تعالى (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).(لقمان–22)

وقوله تعالى : {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر: 54]

---

[1] – رواه مسلم (27)

[2] – رواه مسلم (31)

[3] – رواه البخاري (99)

[4] – تفسير الطبري (289/21)

[5] – متفق عليه واللفظ للبخاري

[6] – متفق عليه.

سابعا :- القبول المنافي للرد ، بأن يقبل بقلبه ولسانه كل ما اقتضته هذه الكلمة، ويرد كل ما خالفها. قال تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ).(الصافات-22) إلى قوله (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ). (الصافات-35)) أى لا يقبلونها فهذه هي شروط " لا إله إلا الله ".

الإيمان

- الإيمان لغة :- مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن ، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية ، وهو من الأمن ضد الخوف . قال شيخ الإسلام : اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد .[1]

وقال ابن عثيمين رحمه الله : الإيمان لغة : الإقرار بالشيء عن تصديق به .[2]

وله في لغة العرب استعمالان:

1- فتارة يتعدى بنفسه فيكون معناه التأمين أي إعطاء الأمان، وآمنته ضد أخفته، وفي الكتاب العزيز: (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: 4] فالأمن ضد الخوف وفي الحديث الصحيح : (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ)[3]

وقوله عز وجل: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً) [البقرة: 125] أراد : ذا أمن فهو آمن وأمن وأمين ، وقال تعالى: (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) [التين: 3] أي الآمن يعني مكة.

2- وتارة يتعدى بالباء أو اللام فيكون معناه التصديق. قال تعالى: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف: 17] أي بمصدق، آمنت بكذا، أي صدقت. والمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر.

---

[1] - الصارم المسلول (ص: 519)

[2] - شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (ص: 54)

[3] - رواه مسلم (2531)

والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة، وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق.

وقال عز وجل: (يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: 61]، وقال تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) [البقرة: 75]

ولكن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى رأي آخر في معنى الإيمان اللغوي؛ حيث اختار معنى (الإقرار) للإيمان. لأنه رأى أن لفظة (أقر) أصدق في الدلالة والبيان على معنى الإيمان الشرعي من غيرها؛ قال رحمه الله:

" فَكَانَ تَفْسِيرُهُ بِلَفْظِ الْإِقْرَارِ أَقْرَبَ مِنْ تَفْسِيرِهِ بِلَفْظِ التَّصْدِيقِ مَعَ أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا.

والإيمان لَيْسَ مُرَادِفًا لِلَفْظِ التَّصْدِيقِ فِي الْمَعْنَى فَإِنَّ كُلَّ مُخْبِرٍ عَنْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ غَيْبٍ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ: صَدَقْت كَمَا يُقَالُ: كَذَبْت. فَمَنْ قَالَ: السَّمَاءُ فَوْقَنَا قِيلَ لَهُ: صَدَقَ كَمَا يُقَالُ: كَذَبَ وَأَمَّا لَفْظُ الْإِيمَانِ فَلَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا فِي الْخَبَرِ عَنْ غَائِبٍ لَمْ يُوجَدْ فِي الْكَلَامِ أَنَّ مَنْ أَخْبَرَ عَنْ مُشَاهَدَةٍ؛ كَقَوْلِهِ: طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ أَنَّهُ يُقَالُ: آمَنَّاهُ كَمَا يُقَالُ: صَدَّقْنَاهُ وَلِهَذَا؛ الْمُحَدِّثُونَ وَالشُّهُودُ وَنَحْوُهُمْ؛ يُقَالُ: صَدَّقْنَاهُمْ؛ وَمَا يُقَالُ آمَنَّا لَهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ مُشْتَقٌّ مِنْ الْأَمْنِ. فَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي خَبَرٍ يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ الْمُخْبِرُ كَالْأَمْرِ الْغَائِبِ الَّذِي يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ الْمُخْبِرُ؛ وَلِهَذَا لَمْ يُوجَدْ قَطُّ فِي الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ لَفْظُ آمَنَ لَهُ إلَّا فِي هَذَا النَّوْعِ؛ وَالِاثْنَانِ إذَا اشْتَرَكَا فِي مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ يُقَالُ: صَدَّقَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ وَلَا يُقَالُ: آمَنَ لَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَائِبًا عَنْهُ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} . {آمَنْتُمْ لَهُ} . {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} فَيُصَدِّقُهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِمَّا غَابَ عَنْهُ وَهُوَ مَأْمُونٌ عِنْدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

فَاللَّفْظُ مُتَضَمِّنٌ مَعنى التَّصْدِيقِ وَمَعْنَى الِائْتِمَانِ وَالْأَمَانَةِ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الِاسْتِعْمَالُ وَالِاشْتِقَاقُ وَلِهَذَا قَالُوا: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا} أَيْ لَا تُقِرُّ بِخَبَرِنَا وَلَا تَثِقُ بِهِ وَلَا تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عِنْدَهُ مِمَّنْ يُؤْتَمَنُ عَلَى ذَلِكَ. فَلَوْ صَدَقُوا لَمْ يَأْمَنْ لَهُمْ... "[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: " أكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة: التصديق، ولكن في هذا نظر! لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فنقول مثلاً: صدقته، ولا تقول آمنته! بل تقول: آمنت به، أو آمنت له. فلا يمكن أن نفسر فعلاً لازماً لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت) فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت).

ولهذا؛ لو فسر (الإيمان) بـ(الإقرار) لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فتقول أقر به، كما تقول: آمن به، وأقر له كما تقول: آمن له "[2] .

فالمعنى المختار للإيمان لغة: هو الإقرار القلبي: ويكون الإقرار: باعتقاد القلب: أي تصديقه بالأخبار. وعمل القلب: أي إذعانه وانقياده للأوامر.

الإيمان شرعا :-

هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئناناً تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه.

وأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم رسول الله، وخاتم النبيين، وقبول جميع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا وعن دين الإسلام؛ من الأمور الغيبية، والأحكام

---

[1] – مجموع الفتاوى (7/ 291-292)

[2] – مجموع فتاوى ابن عثيمين (574/8)

الشرعية، وبجميع مفردات الدين، والانقياد له صلى الله عليه وسلم بالطاعة المطلقة فيما أمر به، والكف عما نهى عنه صلى الله عليه وسلم وزجر؛ ظاهراً وباطناً، وإظهار الخضوع والطمأنينة لكل ذلك. [1]

وذهب عامة أهل السنة إلى أن الايمان هو اعتقاد وقول وعمل .

قَالَ الإمام الشَّافِعِيُّ رحمه الله " وَكَانَ الْإِجْمَاعُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكْنَاهُمْ يَقُولُونَ : الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ لَا يُجْزِئُ وَاحِدٌ مِنْ الثَّلَاثِ إلَّا بِالْآخَرِ .

وَقَالَ حَنْبَلٌ : حَدَّثَنَا الحميدي قَالَ : وَأُخْبِرْت أَنَّ نَاسًا يَقُولُونَ : مَنْ أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَلَمْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا حَتَّى يَمُوتَ وَيُصَلِّيَ مُسْتَدْبِرَ الْقِبْلَةِ حَتَّى يَمُوتَ ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مَا لَمْ يَكُنْ جَاحِدًا إذَا عَلِمَ أَنَّ تَرْكَهُ ذَلِكَ فِيهِ إيمَانُهُ إذَا كَانَ مُقِرًّا بِالْفَرَائِضِ وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فَقُلْت : هَذَا الْكُفْرُ الصُّرَاحُ وَخِلَافُ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ . [2]

وقال أبو بكر الآجري رحمه الله :

" نَقُولُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَوْلًا يُوَافِقُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةِ، وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يُسْتَوْحَشُ مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُمْ: إِنَّ الْإِيمَانَ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ تَصْدِيقًا يَقِينًا، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إِلَّا [ص:687] بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ، لَا يُجْزِئُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ "[3]

وقال ابن بطة رحمه الله :

"بَابُ بَيَانِ الْإِيمَانِ وَفَرْضِهِ وَأَنَّهُ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ وَالْحَرَكَاتِ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهَذِهِ الثَّلَاثِ. قَالَ الشَّيْخُ: اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ , وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

---

[1] - راجع: حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة

[2] - مجموع الفتاوى [7 /209]

[3] - الشريعة (2/ 686)

فَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ الْمَعْرِفَةَ بِهِ , وَالتَّصْدِيقَ لَهُ وَلِرُسُلِهِ وَلِكُتُبِهِ , وَبِكُلِّ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ , وَعَلَى الْأَلْسُنِ النُّطْقُ بِذَلِكَ وَالْإِقْرَارُ بِهِ قَوْلًا , وَعَلَى الْأَبْدَانِ وَالْجَوَارِحِ الْعَمَلُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ , وَفَرَضَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ لَا تُجْزِئُ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ إِلَّا بِصَاحِبَتِهَا , وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِأَنْ يَجْمَعَهَا كُلَّهَا حَتَّى يَكُونَ مُؤْمِنًا بِقَلْبِهِ , مُقِرًّا بِلِسَانِهِ , عَامِلًا مُجْتَهِدًا بِجَوَارِحِهِ , ثُمَّ لَا يَكُونُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلسُّنَّةِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَيَعْمَلُهُ، مُتَّبِعًا لِلْكِتَابِ وَالْعِلْمِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ , وَبِكُلِّ مَا شَرَحْتُهُ لَكُمْ نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ , وَمَضَتْ بِهِ السُّنَّةُ , وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ "[1].

ولا فرق بين قول العلماء أن الإيمان قول وعمل أو قول وعمل ونية أو قول وعمل واعتقاد والسبب أن هذا من اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد . من قال من السلف ان الايمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب وعمل الجوارح.

ومن قال قول وعمل ونية فالقول عنده يتناول الاعتقاد وهو قول القلب وقول اللسان ؛ وأما العمل فلا يفهم منه النية عمل القلب فزاد ذلك فى التعريف.

فخلاصة ما سبق أن الايمان حقيقة مركبة من قول وعمل وأن القول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد . وقول اللسان وهو نطق كلمة الاسلام. والعمل قسمان عمل القلب وهو نيته وإخلاصه . وعمل الجوارح كالصلاة وغيرها .

فإذا زالت هذه الاربعة لا قول القلب ولا عمل القلب ولا قول اللسان ولا عمل الجوارح زال الايمان كله ؛ وإذا زال تصديق القلب لم تنفعه بقية الأربعة فإن تصديق القلب شرط فى اعتقادها وكونها نافعة . واذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق يعنى وجد تصديق للقلب وليس هناك عمل للقلب وليس هناك قول باللسان ولا عمل بالجوارح : فهذا ميدان المعركة بيننا وبين المرجئة. فأهل السنة يجمعون على زوال الايمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده .

---

[1] – الإبانة الكبرى (2/ 760–761)

كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل يقرون به سرا وجهرا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

مسألة : الإيمان فى القلب، محله الأصلى فى القلب، قال عز وجل (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وقال عز وجل (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم)

وقال عليه الصلاة والسلام (يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ)[1]

إلى غير ذلك من الادلة الصريحة الواضحة التى تنص على أن الإيمان فى القلب وأنه لا يصح الإيمان بدون إيمان القلب وهو شرط فى صحة الإيمان وأنه اذا وجد سرى إلى بقية الجوارح. ولا يكفى إيمان القلب بمجرد العلم والمعرفة والتصديق لله . ولا يكفى مجرد علم القلب أن الله واحد وأن الله خالق وأن محمدا رسول الله . ليس يكفى هذا بل لابد ان يكون هناك انقياد واستسلام وخضوع وإخلاص لله عز وجل مما يدخل تحت عمل القلب .

لو قال شخص أنا عارف وأنا مقر وأنا معترف ولكن لا أنقاد ولا أستسلم ولا أذعن ، هل يقال عن هذا : مؤمن ؟! الجواب : لا .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" الْإِيمَانَ " أَصْلُهُ الْإِيمَانُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ " شَيْئَيْنِ ": تَصْدِيقٍ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارِهِ وَمَعْرِفَتِهِ. وَيُقَالُ لِهَذَا: قَوْلُ الْقَلْبِ. قَالَ " الْجُنَيْد بْنُ مُحَمَّدٍ ": التَّوْحِيدُ: قَوْلُ الْقَلْبِ. وَالتَّوَكُّلُ: عَمَلُ الْقَلْبِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ وَعَمَلِهِ؛ ثُمَّ قَوْلُ الْبَدَنِ وَعَمَلِهِ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ مِثْلَ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةِ اللَّهِ وَحُبِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِخْلَاصِ

---

[1] – رواه الترمذي (2032)

الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَتَوَكُّلِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجَعَلَهَا مِنْ الْإِيمَانِ "[1].

وسيتضح لنا أن العلم والمعرفة والتصديق اى قول القلب الذى لم يصحبه الانقياد والاستسلام والخضوع وهو عمل القلب والجوارح لا يكون المرء مؤمنا بمجرده لأنه ترك الانقياد مع انه يعلمه وعنده معرفة فهذا كفر عن علم وبينة فهو يعرف ويكفر وهذا شر من الوثنى الذى لا يعرف شيئا.

يقول هذا عن علم وأنا أعلم وأعرف ولكن لا أخضع ولا أستسلم ولا أذعن .

والله تعالى شهد على قلوب بعض اليهود أنهم يعرفون النبي وما أنزل إليه كما يعرفون أبناءهم لكنهم لا يصدقونه بقلوبهم ؛ لا أحد أصدق شهادة على ما فى قلوبهم من الله .

قال الله تعالى عن أهل الكتاب :

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 146] ، وقال : {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: 89]

ولم يكن عندهم شك أنه رسول الله ، فمن جهة المعرفة كان عندهم معرفة ، ولكن لما لم يحصل منه إذعان وانقياد وإنما استكبر وأصر على ما هو عليه لم تنفعه تلك المعرفة .

وقد أخبر الله عن ابليس انه معترف بالله على أنه الخالق قال تعالى عنه (خلقتنى من نار)

ابليس معترف ان الله الذى خلقه من نار وان لله العزة وأنه حلف بها قال {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص: 82، 83]

فلماذا هو كافر ؟ لأنه لم يخضع لله ولم يستسلم ويستجب ويسجد ، فلم تنفعه معرفته بدون خضوع .

---

[1] – مجموع الفتاوى (7/ 186)

فهذه القلوب التى تعرف الله وتعرف نبيه لم يكتب لها اسم الايمان لمجرد علمها ومعرفتها بالحق فهذه المعرفة اذا لم يقارنها الخضوع لله ورسوله وطاعة الله ورسوله لا تنفع صاحبها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " لو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدا رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين. وقد قال تعالى: {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ} أي يعتقدون أنك صادق {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} وقال موسى لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} وقال تعالى عن اليهود: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}" [1]

مسألة :-

قول اللسان جزء من مسمى الإيمان، والمقصود بقول اللسان: الأعمال التي تؤدى باللسان: كالشهادتين والذكر وتلاوة القرآن والصدق والنصيحة والدعاء وغير ذلك مما لا يؤدى إلا باللسان وهذه الأعمال منها ما هو مستحب ومنها ما هو واجب ومنها ما هو شرط لصحة الإيمان .

ومن النصوص الدالة على أن قول اللسان يدخل في مسمى الإيمان :

1- قوله عز وجل: (قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [البقرة: 136]، ثم قال عز وجل: (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ) [البقرة: 137].

قال البيهقي رحمه الله :

" بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ التَّصْدِيقَ بِالْقَلْبِ، وَالْإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ كِلَاهُمَا شَرْطٌ فِي النَّقْلِ عَنِ الْكُفْرِ عِنْدَ عَدَمِ الْعَجْزِ " قَالَ اللهُ تَعَالَى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى

---

[1] - الصلاة وأحكام تاركها (ص: 50)

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} الْآيَةَ. " فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ " وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: 14] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْلَ الْعَارِيَ عَنِ الِاعْتِقَادِ لَيْسَ بِإِيمَانٍ ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيمَانٌ لَكَانُوا مُؤْمِنِينَ لِجَمْعِهِمْ بَيْنَ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ وَالْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَدَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ " [1]

2- وقال عز وجل في آية أخرى: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) [غافر: 84-85] هذا الإيمان منهم لما رأوا البأس لم ينقلهم من الكفر ولم ينفعهم فثبت أنه لو كان قبلها لنفعهم بأن ينقلهم من الكفر إلى الإيمان وبذلك يكون هذا القول منهم لو كان قبل رؤية البأس لكان إيمانا .

3- ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)[2]

فقد أخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن العصمة المزايلة للكفر تثبت بالقول فبذلك يثبت أن القول إيمان لأن الإيمان هو العاصم من السيف .

4- ومن الأحاديث أيضاً قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ)[3].

فهذا الحديث أصل في دخول الأعمال والأقوال في مسمى الإيمان .

---

[1] - شعب الإيمان (1/ 92)

[2] - متفق عليه

[3] - متفق عليه

مسألة :- الشهادتان أصل قول اللسان وهما شرط في صحة الإيمان:

اتفق أهل السنة على أن النطق بالشهادتين شرط لصحة الإيمان . قال الإمام النووي رحمه الله تعليقا على حديث (أمرت أن أقاتل الناس) :

" فِيهِ أَنَّ الْإِيمَانَ شَرْطُهُ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ اعْتِقَادِهِمَا وَاعْتِقَادِ جَمِيعِ مَا أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[1]

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَهُوَ كَافِرٌ "[2]

وقال أيضا : " فَأَمَّا " الشَّهَادَتَانِ " إذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِمَا مَعَ الْقُدْرَةِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ كَافِرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَجَمَاهِيرِ عُلَمَائِهَا وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُرْجِئَةِ وَهُمْ جهمية الْمُرْجِئَةِ: كَجَهْمِ وَالصَّالِحِيِّ وَأَتْبَاعِهِمَا إلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ مُصَدِّقًا بِقَلْبِهِ كَانَ كَافِرًا فِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَصْلِ هَذَا الْقَوْلِ وَهُوَ قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْبَاطِنَ يَسْتَلْزِمُ الْإِقْرَارَ الظَّاهِرَ؛ بَلْ وَغَيْرَهُ وَأَنَّ وُجُودَ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ تَصْدِيقًا وَحُبًّا وَانْقِيَادًا بِدُونِ الْإِقْرَارِ الظَّاهِرِ مُمْتَنِعٌ "[3].

فلو قال شخص : أنا في داخلي مؤمن . ولكن لا يريد أن ينطق بالشهادتين . نقول هو كافر ظاهرا وباطنا عند سلف الأمة وأئمتها.

إذاً لابد من النطق ولو أن شخصا رفض النطق فليس بمسلم ، والمقصود بالشهادتين كما لا يخفى ليس مجرد النطق بل التصديق لمعانيها وإخلاص العبادة لله، والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والإقرار ظاهراً وباطناً بما جاء به فهذه الشهادة هي التي تنفع صاحبها عند الله عز وجل، ولذلك ثبت في الأحاديث الصحيحة قوله صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه) وفي رواية (صدقاً) وفي رواية (غير شاك) ، (مستيقناً)، فهذه الألفاظ الموجودة

---

[1] – شرح النووي على مسلم (1/ 212)

[2] – مجموع الفتاوى (7/ 302)

[3] – مجموع الفتاوى (7/ 609)

في روايات هذا الحديث تدل دلالة واضحة علي أنه لابد من هذه الشروط مثل اليقين والصدق والإخلاص وعدم الشك .

فلو أن واحدا قال أنا لا أصلي ولا أركع ولا ركعة وأنا أقول لا إله إلا الله ، فنقول له إذا أنت كذاب لأنك إذا كنت صادقا وغير شاك فيها ومتيقنا من قلبك كنت تصلي ، فلو أنك قلتها من قلبك كيف لا تصلي ؟ يقال صل وإلا قتلناك. فيقول لا أصلي فيقال له أنت مسلم فيقول نعم وأنا أشهد ألا إله إلا الله ولكني لن أصلي يقال له ستقتل فيقول أقتل ولا أصلي ، فهل مثل هذا قالها من قلبه؟

قال القرطبي رحمه الله في المفهم على صحيح مسلم:-

" باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب .

هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ؛ ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعاً"[1]

وقال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعليقاً على قوله صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دونه حرم ماله ودمه، وحسابه على الله)[2] قال:

"وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع! "[3]

---

[1] – نقلا عن فتح المجيد (ص 36)

[2] – رواه مسلم (23)

[3] – فتح المجيد (ص: 111)

والمقصود من النقل السابق التأكيد على أن التلفظ بالشهادتين وحده لا يفي لصحة الإيمان والنجاة في الآخرة ما لم يقترن ذلك بخضوع وانقياد وتصديق وإخلاص على حسب ما جاء في النصوص الأخرى ، وأجمل عبارة مختصرة يمكن أن تقال بهذه المناسبة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: " وتواترت النصوص بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال "[1]

مسألة : صلة العلم بالعمل .

قلنا فيما سبق أن أعمال الجوارح داخلة في الإيمان ، فما الأدلة علي ذلك ؟

من الأدلة على ذلك : قول الله تعالي (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ).(البقرة–143) .

وعَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) [2] فسمي الصلاة إيمانا .

دليل آخر واضح ، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).(الأنفال–2) فهذا كله عمل القلب ثم قال (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).(الأنفال–3) فهذه إشارة إلي أن الأعمال المذكورة من واجبات الإيمان.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا إِنَّا مِنْ هَذَا الْحَيِّ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَمُرْنَا بِشَيْءٍ نَأْخُذْهُ عَنْكَ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا فَقَالَ (آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَأَنْ تُؤَدُّوا إِلَيَّ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ ، وَأَنْهَى عَنْ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُقَيَّرِ وَالنَّقِيرِ)[3]. فهذا دليل علي أن الأعمال داخلة في الإيمان.

---

[1] – نواقض الإيمان الاعتقادية (38/1)

[2] – رواه البخاري (4486)

[3] – متفق عليه

وعن أنس بن مالك قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في الخطبة: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[1]

فلولا أن الأمانة داخلة في الإيمان ما قال صلي الله عليه وسلم هذه العبارة ، فالطهور شطر الإيمان ، وحسن العهد من الإيمان .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ وَأَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ)[2]

فكل هذه أدلة علي أن الأعمال داخلة في الإيمان ، والطاعات وأعمال الجوارح داخلة في الإيمان وأن التقصير والإخلال بها يضر بالإيمان .

مسألة : لو قال شخص ما علاقة الإيمان بالإسلام ، والإسلام بالإيمان ؟

من العلماء من قال هما واحد ومنهم من فرق بينهما ، المسألة فيها نقاش طويل ، ولكن لنذكر خلاصته.

أولا:– أصل الإيمان هو التصديق ، والخضوع والانقياد تابع للتصديق ، لا حظ الفرق ما قلنا أن الإيمان هو التصديق فقط فالتصديق هو الأصل والخضوع والانقياد يأتي بعده .

وأصل الإسلام الخضوع والانقياد ، لأن الإسلام معناه الاستسلام لله ومنه الأركان الخمسة ، ولذلك نجد في أكثر النصوص إطلاق الإيمان علي الباطن والإسلام علي الظاهر ، ومن ذلك حديث جبريل ذكر الإيمان علي الباطن والإسلام علي الظاهر ، فقال : (الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ) وهذه كلها قضايا داخلية باطنية .

ثم قال (الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ)[3] . وهذه كلها أعمال ظاهرة .

ثانيا :– لم يرد في النصوص الوعد بالجنة على الإسلام المطلق، كما في الإيمان المطلق.

---

[1] – رواه ابن حبان (194) وصححه الألباني في صحيح الجامع (7179)

[2] – رواه الترمذي (2521) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي

[3] – متفق عليه

ثالثا:- لم يرد في النصوص أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله (قول القلب)، يدخل في مسمى الإسلام، كما ورد في دخول أعمال القلب والجوارح في الإيمان، وإن كان يلزم الإسلام جنس التصديق.

رابعا:- أنه لا يعرف في النصوص نفي الإسلام عمن ترك شيئا من الواجبات أو فعل الكبائر كما ورد في الإيمان ، مثلا تجد في النصوص عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ(لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[1] ، لكن ليس عندنا (من زني فليس بمسلم).

فالأدلة السابقة صريحة في اختلاف مسماهما، ومع ذلك فهناك استعمالات وحالات تجعلهما يتفقان ومن ذلك:

1- الإيمان الكامل، لابد أن يكون معه إسلام كامل، أما الإسلام الكامل فلا يلزم منه الإيمان الكامل ولكن لابد أن يكون معه أصل الإيمان.

2- أيضاً يمكن أن يقال إن المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح، وذلك كمدح الأنبياء بالإسلام.

3- ويشتركان في الخطاب بالإيمان أمراً أو نهياً من أحكام وحدود ومواريث وغيرها، لأن الخطاب بالإيمان يشمل كل الداخلين فيه سواء كان معهم أصل الإيمان أو كماله

4- في حال الافتراق يكون معناهما واحد، وعند الاجتماع يفترقان في المعنى . [2]

الإيمان يزيد وينقص

وهنا مسألة مهمة جدا وهي أن الإيمان يزيد وينقص .

أجمع أهل السنة والجماعة علي أن الإيمان يتفاضل ، وجمهورهم علي أن الإيمان يزيد وينقص ، فما هي الأدلة ؟

الأدلة على ذلك كثير جدا ، منها : قول الله تعالي (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).(الفتح-4) ،

---

[1] - متفق عليه

[2] - انظر : نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف (61/1)

وقوله : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).(الأنفال–2) وقال : (يَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا).(المدثر–31) ، وقوله : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). (آل عمران–173) .

أما بالنسبة للأحاديث : فمنها : عن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)[1]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[2]

قال النووي رحمه الله :

" الْقَوْلُ الصَّحِيحُ الَّذِي قَالَهُ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ مَعْنَاهُ لَا يَفْعَلُ هَذِهِ الْمَعَاصِي وَهُوَ كَامِلُ الْإِيمَانِ "[3]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)[4]

قَالَ الْحَلِيمِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى –: " فَدَلَّ هَذَا الْقَوْلُ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ إِيمَانٌ، وَأَنَّ عَدَمَهُ نُقْصَانُ إِيمَانٍ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُتَفَاوِتُونَ فِي إِيمَانِهِمْ، فَبَعْضُهُمْ أَكْمَلُ إِيمَانًا مِنْ بَعْضٍ " [5]

أما الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك فكثيرة محفوظة :

– قال البخاري رحمه الله في صحيحه [1]: " ... وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ

---

[1] – رواه ابن ماجة (4312) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة

[2] – متفق عليه

[3] – شرح النووي على مسلم (2/ 41)

[4] – رواه أبو داود (4682) وصححه الألباني في صحيح ابي داود

[5] – شعب الإيمان (1/ 129)

يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ . وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ "

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال: " اللهم زدناً إيماناً ويقيناً وفقهاً "[2]

وعن أبي الدرداء وأبي هريرة قالا : " الإيمان يزيد وينقص "[3]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: " مَا نَقَصَتْ أَمَانَةُ عَبْدٍ قَطُّ إِلَّا نَقَصَ مِنِ إِيمَانِهِ "[4]

ماهي مجالات زيادة ونقصان الإيمان ؟

الجواب : أن هناك تفاضلا بين الناس في الإيمان فإذا قلنا فيه جزء منه تطبيق ومعرفة فنقول حتي التطبيق والمعرفة فيهما تفاوت عند الناس، فالنبي صلي الله عليه وسلم أعلم الأمة بالله ، فالعلم بالله درجات والعلم بالله أصل الإيمان ، لكن لو نزل العلم والتصديق عن حد معين يصبح شكا أو كفرا وبالتالي ينتهي الإيمان ويزول .

قال ابن رجب رحمه الله :

" التّصديق القائم بالقلوبِ متفاضلٌ، وهذا هو الصَّحيحُ، فإنَّ إيمانَ الصِّدِّيقين الذين يتجلَّى الغيبُ لقلوبهم حتى يصيرَ كأنَّه شهادةٌ، بحيث لا يقبلُ التَّشكيكَ ولا الارتيابَ، ليس كإيمانِ غيرِهم ممَّن لم يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شُكِّكَ لدخلهُ الشكُّ، ولهذا جعلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مرتبةَ الإحسّانِ أنْ يعبُد العبدُ ربَّه كأنَّه يراهُ، وهذا لا يحصلُ لِعمومِ المؤمنينَ "[5].

طبعا أعمل الجوارح تتفاوت هذه قضية مفروغ منها، وكذلك عمل القلب الذي هو الرجاء والخوف والمحبة والإخلاص يتفاوت .

---

[1] – صحيح البخاري (10/1)

[2] – رواه ابن بطة في الإبانة (1132)

[3] – الإبانة (1126 ، 1128)

[4] – شعب الإيمان (1/ 155)

[5] – جامع العلوم والحكم (1/ 116)

مراتب الإيمان :

هناك إيمان واجب ، وهناك إيمان مستحب وهناك أصل الإيمان ، هذه مسألة أيضا لو فهمناها تزول إشكالات كثيرة .

فالإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، له أدنى وأعلى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جميع أجزائها .

أصل الإيمان:

والمقصود به الحد الأدنى من الإيمان الذي هو شرط صحة الإيمان والنجاة من الخلود في النار في الآخرة إن مات على ذلك، وبه تثبت الأحكام من فرائض ومواريث، وهذا الإيمان غير قابل للنقصان، لأن نقصانه يعني خروج الإنسان عن اسم الإيمان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله عن أهل هذه المرتبة :

" فَعَامَّةُ النَّاسِ إذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إيمَانٌ مُجْمَلٌ وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ إلَى قُلُوبِهِمْ إنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إنْ أَعْطَاهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَهَؤُلَاءِ إنْ عَرَفُوا مِنْ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ. وَإِنْ اُبْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ "[1].

الإيمان الواجب :

أو الإيمان الكامل، أو الإيمان المطلق ، ويكون صاحبه ممن يؤدى الواجبات ويجتنب الكبائر وهو ممن وعد بالجنة بلا عذاب. قال محمد بن نصر المروزي رحمه الله : " إن اسم المؤمن قد

---

[1] – مجموع الفتاوى (7/ 271)

يطلق على وجهين: اسم بالخروج من ملل الكفر والدخول في الإسلام (أصل الإيمان).. واسم يلزم بكمال الإيمان وهو اسم ثناء وتزكية يجب به دخول الجنة والفوز من النار ... "

إلى أن قال: " والمؤمنون الذين زكاهم وأثنى عليهم، ووعدهم الجنة هم الذين أكملوا إيمانهم باجتناب كل المعاصي، واجتناب الكبائر..." [1] .

ولهذا لا يوصف أهل الكبائر بالإيمان المطلق، لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة بلا عذاب، وهؤلاء معرضون للوعيد ودخول النار إلا أن يشاء الله.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

" مَنْ أَتَى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الثَّوَابَ وَمَنْ كَانَ فِيهِ شُعْبَةُ نِفَاقٍ وَأَتَى بِالْكَبَائِرِ فَذَاكَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ وَإِيمَانُهُ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ؛ وَيُخْرِجُهُ بِهِ مِنْ النَّارِ وَلَوْ أَنَّهُ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ لَكِنْ لَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ الْمُعَلَّقُ بِهِ وَعْدُ الْجَنَّةِ بِلَا عَذَابٍ "[2].

وقال أيضا :

" وَالرَّسُولُ لَمْ يَنْفِهِ إلَّا عَنْ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ وَإِلَّا فَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَفْعَلُ الصَّغِيرَةَ هِيَ مُكَفِّرَةٌ عَنْهُ بِفِعْلِهِ لِلْحَسَنَاتِ وَاجْتِنَابِهِ لِلْكَبَائِرِ لَكِنَّهُ نَاقِصُ الْإِيمَانِ عَمَّنْ اجْتَنَبَ الصَّغَائِرَ فَمَا أَتَى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ وَلَكِنْ خَلَطَهُ بِسَيِّئَاتِ كَفَّرَتْ عَنْهُ بِغَيْرِهَا وَنَقَصَتْ بِذَلِكَ دَرَجَتُهُ عَمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ. وَأَمَّا الَّذِينَ نَفَى عَنْهُمْ الرَّسُولُ الْإِيمَانَ فَنَنْفِيه كَمَا نَفَاهُ الرَّسُولُ وَأُولَئِكَ وَإِنْ كَانَ مَعَهُمْ التَّصْدِيقُ وَأَصْلُ الْإِيمَانِ فَقَدْ تَرَكُوا مِنْهُ مَا اسْتَحَقُّوا لِأَجْلِهِ سَلْبَ الْإِيمَانِ وَقَدْ يَجْتَمِعُ فِي الْعَبْدِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ وَإِيمَانٌ فَالْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مَا كَانَ صَاحِبُهُ مُسْتَحِقًّا لِلْوَعْدِ بِالْجَنَّةِ. وَطَوَائِفُ " أَهْلِ الْأَهْوَاءِ " مِنْ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّة وَالْمُرْجِئَةِ كراميهم وَغَيْرِ كراميهم يَقُولُونَ: إنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ فِي الْعَبْدِ إيمَانٌ وَنِفَاقٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ "[3]

---

[1] – تعظيم قدر الصلاة (567/2)

[2] – مجموع الفتاوى (7/ 350)

[3] – مجموع الفتاوى (7/ 353)

ثالثا :- الإيمان المستحب صاحبه لا يكتفي بترك المحرمات وفعل الواجبات ولكنه يضيف إلي ذلك فعل المستحبات وإذا فعل ذلك فقد استكمل الإيمان ، قال تعالى : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ). (فاطر-32)

فمن أتى بالواجبات فقط فهو من أهل الإيمان الواجب، ومن زاد على ذلك المستحبات فهو من أهل الإيمان المستحب.

الذنوب : كبائر وصغائر :

أما تقسيم الذنوب إلي كبائر ومعاص: فهذا مقرر عند العلماء من أهل السنة، وحكى ابن القيم الإجماع عليه فقال :

" وَالذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَبِالِاعْتِبَارِ "[1]

الفرق بين الكبائر والصغائر :

تعددت أقوال العلماء في تعريف الكبيرة ، فقال الحافظ :

" قِيلَ : الكبيرة مَا يَلْحَقُ الْوَعِيدُ بِصَاحِبِهِ بِنَصِّ كِتَاب أَوْ سُنَّة .

وَقَالَ اِبْن عَبْد السَّلَام : لَمْ أَقِف عَلَى ضَابِط الْكَبِيرَة يَعْنِي يَسْلَم مِنْ الِاعْتِرَاض , قَالَ : وَالْأَوْلَى ضَبْطُهَا بِمَا يُشْعِرُ بِتَهَاوُنِ مُرْتَكِبِهَا إِشْعَارَ أَصْغَرِ الْكَبَائِرِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا , قَالَ وَضَبَطَهَا بَعْضهمْ بِكُلِّ ذَنْب قُرِنَ بِهِ وَعِيد أَوْ لَعْن .

وَقَالَ اِبْن الصَّلَاح : لَهَا أَمَارَات مِنْهَا إِيجَاب الْحَدّ , وَمِنْهَا الْإِيعَاد عَلَيْهَا بِالْعَذَابِ بِالنَّارِ وَنَحْوهَا فِي الْكِتَاب أَوْ السُّنَّة , وَمِنْهَا وَصْف صَاحِبهَا بِالْفِسْقِ , وَمِنْهَا اللَّعْن .

وَقَدْ أَخْرَجَ إِسْمَاعِيل الْقَاضِي بِسَنَدٍ صَحِيح عَنْ الْحَسَن الْبَصْرِيّ قَالَ " كُلّ ذَنْب نَسَبَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى النَّار فَهُوَ كَبِيرَة "

[1] - مدارج السالكين (1/ 321)

وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعَارِيفِ قَوْلُ الْقُرْطُبِيّ فِي الْمُفْهِم " كُلّ ذَنْب أُطْلِقَ عَلَيْهِ بِنَصٍّ كِتَاب أَوْ سُنَّة أَوْ إِجْمَاع أَنَّهُ كَبِيرَة أَوْ عَظِيم أَوْ أُخْبِرَ فِيهِ بِشِدَّةِ الْعِقَاب أَوْ عُلِّقَ عَلَيْهِ الْحَدّ أَوْ شُدِّدَ النَّكِير عَلَيْهِ فَهُوَ كَبِيرَة " .

وَعَلَى هَذَا فَيَنْبَغِي تَتَبُّع مَا وَرَدَ فِيهِ الْوَعِيد أَوْ اللَّعْن أَوْ الْفِسْق مِنْ الْقُرْآن أَوْ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة وَالْحَسَنَة وَيُضَمّ إِلَى مَا وَرَدَ فِيهِ التَّنْصِيص فِي الْقُرْآن وَالْأَحَادِيث الصِّحَاح وَالْحِسَان عَلَى أَنَّهُ كَبِيرَة وَقَالَ الْحَلِيمِيّ فِي " الْمِنْهَاج " مَا مِنْ ذَنْب إِلَّا وَفِيهِ صَغِيرَة وَكَبِيرَة , وَقَدْ تَنْقَلِب الصَّغِيرَةُ كَبِيرَةً بِقَرِينَةٍ تُضَمّ إِلَيْهَا , وَتَنْقَلِب الْكَبِيرَةُ فَاحِشَةً كَذَلِكَ , كَقَتْلِ النَّفْس بِغَيْرِ حَقٍّ فَإِنَّهُ كَبِيرَة , فَإِنْ قَتَلَ أَصْلًا أَوْ فَرْعًا أَوْ ذَا رَحِمٍ أَوْ بِالْحَرَمِ أَوْ بِالشَّهْرِ الْحَرَام فَهُوَ فَاحِشَة . وَالزِّنَا كَبِيرَةٌ , فَإِنْ كَانَ بِحَلِيلَةِ الْجَار أَوْ بِذَاتِ رَحِم أَوْ فِي شَهْر رَمَضَان أَوْ فِي الْحَرَم فَهُوَ فَاحِشَة .

وَسَرِقَة مَا دُون النِّصَاب صَغِيرَة , فَإِنْ كَانَ الْمَسْرُوق مِنْهُ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُ وَأَفْضَى بِهِ عَدَمُهُ إِلَى الضَّعْف فَهُوَ كَبِيرَة "

انتهى كلام الحافظ ملخصا .[1]

وَسُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عَنْ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ . هَلْ لَهَا حَدٌّ تُعْرَفُ بِهِ ؟

فأجاب :

" أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْقَوْلُ الْمَأْثُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا وَهُوَ : أَنَّ الصَّغِيرَةَ مَا دُونُ الْحَدَّيْنِ : حَدُّ الدُّنْيَا وَحَدُّ الْآخِرَةِ . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : كُلُّ ذَنْبٍ خُتِمَ بِلَعْنَةِ أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ فَهُوَ مِنْ الْكَبَائِرِ . وَمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ : وَلَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ أَيْ " وَعِيدٌ خَاصٌّ " كَالْوَعِيدِ بِالنَّارِ وَالْغَضَبِ وَاللَّعْنَةِ .

وَكَذَلِكَ كُلُّ ذَنْبٍ تُوُعِّدَ صَاحِبُهُ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَا يَشُمُّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَقِيلَ فِيهِ : مَنْ فَعَلَهُ فَلَيْسَ مِنَّا وَأَنَّ صَاحِبَهُ آثِمٌ . فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ الْكَبَائِرِ " انتهى باختصار.[1]

---

[1] - انظر : فتح الباري (12/183-184)

وها هنا ثلاثة أمور ينبغي الالتفات إليها والتفطن لها :

أولها : أن الإصرار على الصغيرة قد يجعلها كبيرة .

قالَ الْقَرَافِيُّ : الصَّغِيرَةُ لَا تَقْدَحُ فِي الْعَدَالَةِ وَلَا تُوجِبُ فُسُوقًا , إلَّا أَنْ يُصِرَّ عَلَيْهَا فَتَكُونُ كَبِيرَةً . . . فَإِنَّهُ لَا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ , وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ كَمَا قَالَ السَّلَفُ . . . وَيَعْنُونَ بِالِاسْتِغْفَارِ التَّوْبَةَ بِشُرُوطِهَا , لَا طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مَعَ بَقَاءِ الْعَزْمِ "[2].

ثانيها :

أن الاستهانة بالصغائر مهلكة ؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ) . وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا : (كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا) [3].

ثالثها :

أن اجتناب الكبائر مكفرة للصغائر ؛ قال الله تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) النساء/31 ، وقال سبحانه : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) النجم/32

ما حكم أهل الكبائر ؟

هذه أيضا من ميادين المعارك بيننا وبين المبتدعة ، لقد تواترت النصوص علي أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخلد في النار وإن دخلها، ما لم يستحل ذلك لأن الاستحلال تكذيب وعناد لله.

---

[1] – "مجموع الفتاوى" (650/11– 652) ، وينظر : "مجموع الفتاوى" (658/11–659)

[2] – "الموسوعة الفقهية" (156/34)

[3] – رواه أحمد (3808) ، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" (2470)

أما حكم أهل الكبائر : فمن دخل النار منهم فسيخرجون منها ويدخلون الجنة يوما ما ولا يخلدون في النار ، وهم مستحقون للعذاب، ولكنهم تحت مشيئة الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم .

ومن أدلة ذلك قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا).(النساء–48) ، وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ : (مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ (وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ)[1]

وعَنْ أبي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ . قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ.[2]

ففي الحديث أن جبريل بشر النبي صلي الله عليه وسلم أن من مات من أمته لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، حتى أهل الكبائر من أمته لو كان عندهم أصل الإيمان ويؤدون ما كان تركه كفر كالصلاة مثلا فلو زنا أحدهم أو سرق سيدخل الجنة يوما من الأيام ولكن لم يقل : لا يدخل النار ، وهذا فرق كبير .

نحن نستدل بحديث أبي ذر هذا علي أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار ، وهو دليل من السنة علي أن أصحاب الكبائر سيدخلون الجنة .

كذلك لا يقطع لهم بالنار ، ومن أخطاء بعض المشتغلين بالدعوة أنهم يأتون المسرفين علي أنفسهم من العصاة فيقولون لأحدهم: أنت سوف تدخل النار ، فهل يجوز أن تجزم بالنار لمرتكب الكبيرة ؟ لا ، لأن أمره إلي الله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ).(النساء–48) يمكن أن يغفر له وأنت لا تدري .

---

[1] – متفق عليه

[2] – متفق عليه

كذلك (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا).(الحجرات–9) فالاقتتال كبيرة ومع ذلك لم يخرجهم من الإيمان .. وهكذا .

فلابد أن نذكر أنفسنا بكيفية معاملة أصحاب الكبائر وذلك بالوعظ والتخويف من عذاب الله تعالي ولا نذكر لهم النصوص التي قد تفهم من قبلهم أنهم لا حرج عليهم وأنهم سوف يدخلون الجنة ، وفرق بين أن تكون في مقام البحث العلمي تدرس الأدلة وبين أن تكون في مجلس مع عصاة ، فالحكمة مطلوبة ؛ فإن لكل مقام مقالا ، ونحن الآن نتكلم في بحث علمي في مسائل العقيدة فلذلك عرضنا ذلك بالأدلة ، أما لو كنا نتحدث في خطبة جمعة فسيكون هناك كلام آخر نعرضه .

مظاهر انحرافات المبتدعة في تلك القضية[1] :

الإيمان عند الوعيدية مثل المعتزلة والخوارج يشمل الأقوال والأعمال والمعتقدات فيتفقون من حيث الإجمال مع مفهوم أهل السنة والجماعة للإيمان ، إلا أن أهل السنة لا يكفرون من أخل بالواجبات أو ارتكب الكبائر ، أما هؤلاء فيجعلون الإيمان كلا لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله.

قولهم في الزيادة والنقصان فرع عن قولهم في الإيمان، فلما قالوا: إن جميع الطاعات داخلة في الإيمان، ظنوا أن القول بالنقص يلزم منه ذهاب جميع الإيمان، فنفوا نقص الإيمان، وأجازوا زيادته من جانب اختلاف الناس في وجوب التكاليف على بعضهم دون البعض الآخر.

الفرق بين الكبائر والصغائر عندهم:

يتفق عامة الوعيدية على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر وعلى تعريف الكبيرة، ويختلفون في الحكم على أصحابها .

رأي المعتزلة :

المعتزلة يقسمون الذنوب إلى كبائر وصغائر ، ويرون أن مرتكب الصغيرة لا يكفر ، وانه يغفر له إذا اجتنب الكبائر .

[1] – راجع : نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف (96/1) وما بعدها

رأي الخوارج :

يوافقون أهل السنة أيضا على تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر ، ولهم في مرتكب الصغيرة أحكام متفاوتة .

حكم أهل الكبائر عندهم:

يتفق رأي المعتزلة والإباضية في الحكم على مرتكب الكبيرة، فكلاهما لا يرى أن مرتكب الكبيرة يخرج من الملة في الدنيا، ويرون خلوده في النار في الآخرة، وإن اختلفوا في اسمه، حيث يقول المعتزلة أنه في "منزلة بين المنزلتين" وهو أحد أصولهم الخمسة، ويقول الإباضية أنه كافر كفر نعمة، فالخلاف بينهم لفظي.

والمعتزلة يقولون أن الإيمان يضيع ويحبط وهذا خلاف قوله تعالي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). (التوبة–120) وقالوا إن الخير ساقط بسيئة واحدة فإذا عمل واحد سيئة واحدة يسقط كل الإيمان والله يقول: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ).(هود–114) ، وقالت المعتزلة إن السيئات يذهبن الحسنات، وقد نص الله تعالي علي أن الأعمال لا يحبطها إلا الشرك والموت عليه (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). (الأنعام–160) فلو كانت كل كبيرة توجب الخلود في جهنم وتحبط كل الأعمال الحسنة لكانت كل سيئة أو كبيرة كفرا ولتساوت السيئات كلها وهذا واضح أنه خلاف النص الشرعي .

ثم إنهم ادعوا أنه يستحيل اجتماع الولاية والعداوة والحمد والذم في شخص واحد ، وأن مرتكب الكبيرة صار عدوا لله كافرا ، وأهل السنة والجماعة يقولون أنه يمكن أن يجتمع في الإنسان الخير والشر والحب والبغض وممكن تواليه لما فيه من إيمان وتبغضه بحسب ما فيه من الشر والعصيان .

ثم إن الله قد أخبر أن رحمته سبقت غضبه ، فخالف المعتزلة في القضية وجعلوا غضب الله يسبق رحمته والله يقول : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).(الرعد–6) وهؤلاء قد خالفوا هذه الآية .

ثم إن النبي صلي الله عليه وسلم قد بين أنه يأتي يوم القيامة أناس ظلمة بلا دينار ولا درهم يؤخذ من حسناتهم وتعطي للمظلومين وإذا فنيت حسناتهم أخذت من سيئاتهم فطرحت عليهم[1] ، فهل للظالم حسنات يأخذ المظلوم منها يوم القيامة أم لا ؟ نعم ، فهل ظلمه أحبط حسناته ؟ لا ، إذاً له حسناته يستوفي المظلوم حقه منها .

هذا بالنسبة لقضية الإيمان عند الخوارج والمعتزلة ، **فماذا عند المرجئة ؟**

تختلف فرق المرجئة في تعريفها للإيمان، وحاصل أقوالها يرجع إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن الإيمان مجرد المعرفة، وبعضهم يقول المعرفة والتصديق.

الثاني: أن الإيمان مجرد قول اللسان وهو ما انفردت به الكرامية دون سائر الفرق.

الثالث: تصديق القلب وقول اللسان وهو ما يسمى بإرجاء الفقهاء.

وقد اشتهر إطلاق هذا المصطلح علي بعض أو أكثر أصحاب أبي حنيفة رحمه الله بسبب موافقتهم المرجئة في إخراج الأعمال عن مسمي الإيمان ، ولذلك يسمي هذا المذهب أحيانا بمذهب الحنفية ، وقد عرف هذا القول عند ظهور أبي منصور الماتريدي فلما ظهر تأثر به عامة الأحناف وصاروا يقولون بقوله أن الإيمان هو التصديق فقط وقول اللسان شرط لإجراء الأحكام في الدنيا كالقول المشهور عن الأشاعرة ، ولا شك أن هذا مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة .

ومع الأسف هناك بعض الدعاة لما ألفوا في كتب العقائد زلوا في هذا المقام وألفوا كتبا تبين عقائد المرجئة والأشاعرة والماتريدية في قضية الإيمان هذه .

وخلاصة المشهور في مذهبهم أنهم يقولون الإيمان هو مجرد المعرفة والتصديق وأن قول اللسان ليس جزءا من الإيمان داخلا فيه ولا شرطا خارجا عنه وإنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية علي المرء ، فمن كان موقنا بقلبه ولم ينطق الشهادة بلسانه دون عذر فهو ناج عند الله وإن

[1] – حديث المفلس ، رواه مسلم (2581)

أجريت عليه أحكام الكافرين في الدنيا ، ونحن نقول أن الذي يرفض أن ينطق الشهادتين ليس عنده عذر ، فيحكم عليه بالكفر ظاهرا وباطنا كما بينا من قبل .

ومسألة الزيادة والنقصان عندهم ممتدة إلي تعريف الإيمان ، فمن أدخل أعمال الجوارح في الإيمان وهم أهل السنة أثبتوا الزيادة والنقصان وهذا مذهب السلف ، ومن لم يدخل أعمال الجوارح في الإيمان فإنه سيقول أنه لا يزيد ولا ينقص ولذلك اشتهر عند الأشاعرة والماتريدية أنهم يقولون بعدم الزيادة والنقصان .

ويتفق الأشاعرة والماتريدية من حيث الإجمال مع أئمة السلف بعدم تكفير مرتكب الكبيرة ، وإنما هو تحت المشيئة إن شاء عذبه ولا يخلد في النار وإن شاء غفر له .

والكفر عندهم فرع عن تصورهم للإيمان فلما عرفوا الإيمان بأنه مجرد المعرفة والتصديق، حصل الكفر بالجهل والتكذيب ونحوه من الجحود والإنكار والعناد ، فلما قيل لهم إن شاتم الرسول صلي الله عليه وسلم أو الساجد للصنم أو ملقي المصحف في القاذورات كافر عند الجميع ولا يلزم من ذلك انتفاء التصديق من قلبه ، ماذا تقولون في هذا ؟

متي ينتقض الإيمان عندهم ؟ بما أنهم قالوا أن تعريف الإيمان هو التصديق والمعرفة فعندهم يكفر الشخص إذا جحد أو كذب ، فلو سجد لصنم أو ألقي المصحف في القاذورات فماذا يقولون فيه ؟

اضطربوا : فقال بعضهم هذا علامة علي تكذيب القلب وبهذا عرفنا أنه في قلبه مكذب ، وقال آخرون: نحكم بالظاهر ولكن يجوز أن يكون في الباطن مؤمنا .

والإمام أحمد رحمه الله ألزم جهما في قضية الإرجاء هذه بأن يقول الباطل ، ولذلك يقول الإمام أحمد رحمه الله كما نقله عنه شيخ الإسلام :

" إذَا أَقَرَّ ثُمَّ شَدَّ الزُّنَّارَ فِي وَسَطِهِ وَصَلَّى لِلصَّلِيبِ وَأَتَى الْكَنَائِسَ وَالْبِيَعَ وَعَمِلَ الْكَبَائِرَ كُلَّهَا إلَّا أَنَّهُ فِي ذَلِكَ مُقِرٌّ بِاَللَّهِ؛ فَيَلْزَمُهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ مُؤْمِنًا وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ أَشْنَعِ مَا يَلْزَمُهُمْ "

قال شيخ الإسلام : " هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَد مِنْ أَحْسَنِ مَا احْتَجَّ النَّاسُ بِهِ عَلَيْهِمْ جَمَعَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ جُمَلًا يَقُولُ غَيْرُهُ بَعْضَهَا وَهَذَا الْإِلْزَامُ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلِهَذَا لَمَّا عَرَفَ مُتَكَلِّمُهُمْ مِثْلُ

جَهْمٍ وَمَنْ وَافَقَهُ أَنَّهُ لَازِمٌ الْتَزَمُوهُ، وَقَالُوا: لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ كَافِرًا فِي الْبَاطِنِ؛ لَكِنْ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى الْكُفْرِ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا فَإِذَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِنُصُوصٍ تَقْتَضِي أَنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا فِي الْآخِرَةِ. قَالُوا: فَهَذِهِ النُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي الْبَاطِنِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ شَيْءٌ فَإِنَّهَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَخَالَفُوا صَرِيحَ الْمَعْقُولِ وَصَرِيحَ الشَّرْعِ "[1]

والخلاصة أن الإيمان هو قول القلب واللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح فلابد من هذه الأشياء ، هذا هو الإيمان عند أهل السنة والجماعة .

ماذا بالنسبة للكفر ونواقض الإيمان ؟

وهذه قضية مهمة وخطيرة جدا في هذا الزمان وذلك لأسباب، منها :-

أولا:- شيوع المكفرات القولية والعملية في أهل هذا الزمان .

ثانيا:- كثرة المكفرين بغير حجة .

ثالثا:- عظم الآثار المترتبة على ذلك في الدنيا والآخرة .

لقد كثرت الفتن في هذا الزمان ، ومن جهة أخري خرجت فئة تكفر الناس بغير دليل ويأتي علي شعب بالكامل ويقول كلهم كفرة ، فلا بد أن نضبط القضية ، فلننطلق الآن في بيان تلك الأمور.

المسألة الأولي : الحكم بالظاهر .

من مذهب أهل السنة والجماعة في الحكم علي الناس أن لا تكون أحكامهم مبنية علي ظنون وأوهام ودعاوى لا يملكون عليها بينة ، قال الشاطبي رحمه الله :

" إِنَّ أَصْلَ الْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ مَقْطُوعٌ بِهِ فِي الْأَحْكَامِ خُصُوصًا، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الِاعْتِقَادِ فِي الْغَيْرِ عُمُومًا أَيْضًا، فَإِنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ إِعْلَامِهِ بِالْوَحْيِ يُجْرِي الْأُمُورَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا

---

[1] - مجموع الفتاوى (7/ 401-402)

فِي الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنْ عَلِمَ بَوَاطِنَ أَحْوَالِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِمُخْرِجِهِ عَنْ جَرَيَانِ الظَّوَاهِرِ عَلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ " [1]

فالنبي صلي الله عليه وسلم يعلم حقيقة المنافقين بالوحي ، ولكن كيف كان تعامله معهم ؟ بنى علي ما أخبر بالوحي عما في قلوب المنافقين ، أم بنى علي ما يخبرونه في قضية معاملاتهم ؟ بنى علي الظاهر .

(إجراء أحكام الناس على الظاهر) فإن أظهر كفرا يكفر بعد إقامة الحجة ، وإن لم يظهر كفرا لا يكفر ولا نستطيع أن نحكم علي الباطن ، ونقول أن النبي صلي الله عليه وسلم الذي أُخبر ببواطن المنافقين لم يتعامل معهم إلا بالظاهر ، فنحن لا نشق عن قلوب الناس هذا لا يمكن .

واستتد أهل السنة في قضية إجراء أحكام الناس على ظاهرهم قولا وعملا إلي أدلة منها قوله تعالي (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا). (النساء–94) .

قال الشوكاني رحمه الله: " والمراد هنا : لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم واستسلم لست مؤمنا فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام . وقيل : هما بمعنى الإسلام : أي : لا تقولوا لمن ألقى إليكم الإسلام : أي كلمته وهي الشهادة لست مؤمنا وقيل : هما بمعنى التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام : أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم فقال السلام عليكم : لست مؤمنا والمراد نهي المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ويقولوا : إنه إنما جاء بذلك تعوذا وتقية "[2]

فإذا جاءك شخص فقال أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله فلا تقل له أنت قلتها تقية ، أنت منافق (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : " فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما

---

[1] – الموافقات (2/ 467)

[2] – فتح القدير [1 /756] ، وانظر: نواقض الإيمان (149/1)

يخالف الإسلام قتل، لقوله تعالى: {فتبينوا} ولو كان لا يقتل إذا قالها للتثبت معنى، إلى أن قال: (وإن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك).[1]

هذه هي القاعدة .

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ ؟ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ قَالَ أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ .[2]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ : كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ ائْتِنِي بِهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا أَيْنَ اللَّهُ ؟ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ : (أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) [3]

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" فَإِنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي عُلِّقَتْ بِهِ أَحْكَامُ الدُّنْيَا هُوَ الْإِيمَانُ الظَّاهِرُ وَهُوَ الْإِسْلَامُ فَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ فِي الْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ. وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْأَثْرَمُ لِأَحْمَدَ احْتِجَاجَ الْمُرْجِئَةِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ} أَجَابَهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ حُكْمُهَا فِي الدُّنْيَا حُكْمُ الْمُؤْمِنَةِ؛ لَمْ يُرِدْ أَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ عِنْدَ اللَّهِ تَسْتَحِقُّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِلَا نَارٍ إذَا لَقِيته بِمُجَرَّدِ هَذَا الْإِقْرَارِ وَهَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ الْمُطْلَقُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَهُوَ الْمَوْعُودُ بِالْجَنَّةِ بِلَا نَارٍ إذَا مَاتَ عَلَى إيمَانِهِ "[4]

---

[1] – كشف الشبهات (ص49)

[2] – متفق عليه

[3] – رواه مسلم (537)

[4] – مجموع الفتاوى (7/ 416)

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)[1]

والشاهد من الحديث قوله (وحسابهم على الله) قال ابن رجب: " وأما في الآخرة فحسابه على الله عز وجل، فإن كان صادقاً أدخله الله بذلك الجنة، و إن كان كاذباً فإنه من جملة المنافقين في الدرك الأسفل من النار "[2]

فإن قال قائل في رجل آمن : وما يدريني لعله منافق ؟ فنقول له لا تخف ، ففي الآخرة إن كان منافقا يُجعل في الدرك الأسفل من النار ، أما بالنسبة لنا لا نستطيع أن نحكم له إلا بالإسلام وأن نعامله كما نعامل المسلمين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" الْإِيمَان الظَّاهِرَ الَّذِي تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ فِي الدُّنْيَا لَا يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ فِي الْبَاطِنِ الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} هُمْ فِي الظَّاهِرِ مُؤْمِنُونَ يُصَلُّونَ مَعَ النَّاسِ. وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَغْزُونَ وَالْمُسْلِمُونَ يُنَاكِحُونَهُمْ ويوارثونهم كَمَا كَانَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَحْكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُنَافِقِينَ بِحُكْمِ الْكُفَّارِ الْمُظْهِرِينَ لِلْكُفْرِ لَا فِي مُنَاكَحَتِهِمْ وَلَا موارثتهم وَلَا نَحْوِ ذَلِكَ؛ بَلْ لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبي ابْنُ سلول - وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ النَّاسِ بِالنِّفَاقِ - وَرِثَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَنْ كَانَ يَمُوتُ مِنْهُمْ يَرِثُهُ وَرَثَتُهُ الْمُؤْمِنُونَ؛ وَإِذَا مَاتَ لِأَحَدِهِمْ. وَارِثٌ وَرِثُوهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ "[3]

[1] – متفق عليه

[2] – جامع العلوم والحكم (ص 83)

[3] – مجموع الفتاوى (7/ 210)

هذه نقطة مهمة فأنت إن أردت أن تأكل ذبيحة فلان أو تتزوج ابنته لا يشترط في هذا الشخص أن يكون مؤمنا في الباطن ، وإنما يكفي في حِل ذلك كله وصحته أن يكون مؤمنا ظاهرا ، لأن الباطن لا يعلمه إلا الله ، فإن أظهر نواقض الإسلام فلا صلاة خلفه ولا نأكل ذبيحته وهكذا .

وهكذا كان حكمه صلي الله عليه وسلم في أموال المنافقين ودمائهم كحكمه في دماء غيرهم وأموالهم لا يستحل منها شيئا إلا بأمر ظاهر .

المسألة الثانية :-الاحتياط في تكفير المعين .

مذهب أهل السنة وسط بين من يقول: لا نكفر من أهل القبلة أحداً، وبين من يكفر المسلم بكل ذنب دون النظر إلى توفر شروط التكفير وانتفاء موانعه.

فكثير من المرجئة يقولون لا نكفر من أهل السنة أحدا ، يقولون إنه نطق بالشهادتين فهو من أهل القبلة ، وفي المقابل هناك خوارج ومعتزلة يكفرون بالكبيرة وينسون إيمان الشخص كله إذا زنى أو ارتكب كبيرة ، فمذهب أهل السنة وسط بينهما، ولذلك من المهم أن نبين أن مذهب أهل السنة يتلخص في أنهم يطلقون التكفير علي العموم لا علي الشخص المعين ، مثل قولهم : من استحل ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر ، ومن قال القرآن مخلوق فقد كفر ، أو أن الله لا يري في الآخرة فقد كفر ، ولكنهم مع ذلك لا يكفرون الشخص المعين إلا بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع ، فقد يكون جاهلا أو متأولا أو مكرها إلي آخره ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" الْقَوْل قَدْ يَكُونُ كُفْرًا فَيُطْلَقُ الْقَوْلُ بِتَكْفِيرِ صَاحِبِهِ وَيُقَالُ مَنْ قَالَ كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ لَكِنَّ الشَّخْصَ الْمُعَيَّنَ الَّذِي قَالَهُ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ تَارِكُهَا. وَهَذَا كَمَا فِي نُصُوصِ الْوَعِيدِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: {إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ حَقٌّ لَكِنَّ الشَّخْصَ الْمُعَيَّنَ لَا يُشْهَدُ عَلَيْهِ بِالْوَعِيدِ فَلَا يُشْهَدُ لِمُعَيَّنِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالنَّارِ لِجَوَازِ أَنْ لَا يَلْحَقَهُ الْوَعِيدُ لِفَوَاتِ شَرْطٍ أَوْ ثُبُوتِ مَانِعٍ فَقَدْ لَا يَكُونُ التَّحْرِيمُ بَلَغَهُ وَقَدْ يَتُوبُ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمِ وَقَدْ تَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ عَظِيمَةٌ تَمْحُو عُقُوبَةَ ذَلِكَ الْمُحَرَّمِ وَقَدْ يُبْتَلَى بِمَصَائِبَ تُكَفِّرُ عَنْهُ وَقَدْ يَشْفَعُ فِيهِ شَفِيعٌ مُطَاعٌ.

وَهَكَذَا الْأَقْوَالُ الَّتِي يَكْفُرُ قَائِلُهَا قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَمْ تَبْلُغْهُ النُّصُوصُ الْمُوجِبَةُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَقَدْ تَكُونُ عِنْدَهُ وَلَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ فَهْمِهَا وَقَدْ يَكُونُ قَدْ عَرَضَتْ لَهُ شُبُهَاتٌ يَعْذُرُهُ اللَّهُ بِهَا فَمَنْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ " [1]

وقال ابن أبي العز رحمه الله في شرح الطحاوية :

" وَأَمَّا الشَّخْصُ الْمُعَيَّنُ، إِذَا قِيلَ: هَلْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ وَأَنَّهُ كَافِرٌ؟ فَهَذَا لَا نَشْهَدُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرٍ تَجُوزُ مَعَهُ الشَّهَادَةُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْبَغْيِ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ وَلَا يَرْحَمُهُ بَلْ يُخَلِّدُهُ فِي النَّارِ، فَإِنَّ هَذَا حُكْمُ الْكَافِرِ بَعْدَ الْمَوْتِ. وَلِهَذَا ذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ: "بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْبَغْيِ". وَذَكَرَ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لك، أو لا يدخلك الله الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذهبوا به إلى النار. وقال أَبُو هُرَيْرَةَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ) » وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَلِأَنَّ الشَّخْصَ الْمُعَيَّنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا مَغْفُورًا لَهُ، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِيمَانٌ عَظِيمٌ وَحَسَنَاتٌ أَوْجَبَتْ لَهُ رَحْمَةَ اللَّهِ، كَمَا غَفَرَ لِلَّذِي قَالَ: إِذَا مِتُّ فَاسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي، ثُمَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ لِخَشْيَتِهِ، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا

[1] – مجموع الفتاوى (23/ 345–346)

يَقْدِرُ عَلَى جَمْعِهِ وَإِعَادَتِهِ، أَوْ شَكَّ فِي ذَلِكَ. لَكِنَّ هَذَا التَّوَقُّفَ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ لَا يَمْنَعُنَا أَنْ نُعَاقِبَهُ فِي الدُّنْيَا، لِمَنْعِ بِدْعَتِهِ، وَأَنْ نَسْتَتِيبَهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ الْقَوْلُ فِي نَفْسِهِ كُفْرًا قِيلَ: إِنَّهُ كُفْرٌ، وَالْقَائِلُ لَهُ يكفر بشروط وانتفاء موانع "[1].

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم : أنا لو وافقتكم كنت كافراً لأني أعلم أن قولك كفر وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال, وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم "[2]

وهذا موقف الإمام أحمد رحمه الله تعالي مع أعيان الجهمية ممن آذوه وآذوا المسلمين، فإن قال قائل لما لم يكفر الإمام أحمد المعتصم والمأمون ؟ أليس القول بخلق القرآن كفر ، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وأن الله لا يري في الآخرة وغير ذلك ، ويدعون إلي ذلك ويمتحنوهم ويكفرون من لا يجيبونهم ، لم يكفرهم الإمام أحمد رحمه الله ، بل ترحم عليهم واستغفر لهم ، فذلك لعلمه أنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به ولكن تأولوا فأخطئوا وقلدوا من قال لهم بذلك .

قال شيخ الإسلام :

" وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّة مَشْهُورٌ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ. لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو إلَى الْقَوْلِ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَقُولُ بِهِ وَالَّذِي يُعَاقِبُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَدْعُو فَقَطْ وَالَّذِي يُكَفِّرُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يُعَاقِبُهُ وَمَعَ هَذَا فَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة: إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَيَدْعُونَ النَّاسَ إلَى ذَلِكَ ويمتحنونهم وَيُعَاقِبُونَهُمْ إذَا لَمْ يُجِيبُوهُمْ وَيُكَفِّرُونَ مَنْ لَمْ يُجِبْهُمْ. حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا أَمْسَكُوا الْأَسِيرَ لَمْ يُطْلِقُوهُ حَتَّى يُقِرَّ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة: إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَلَا يُوَلُّونَ مُتَوَلِّيًا وَلَا يُعْطُونَ رِزْقًا مِنْ بَيْتِ

---

[1] – شرح الطحاوية (ص: 299)

[2] – الرد على البكري (1/383–384)

الْمَالِ إلَّا لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا فَالْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لِمَنْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ وَلَا جَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنْ تَأَوَّلُوا فَأَخْطَئُوا وَقَلَّدُوا مَنْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا قَالَ لِحَفْصِ الْفَرْدِ حِينَ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ: كَفَرْت بِاَللَّهِ الْعَظِيمِ. بَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كُفْرٌ وَلَمْ يَحْكُمْ بِرِدَّةِ حَفْصٍ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ بِهَا وَلَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ لَسَعَى فِي قَتْلِهِ وَقَدْ صَرَّحَ فِي كُتُبِهِ بِقَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ "[1].

فتبين إذاً أن أهل السنة يطلقون التكفير بالعموم ، يقولون من قال بخلق القرآن فهو كافر علي العموم ، ولكن الحكم علي المعين بالكفر أو الوعيد كأن تقول فلان كافر أو يدخل جهنم لأنه زنى ، هذا لا يمكن، فلابد من استيفاء الشروط وانتفاء الموانع ، طبعا هؤلاء أمرهم إلي الله، لكنهم يستحقون العذاب .

وقد ظن بعض المتوهمين بسبب قراءتهم لبعض النصوص أن أهل السنة لا يكفرون المعين ، وهذا ظن خاطئ بل يحكمون علي المعين بالكفر إذا ما توفرت فيه الشروط وانتفت الموانع ، وتطبيقات السلف لهذا المبدأ كثيرة؛ ولذلك يقول شيخ الإسلام :

" وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَكْفِيرُ " الْمُعَيَّنِ " مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ وَأَمْثَالِهِمْ - بِحَيْثُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ الْكُفَّارِ - لَا يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَى أَحَدِهِمْ الْحُجَّةُ الرسالية الَّتِي يَتَبَيَّنُ بِهَا أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ لَا رَيْبَ أَنَّهَا كُفْرٌ. وَهَكَذَا الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ جَمِيعِ " الْمُعَيَّنِينَ " مَعَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْبِدْعَةِ أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ يَكُونُ فِيهِ مِنْ الْإِيمَانِ مَا لَيْسَ فِي بَعْضٍ فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ أَخْطأَ وَغَلِطَ حَتَّى تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَتُبَيَّنَ لَهُ الْمَحَجَّةُ. وَمَنْ ثَبَتَ إيمَانُهُ بِيَقِينِ لَمْ يَزُلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ؛ بَلْ لَا يَزُولُ إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ "[2].

---

[1] - مجموع الفتاوى (23/ 348-349)

[2] - مجموع الفتاوى (12/ 500-501)

هل كفر السلف أناسا معينين ؟

نعم لما تيقنوا أن الحجة أقيمت عليهم كالجعد بن درهم وغيلان الدمشقي وما جاء في قتل السحرة المعينين وقد قاتل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بني حنيفة وهم يقولون: نشهد ألا إله إلا الله ونشهد أن محمدا رسول الله ، ويؤذنون ويصلون ، ولكنهم يقولون إن مسيلمة نبي ، بهذا يكفرون ؛ لأن من لم يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم المرسلين فقد كفر .[1]

وبنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس، كلهم يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويدعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين .

ويقال أيضا : الذين قال الله فيهم (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ).(التوبة–74) ألا ترى أن الله كفرهم بكلمة مع أنهم كانوا مع النبي صلي الله عليه وسلم يصلون معه ويصومون ويحجون .

وكذلك قوله تعالي (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ). (التوبة–66) فهؤلاء صرح الله فيهم أنهم كفروا بعد إيمانهم مع أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك .[2]

ومن التطبيقات العملية لتكفير المعين إذا قامت عليه الحجة إجماع السلف علي قتال الطائفة الممتنعة كما ذهب إلي ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال شيخ الإسلام :

" كُلُّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ الْتِزَامِ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَهُ وَإِنْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَمُلْتَزِمِينَ بَعْضَ شَرَائِعِهِ كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَانِعِي الزَّكَاةَ. وَعَلَى ذَلِكَ اتَّفَقَ

[1] – انظر : نواقض الإيمان الاعتقادية (161/1)

[2] – راجع : كشف الشبهات (ص 39–44)

الْفُقَهَاءُ بَعْدَهُمْ بَعْدَ سَابِقَةِ مُنَاظَرَةِ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ عَلَى حُقُوقِ الْإِسْلَامِ عَمَلًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ الْحَدِيثُ عَنْ الْخَوَارِجِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ مَعَ قَوْلِهِ: {تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ} فَعُلِمَ أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِصَامِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ عَدَمِ الْتِزَامِ شَرَائِعِهِ لَيْسَ بِمُسْقِطٍ لِلْقِتَالِ. فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ. فَمَتَى كَانَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ. فَأَيُّمَا طَائِفَةٍ امْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ أَوْ الصِّيَامِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالْمَيْسِرِ أَوْ عَنْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ جِهَادِ الْكُفَّارِ أَوْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ وَمُحَرَّمَاتِهِ - الَّتِي لَا عُذْرَ لِأَحَدِ فِي جُحُودِهَا وَتَرْكِهَا - الَّتِي يَكْفُرُ الْجَاحِدُ لِوُجُوبِهَا. فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ تُقَاتَلُ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَتْ مُقِرَّةً بِهَا. وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ "[1]

والخلاصة :

أن من أظهر شيئا من مظاهر الكفر لا يكفر حتى تقام عليه الحجة للتأكد من دوافعه لهذا العمل فإذا زالت الشبهة وأصر استتيب فإن تاب وإلا قتل .

لا تكفير إلا بعد قيام الحجة

تقرير قضية أنه لا تكفير إلا بعد قيام الحجة هذا في القرآن الكريم ، قال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا).(الإسراء-15) وقال تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).(النساء-165)

ومن الأصول المجمع عليها عند أهل السنة أنهم لا يكفرون أحدا بذنب ما لم يستحله ، ويقصدون بالذنب الذي لا يكفر صاحبه به مثل الصغائر والكبائر ، أما الأشياء المكفرة فسبق أن بيناها ، لكن حينما نقول التكفير فبأي ذنب؟ نقصد به الذنب الذي يكفر به صاحبه .

---

[1] - مجموع الفتاوى (28/ 502-503)

ولذلك دفعا للبس امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأننا لا نكفر أحدا بذنب ، إذاً لو رأيت عبارة في أحد كتب العقيدة عند أهل السنة والجماعة " لا نكفر أحدا بذنب " يعني إلا أن يستحله فإن استحله صار كافرا .

ما هي موانع التكفير ؟

1- الجهل . والجهل هو خلو النفس من العلم ، والعذر بالجهل يختلف باختلاف الأمكنة والأشخاص ، والأشخاص يختلفون فمنهم من أقيمت عليه الحجة ومنهم من لم تقم عليه الحجة كما سيأتي إن شاء الله تعالي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" دَلَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إلَّا بَعْدَ إبْلَاغِ الرِّسَالَةِ فَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ جُمْلَةً لَمْ يُعَذِّبْهُ رَأْسًا وَمَنْ بَلَغَتْهُ جُمْلَةً دُونَ بَعْضِ التَّفْصِيلِ لَمْ يُعَذِّبْهُ إلَّا عَلَى إنْكَارِ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الرسالية. وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وَقَوْلِهِ: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} الْآيَةَ. وَقَوْلِهِ: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} وَقَوْلِهِ: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} الْآيَةَ. وَقَوْلِهِ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} وَقَوْلِهِ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} وَقَوْلِهِ: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}

فَمَنْ كَانَ قَدْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ تَفْصِيلًا؛ إمَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ. أَوْ سَمِعَهُ مِنْ طَرِيقٍ لَا يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهَا أَوْ اعْتَقَدَ مَعْنًى آخَرَ لِنَوْعِ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُعْذَرُ بِهِ. فَهَذَا قَدْ جُعِلَ فِيهِ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مَا يُوجِبُ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ بِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ مُخَالِفُهَا "[1].

وقال الذهبي رحمه الله: " فلا يأثم أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف رءوف بهم، قال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} وقد كان سادة الصحابة بالحبشة ينزل

---

[1] - مجموع الفتاوى (12/ 493-494)

الواجب والتحريم على النبي – صلى الله عليه وسلم – فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل من لم يعلم حتى يسمع النص والله أعلم "[1]

أدلة العذر بالجهل

وأدلة العذر بالجهل من السنة كثيرة متعددة ، ومن أشهرها حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا . فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ)[2]

السؤال هو كيف يغفر الله له وقد شك في قدرة الله علي البعث وقد ظن أنه إذا أحرق وذر رماده أنه لا يبعث ، ونحن نؤمن بكفر من شك في البعث ؟

قال شيخ الإسلام :

" فَهَذَا الرَّجُلُ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إذَا تَفَرَّقَ هَذَا التَّفَرُّقَ فَظَنَّ أَنَّهُ لَا يُعِيدُهُ إذَا صَارَ كَذَلِكَ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ إنْكَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْكَارِ مَعَادِ الْأَبْدَانِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ كَفَرَ. لَكِنَّهُ كَانَ مَعَ إيمَانِهِ بِاَللَّهِ وَإِيمَانِهِ بِأَمْرِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنْهُ جَاهِلًا بِذَلِكَ ضَالًّا فِي هَذَا الظَّنِّ مُخْطِئًا. فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ "[3].

فهذا الرجل عذره الله بجهله .

وقال ابن حزم رحمه الله (فهذا إنسان جهل إلى أن مات أن الله قادر علي جمع رماده وإحيائه وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله) [4]

---

[1] – الكبائر (ص 12)

[2] – متفق عليه.

[3] – مجموع الفتاوى (11/ 409)

[4] – الفصل (252/3)

وقال الحافظ ابن عبد البر – رحمه الله–: "... و أما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدرته، فليس ذلك بمخرجه من الإيمان "

ثم استدل على ذلك بسؤال الصحابة – رضي الله عنهم – عن القدر ثم قال: " ومعلوم أنهم إنما سألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين، .... ولم يضرهم جهلهم به قبل أن يعلموه "[1]

إذا نستنتج من كلام الأئمة أن هناك أمرين :–

أولا –أن عمل هذا الرجل كفر بلا شك.

ثانيا – أن هذا الرجل معه أصل الإيمان.

وكذلك من الأحاديث الدالة علي العذر بالجهل ، حديث حذيفة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب. حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسري على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقي في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله فنحن نقولها) فقال له صلة: ما تغنى عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً .[2]

فهذا الحديث يتحدث عن أي فترة ؟ عن آخر الزمان ، هناك أناس مع كثرة الجهل وذهاب نور العلم ونور النبوة ورفع القرآن صاروا لا يعرفون شيئا عن الصلاة ولا الصيام ، فما بقي من الإسلام كله إلا كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، فلما سئلوا عنها لم تقولونها ؟ قالوا سمعنا آباءنا يقولونها ، فهل تنفعهم هذه الكلمة أم لا ؟ فيقول حذيفة تنجيهم من النار .

قال شيخ الإسلام " وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ قَدْ يَنْشَأُ فِي الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ الَّذِي يَنْدَرِسُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ عُلُومِ النُّبُوَّاتِ حَتَّى لَا يَبْقَى مَنْ يُبَلِّغُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ فَلَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا

---

[1] – التمهيد (18/46–47)

[2] – رواه ابن ماجة (4049) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة وغيره

يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَلَا يَكُونُ هُنَاكَ مَنْ يُبَلِّغُهُ ذَلِكَ وَمِثْلُ هَذَا لَا يَكْفُرُ ؛ وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَكَانَ حَدِيثَ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ فَأَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ { يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَعْرِفُونَ فِيهِ صَلَاةً وَلَا زَكَاةً وَلَا صَوْمًا وَلَا حَجًّا ... "[1] .

وكذلك حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[2]

يتضح من هذه الحادثة أن الذين قالوا ذلك كانوا حديثي عهد بإسلام ، لكن لماذا لم يحكم عليهم بالكفر ؟ لأنهم حدثاء عهد بالتوحيد وظنوا أن اتخاذ هذه الشجرة لا ينافي التوحيد ، فبين لهم أن الذي طلبوا ولو لم يكن صلاة ولا صياما ولا صدقة ، لكنه شرك .

واعلموا أيها الإخوة أن مجرد النطق بالشهادتين كاف في الحكم بإسلام الشخص .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: " وقد علم بالاضطرار من دين الرسول –صلى الله عليه وسلم – واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً، والمباح دمه وماله: معصوم الدم والمال "[3]

بيان خطأ تقسيم الدين إلي أصول لا يعذر الجهل بها ، وفروع يعذر الجهل بها.

بعض الناس قسموا الدين إلي أصول يعذر الجهل بها وفروع لا يعذر الجهل بها ، فهذا التقسيم غير منضبط وغير دقيق ولا دليل عليه .

لكن ينبغي أن يقال: أن هناك أمورا تعلم من الدين بالضرورة ، فالله واحد ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة ومنكره كافر لا شك في ذلك .

---

[1] – مجموع الفتاوى (11/407-408)

[2] – رواه الترمذي (2180) وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي

[3] – نقلاً عن فتح المجيد (ص 89)

وهناك أمور قد تخفى على كثير من الناس ، ومثل هذه لا يسارع المرء فيها بالتكفير حتى تقام الحجة وتنتفي موانع التكفير عن الشخص .

ولضبط القضية يجب أن نعرف التفرقة بين النصوص المطلقة والمقيدة .

فبعضهم يفهم من القول بأن النذر لغير الله شرك أن كل من نذر لغير الله فهو كافر، ولكن هل يفهم من هذا القول أن الشخص الذي يفعل هذا الفعل لا يعذر بجهله ويكفر بإطلاق ؟ طبعا لا ، إذ لابد أن ربط مثل هذه الجملة بموانع التكفير .

هل يعمم هذا الكلام علي كل المسلمين في إفريقيا والهند وباكستان وبنجلاديش وحديثي العهد بالإسلام فهل يكفرون ويصير كل منهم حلال الدم والمال ؟

خطأ طبعا ، لماذا ؟ لأن هذا الكلام ليس علي إطلاقه فلابد من تقييد فنقول من نذر أو استغاث بغير الله فهو كافر مشرك حلال الدم والمال إذا أقيمت عليه الحجة وانتفت الموانع ، لكن ليس كل عالم إذا تكلم في التوحيد يقول هذا القيد .

وأيضا : فقيام الحجة يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال والأشخاص ؛ كما تقدمت الإشارة إليه في كلام شيخ الإسلام . ولذلك اتفق الأئمة علي أن من ينشأ في بادية بعيدة عن العلم والدين والإيمان وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئا من الأحاديث الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعلم ما جاء به الرسول

مسألة مهمة :-

يجب على الدعاة القيام بالمسئولية تجاه هذا الأمر ، وقيام الحجة قد يحصل بالمقررات الدراسية ، ويحصل بالانترنت ويحصل بإذاعة القران الكريم، وقد يحصل بجولات الدعاة في الأماكن المختلفة.

يعنى مسألة ليس فيها تفريط ولا تسيب ولا تشديد ولا غلو . ولابد أن تربط بروابط الشريعة .

لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه ولا أن الخمر حرام هل يكفر؟ لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية . لأنه معذور بجهله أما إذا أقيمت الحجة وانتفت الموانع فإذا لم يقر بالإحكام كفر.

أما من أنكر هذه الأمور في دار إسلام وعلم فالأمر يختلف، لاحظ اختلاف الأزمنة والأمكنة ، هناك فرق بين شخص ينكرها وهو يعيش في إفريقيا وشخص ينكرها وهو يعيش وسط المسلمين يسمع الخطب وغيرها .

إذا لم تقم الحجة يعذر بجهله ، إذا لم يعرف أن الصلاة واجبة يعذر بجهله ، هذا لابد أن يكون في واقع متصور فيه ذلك ، أما شخص يجلس في مجالس المسلمين يدرس فيها مناهج إسلامية والفقه وأحكامه وقضايا الصلاة والزكاة والمواريث وحرمة الزنا والخمر ثم يقول أن لا أقر بتحريم الخمر لأني جاهل لا أعلم ! هذا الكلام لا يقبل .

قال ابن قدامة رحمه الله :

" وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي كُفْرِ مَنْ تَرَكَهَا جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا، إذَا كَانَ مِمَّنْ لَا يَجْهَلُ مِثْلُهُ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ الْوُجُوبَ، كَحَدِيثِ الْإِسْلَامِ، وَالنَّاشِئِ بِغَيْرِ دَارِ الْإِسْلَامِ أَوْ بَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ الْأَمْصَارِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ، لَمْ يُحْكَمْ بِكُفْرِهِ، وَعُرِّفَ ذَلِكَ، وَتُثْبَتُ لَهُ أَدِلَّةُ وُجُوبِهَا، فَإِنْ جَحَدَهَا بَعْدَ ذَلِكَ كَفَرَ. وَأَمَّا إذَا كَانَ الْجَاحِدُ لَهَا نَاشِئًا فِي الْأَمْصَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يُكَفَّرُ بِمُجَرَّدِ جَحْدِهَا، وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي مَبَانِي الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَهِيَ الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ؛ لِأَنَّهَا مَبَانِي الْإِسْلَامِ، وَأَدِلَّةُ وُجُوبِهَا لَا تَكَادُ تَخْفَى، إذْ كَانَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مَشْحُونَيْنِ بِأَدِلَّتِهَا، وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَيْهَا، فَلَا يَجْحَدُهَا إلَّا مُعَانِدٌ لِلْإِسْلَامِ، يَمْتَنِعُ مِنْ الْتِزَامِ الْأَحْكَامِ، غَيْرُ قَابِلٍ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا إجْمَاعِ أُمَّتِهِ "[1].

وقال الخطابي رحمه الله :

" هَلْ إِذَا أَنْكَرَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا فَرْضَ الزَّكَاةِ وَامْتَنَعُوا مِنْ أَدَائِهَا يَكُونُ حُكْمُهُمْ حُكْمَ أَهْلِ الْبَغْيِ؟ قُلْنَا : لَا فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ فَرْضَ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ كَانَ كَافِرًا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا عُذِرُوا لِأَسْبَابٍ وَأُمُورٍ لَا يَحْدُثُ مِثْلُهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْهَا قُرْبُ الْعَهْدِ بِزَمَانِ الشَّرِيعَةِ الَّذِي كَانَ يَقَعُ فِيهِ تَبْدِيلُ الْأَحْكَامِ بِالنَّسْخِ . وَمِنْهَا أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا

---

[1] – المغني لابن قدامة (9/ 11)

جُهَّالًا بِأُمُورِ الدِّينِ وَكَانَ عَهْدُهُمْ بِالْإِسْلَامِ قَرِيبًا فَدَخَلَتْهُمُ الشُّبْهَةُ فَعُذِرُوا فَأَمَّا الْيَوْمَ وَقَدْ شَاعَ دِينُ الْإِسْلَامِ وَاسْتَفَاضَ فِي الْمُسْلِمِينَ عِلْمُ وُجُوبِ الزَّكَاةِ حَتَّى عَرَفَهَا الْخَاصُّ وَالْعَامُّ وَاشْتَرَكَ فِيهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ فَلَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِتَأْوِيلٍ يَتَأَوَّلُهُ فِي إِنْكَارِهَا .

وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ إِذَا كَانَ عِلْمُهُ مُنْتَشِرًا كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصَوْمِ شَهْرِ رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنى وَالْخَمْرِ وَنِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلًا حَدِيثَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ وَلَا يَعْرِفُ حُدُودَهُ فَإِنَّهُ إِذَا أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْهَا جَهْلًا بِهِ لَمْ يَكْفُرْ وَكَانَ سَبِيلُهُ سَبِيلَ أُولَئِكَ الْقَوْمِ فِي بَقَاءِ اسْمِ الدِّينِ عَلَيْهِ فَأَمَّا مَا كَانَ الْإِجْمَاعُ فِيهِ مَعْلُومًا مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ الْخَاصَّةِ كَتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا وَأَنَّ الْقَاتِلَ عَمْدًا لَا يَرِثُ وَأَنَّ لِلْجَدَّةِ السُّدُسَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَهَا لَا يَكْفُرُ بَلْ يُعْذَرُ فِيهَا لِعَدَمِ اسْتِفَاضَةِ عِلْمِهَا فِي الْعَامَّةِ "[1]

فإذا مسألة إقامة الحجة قضية دقيقة ، والحجة تختلف من بلد إلى أخرى ومن زمن إلى آخر ومن مسألة إلى أخرى وتختلف باختلاف الأنظار والاجتهادات .

ولابد من التنبيه إلى أن القصور في الدعوة واضح ؛ مما أدى إلى وقوع البعض في الشرك .

فهناك أمران مهمان جدا :

1- أقامة الحجة من قبل الدعاة

2- وجود قضاء شرعي ينظر في مجريات الأمور .

فإذا لابد من ضرورة بلوغ الحجة للمعين وأن يتمكن من معرفتها وتثبت وتصل إليه واضحة ، ربما يصل إلي أناس في أوربا وأمريكا عن الإسلام أشياء مشوشة ومشوهة ، يقوم بهذا اليهود والتنصيريون ومن والاهم ممن يكيد للإسلام وأهله .

[1] - انظر : شرح النووي على مسلم (1/ 205)

فعندما نقول " بلوغ الحجة " معنى ذلك أنه لابد أن يصل الإسلام واضحا صحيحا حتى تكون الحجة مقامة ؛ فلو أن قضية وصلت مشوهة لا تعتبر أقيمت الحجة بها طبعا، وإذا كان رجل يقرأ ويطلع وعنده شبهات فلا تقوم الحجة حتى تنفى الشبهات وينتفى التأويل .

والخلاصة فى موانع التكفير :

أن من وقع فى عمل من أعمال الكفر سواء ذلك كان فى العقائد أو الأحكام وسواء فى المسائل الظاهرة أو الخفية بما فى ذلك الوقوع فى الشرك وكان جاهلا فى الحكم مثل أن يكون حديث عهد بالاسلام أو نشأ فى بادية بعيدة فإنه لا يكفر حتى تقام عليه الحجة .

ومما يترتب على القول بعدم العذر بالجهل ما يلي :

أولا:- مخالفة منهج السلف فى الاحتياط فى تكفير المعين والتأثر بمذهب الخوارج .

ثانيا:- أن مسألة التحسين والتقبيح العقلية التي عند المعتزلة تكون عنده صحيحة بمعنى أن الحجة يمكن أن تقوم بدون إرسال الرسل لأن المعتزلة يقولون يمكن معرفة الحق كله بالعقل فقط بدون إرسال الرسل .

ثالثا:- التأثر بمذهب المرجئة .

رابعا:- تكفير ناس معروفين من العلماء كالسبكى والسيوطى والهيثمي لأن هؤلاء رحمهم الله لهم أقوال فى إقرار بعض ألوان الشرك ، فإذا كان لا يعذر بالجهل ولا ينظر فى قضية إقامة الحجة ولا إزالة الشبهات فسيلزمه تكفير مثل هؤلاء ، وهذه من الطوام.

وكذلك : فإنك تعجب من حماسة بعض الناس وإصرارهم على إطلاق التكفير بدافع الغيرة على التوحيد وهم فى الحقيقة يكونون متأثرين بمذهب الخوارج أو المرجئة!

مسألة : من لم تبلغه الدعوة ، ويسمون بأهل الفترة .[1]

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تعريف الفترة: "هي ما بين كل نبيين كانقطاع الرسالة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم "[2]

[1] – راجع : نواقض الإيمان الاعتقادية (227/1) وما بعدها .

[2] – تفسير ابن كثير (35/2)

وقال الألوسي رحمه الله: " أجمع المفسرون بأن الفترة هي انقطاع ما بين رسولين " [1]

وهؤلاء قد اختلف العلماء فى شأنهم على أقوال :-

الأول : أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجيا . واختاره النووى والقرطبي وابن الجوزي وابن حجر وغيرهم .

الثانى : أن من مات ولم تبلغه الدعوة فهو فى النار وهو قول جماعة من المتكلمين وأهل التفسير .

الثالث : الوقف فى أمرهم وقد يعبر عنه بأنهم تحت المشيئة وهو منقول عن الحمادين وابن المبارك وإسحاق بن راهويه .

الرابع : أنهم يمتحنون في عرصات القيامة بنار يأمرهم الله سبحانه وتعالى بدخولها، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها فقد عصى الله تعالى فهو من أهل النار، وهذا قول جمهور السلف، حكاه الأشعري عنهم ، وممن قال به محمد بن نصر المروزي، والبيهقي . ونصره شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير .

قال ابن تيمية رحمه الله :

" وَمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا بِالرِّسَالَةِ كَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ وَأَهْلِ الْفَتَرَاتِ فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ أَقْوَالٌ أَظْهَرُهَا مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَتِهِ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ اسْتَحَقُّوا الثَّوَابَ وَإِنْ عَصَوْهُ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ "[2]

وقال ابن القيم رحمه الله :

" المذهب الثامن – يعني في أطفال المشركين –: أنهم يمتحنون فى عرصة القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار. وعلى هذا فيكون بعضهم فى الجنة وبعضهم فى النار. وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها. وتتوافق الأحاديث ويكون معلوم الله عز وجل الذى أحال عليه النبى صلى الله عليه وسلم حيث

---

[1] – روح المعاني (103/6)

[2] – الجواب الصحيح (2/ 298)

يقول: (الله أعلم بما كانوا عاملين)[1]، يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوماً علماً خارجياً لا علماً مجرداً، ويكون النبى صلى الله عليه وسلم قد رد جوابهم إلى علم الله فيهم، والله [تعالى] يرد ثوابهم وعقابهم إلى معلومه منهم، فالخبر عنهم مردود إلى علمه ومصيرهم مردود إلى معلومه، وقد جاءَت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضاً "[2]

فعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا وَرَجُلٌ أَحْمَقُ وَرَجُلٌ هَرَمٌ وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ . قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا) وفي رواية (فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا)[3]

فهذا دليل صحيح صريح في هذه المسألة .

قال ابن القيم رحمه الله :

" فإن قيل: فالآخرة دار جزاءٍ، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون فى غير دار التكليف؟ فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما فى البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين فى البرزخ وهى تكليف. وأما فى عرصة القيامة فقال تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: 42] ، فهذا صريح فى أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف، بما لا يطاق حينئذ حساً عقوبة لهم، لأنهم كلفوا به فى الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة

---

[1] – متفق عليه

[2] – طريق الهجرتين (ص: 396–397)

[3] – رواه الإمام أحمد (15866) وصححه الألباني في الصحيحة

عليهم وعقوبة لهم، ولهذا قال تعالى: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: 43] يعنى أصحابه لا أحد يمنعهم منه فلما تركوه وهم سالمون، دعوا إليه فى وقت حيل بينهم وبينه.

وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب فى الدنيا طوعاً واختياراً أجاب فى البرزخ، ومن امتنع من الإجابة فى الدنيا منع منها فى البرزخ، ولم يكن تكليفه فى الحال وهو غير قادر قبيحاً، بل هو مقتضى الحكمة الإلهية، لأنه كلف وقت القدرة فأَبى، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار.

فعلم أن الذى تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأْتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول والله أعلم " [1]

مسألة : الخطأ

الخطأ في اللغة: ضد الصواب والمخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره بخلاف الخاطئ الذى تعمد ما لا ينبغى .

أما معنى الخطأ في الاصطلاح: فقال الحافظ ابن رجب– رحمه الله –: (الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئاً فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلماً) [2]

فالخطأ : كل ما يصدر عن المكلف من قول أو فعل خال عن إرادته وغير مقترن بقصد منه [3]

والله قد بين عذر المخطئ بقوله (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا). (الأحزاب–5) وقال تعالى (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) (البقرة–286) وفي الحديث المشهور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)[4]

---

[1] – طريق الهجرتين (ص: 400–401)

[2] – جامع العلوم والحكم (ص 352)

[3] – عوارض الأهلية عند الأصوليين (ص 396)

[4] رواه ابن ماجة (2043) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة

وقد عذر النبي صلي الله عليه وسلم الحاكم المخطأ فقال (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ) [1]

فإن قال قائل: كيف جعل له أجرا علي خطئه ؟

فالجواب : أنه إنما جعل له الأجر علي اجتهاده وعفى عن خطئه لأنه لم يقصده ، وأما المجتهد المصيب فله أجران: أجر علي اجتهاده وأجر علي إصابته الحق .

وعلى ما تقدم وغيره : فقد تواترت النصوص من الكتاب والسنة في إعذار المخطيء، وأن حكمه حكم الجاهل والمتأول – فلا يكفر إلا بعد قيام الحجة عليه –، وأنه إن كان مجتهداً فيما يسوغ فيه الاجتهاد – فله أجر باجتهاده – ولو أخطأ – أما إن لم يكن مجتهداً وأخطأ فيأثم لتفريطه.

لكن هل يفرق في ذلك بين العقائد والأحكام؟

نقل شيخ الإسلام الأقوال في هذه المسألة، ثم بين أن قول السلف وأئمة الفتوى كأبي حنيفة، والشافعي، والثوري وداود بن علي وغيرهم أنهم لا يؤثمون مجتهداً مخطئاً لا في المسائل الأصولية ولا في الفروعية، كما ذكر ذلك عنهم ابن حزم وغيره، ولهذا كان أبو حنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة أهل الأهواء، إلا الخطابية ، ويصححون الصلاة خلفهم، والكافر لا تقبل شهادته على المسلمين، ولا يصلي خلفه. وقالوا: هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين: أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة عملية ولا علمية، قالوا:

والفرق بين مسائل الأصول والفروع إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام من المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غوره، قالوا: والفرق في ذلك بين مسائل الأصول والفروع كما أنه بدعة محدثة في الإسلام، لم يدل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة،

---

[1] – متفق عليه

فهي باطلة عقلاً، فإن المفرقين بين ما جعلوه مسائل أصول ومسائل فروع لم يفرقوا بينهما بفرق صحيح يميز بين النوعين .[1]

ما هي الأشياء الأخرى من الأعذار ؟

الإكراه .

والإكراه في اللغة يدور معناه حول المشقة والإجبار والقهر ومنافاة المحبة والرضا والاختيار .

فالإكراه إلزام للغير قهرا بالوعيد بالقتل أو غيره علي فعل أمر لا يحبه ولا يريده .

والعلماء يقسمون الإكراه إلي قسمين : إكراه ملجيء وإكراه غير ملجيء .

الإكراه الملجيء: هو الإكراه التام الذي يقع علي نفس المكره ولا يبقي للشخص معه قدرة ولا اختيار بأن يهدد بالقتل أو بقطع عضو من أعضائه من يديه أو رجليه أو بضرب شديد يفضي إلي قتله وهلاكه أو بإتلاف جميع ماله ، فإذا غلب علي ظنه أن هذا التهديد سيوقع عليه ، جاز له القيام بما يدفعه ولو كان شيئا حراما من باب الضرورة الشرعية .

الإكراه غير الملجيء: هو الإكراه الناقص وهو التهديد أو الوعيد بما دون تلف النفس أو العضو كالتهديد بالضرب أو الحبس أو إتلاف بعض المال ، وقد يلحق بهذا التهديد بحبس الابن أو الأب أو الزوجة أو الأخت أو نحو ذلك .

والإكراه إذا وقع فيه الإنسان يكون له رخصة شاملة بالأقوال والأفعال إلا القتل ، فلا يجوز لإنسان أن يقول أنا أكرهت علي قتل فلان ؛ لأن الأرواح في الشريعة متساوية ، فكيف تقدم نجاة روحك علي روح غيرك ؟ وكذلك في الزنا ، فقد ذهب كثير من الفقهاء إلى أن من أكره على الزنا بامرأة لم يجز له الإقدام عليه ؛ لتعلق ذلك بحقوق الناس ، فلا يجوز أن يحمي نفسه بالاعتداء على حق غيره .

نتكلم عن مسألة الإكراه في الكفر :

قال الله تعالي (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).(النحل–106)

---

[1] – راجع : منهاج السنة (5/87–88)

قال الحافظ رحمه الله :

" وَالْمَشْهُور أَنَّ الْآيَة الْمَذْكُورَة نَزَلَتْ فِي عَمَّار بْن يَاسِر كَمَا جَاءَ مِنْ طَرِيق أَبِي عُبَيْدَة بْن مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن يَاسِر قَالَ " أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارًا فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْض مَا أَرَادُوا , فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : كَيْف تَجِد قَلْبك ؟ قَالَ : مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ , قَالَ فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ " وَهُوَ مُرْسَل وَرِجَاله ثِقَات أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ وَقَبِلَهُ عَبْد الرَّزَّاق وَعَنْهُ عَبْد بْن حُمَيْد , وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْه فَزَادَ فِي السَّنَد فَقَالَ " عَنْ أَبِي عُبَيْدَة بْن مُحَمَّد بْن عَمَّار عَنْ أَبِيهِ " وَهُوَ مُرْسَل أَيْضًا , وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيق عَطِيَّة الْعَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس نَحْوه مُطَوَّلًا وَفِي سَنَده ضَعْف . وَفِيهِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عَذَّبُوا عَمَّارًا وَأَبَاهُ وَأُمّه وَصُهَيْبًا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَسَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَة , فَمَاتَ يَاسِر وَامْرَأَته فِي الْعَذَاب وَصَبَرَ الْآخَرُونَ . وَفِي رِوَايَة مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس عِنْد اِبْن الْمُنْذِر أَنَّ الصَّحَابَة لَمَّا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَة أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ خَبَّابًا وَبِلَالًا وَعَمَّارًا , فَأَطَاعَهُمْ عَمَّارٌ وَأَبَى الْآخَرَانِ فَعَذَّبُوهُمَا ... " إلى أن قال :

" وَهَذِهِ الْمَرَاسِيل تَقَوَّى بَعْضُهَا بِبَعْضٍ " [1]

قال ابن بطال رحمه الله :

" أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعى، غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا فى الظاهر، وهو فيما بينه وبين الله على الإسلام وتبين منه امرأته، ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلمًا. وهذا قول تغنى حكايته عن الرد عليه لمخالفته للآيات المذكورة فى أول هذا الباب "[2].

لكن ينبغي أن نعلم أنه وإن جاز قول الكفر في هذه الحالة أو جاز فعل الكفر في هذه الحالة ، إلا أن الصبر أجمل وأعظم أجرا .

قال ابن بطال :

---

[1] – فتح الباري (312/12)

[2] – شرح صحيح البخارى (8/ 291)

" أجمع العلماء أن من أكره على الكفر فاختار القتل، أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة "[1] . وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

" اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كَمَا كَانَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حَتَّى إنهم ليضعوا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، ويأمرونه بالشرك بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْمَعُ. فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ ... وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَثْبُتَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قتله "[2].

وقد دل على أن الثبات على الدين وعدم الترخص أفضل حديث خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟! فقَالَ : (كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[3]

وهذا يتأكد في حق من يقتدي به الناس والعامة ويتبعونه في تصرفاته وأقواله ، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله في قضية إكراهه في خلق القرآن فرفض الترخص وصبر علي الضرب الشديد

---

[1] – شرح صحيح البخارى (8/ 295)

[2] – تفسير ابن كثير (4/ 520–521)

[3] – رواه البخاري (3612)

حتى كاد أن يهلك ، فكان يقول العبارة المشهورة : " إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل يجهل فمتي يتبين الحق؟ "[1].

عذر آخر أيضا قد يمنع من التكفير وهي قضية التأويل .

والمقصود بالتأويل ها هنا: التلبس والوقوع في الكفر من غير قصد لذلك، وسببه القصور في فهم الأدلة الشرعية، دون تعمد للمخالفة، بل قد يعتقد أنه على حق.

قال الحافظ : " قال العلماء: كل متأول معذور بتأويله ليس بآثم، إذا كان تأويله سائغاً في لسان العرب، وكان له وجه في العلم "[2]

وقال ابن حزم رحمه الله :

" من بلغه الأمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من طريق ثابتة، وهو مسلم، فتأول في خلافه إياه، أو ردّ ما بلغه بنص آخر، فما لم تقم عليه الحجة في خطئه في ترك ما ترك، وفي الأخذ بما أخذ، فهو مأجور معذور، لقصده إلى الحق، وجهله به، وإن قامت عليه الحجة في ذلك، فعاند، فلا تأويل بعد قيام الحجة " [3]

وقال قوام السنة رحمه الله :

" المتأول إذا أَخطَأ وَكَانَ من أهل عقد الْإِيمَان نُظِرَ فِي تَأْوِيله فَإِن كَانَ قد تعلق بِأَمْر يُفْضِي بِهِ إِلَى خلاف بعض كتاب الله، أَو سنة يقطع بهَا الْعذر، أَو إِجْمَاع فَإِنَّهُ يكفر وَلَا يعْذر. لِأَن الشُّبْهَة الَّتِي يتَعَلَّق بهَا من هَذَا ضَعِيفَة لَا يُقَوي قُوَّة يعْذر بهَا لِأَن مَا شهد لَهُ أصل من هَذَا الْأُصُول فَإِنَّهُ فِي غَايَة الوضوح وَالْبَيَان فَلَمَّا كَانَ صَاحب هَذِهِ الْمقَالة لَا يصعب عَلَيْهِ دَرك الْحق، وَلَا يغمض عِنْده بعض مَوضِع الْحجَّة لم يعْذر فِي الذّهاب عَن الْحق، بل عمل خِلَافه فِي ذَلِكَ عَلَى أَنه عناد وإصرار، وَمن تعمد خلاف أصل من هَذِهِ الْأُصُول وَكَانَ جَاهِلا لم يقْصد إِلَيْهِ من طَرِيق العناد فَإِنَّهُ لَا يكفر، لِأَنَّهُ لم يقْصد اخْتِيَار الْكفْر وَلَا رَضِي بِهِ وَقد بلغ جهده فَلم يَقع لَهُ غير ذَلِكَ، وَقد أعلم الله سُبْحَانَهُ أَنه لَا يُؤَاخذ إِلَّا بعد الْبَيَان، وَلَا يُعَاقب إِلَّا بعد الْإِنْذَار فَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ

---

[1] - زاد المسير (272/1)
[2] - فتح الباري (304/12)
[3] - الدرة (ص404)

اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هدَاهُم} فَكل من هداه الله عَزَّ وَجَلَّ وَدخل فِي عقد الْإِسْلَام فَإِنَّهُ لَا يخرج إِلَى الْكفْر إِلَّا بعد الْبَيَان "[1]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

" قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ حَدِيثَ عَهْدٍ بِإِسْلَامِ أَوْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ. وَمِثْلُ هَذَا لَا يَكْفُرُ بِجَحْدِ مَا يَجْحَدُهُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ. وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَا يَسْمَعُ تِلْكَ النُّصُوصَ أَوْ سَمِعَهَا وَلَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ أَوْ عَارَضَهَا عِنْدَهُ مُعَارِضٌ آخَرُ أَوْجَبَ تَأْوِيلَهَا، وَإِنْ كَانَ مُخْطِئًا، وَكُنْت دَائِمًا أَذْكُرُ الْحَدِيثَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: " {إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذروني فِي الْيَمِّ فَوَاَللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: مَا حَمَلَك عَلَى مَا فَعَلْت. قَالَ خَشْيَتُك: فَغَفَرَ لَهُ} ". فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي إعَادَتِهِ إذَا ذُرِّيَ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَهُ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ. وَالْمُتَأَوِّلُ مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ الْحَرِيصُ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ أَوْلَى بِالْمَغْفِرَةِ مِنْ مِثْلِ هَذَا "[2].

وهؤلاء العلماء الذين وقعوا في شيء من تأويل الصفات ، لا يمكن أن نقول أنهم قصدوا خلاف قول الله ورسوله وجحدوا صفات الرب تعالى وأرادوا رد حكم الكتاب والسنة ، هذا غير ممكن . فهؤلاء أخطأوا في ما نفوه من الصفات أو ما حرفوه بالأحرى ولكن لمعارض عندهم أو دليلين اجتمعا لمحوا في أحدهما ما يوجب تأويل الآخر ، وقعوا فيما وقعوا فيه .

ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم تقاتلوا ، ولكن متأولين ، ويظن كل فريق أنه أولى بالحق من صاحبه ، ولذلك لم يفسّق علي رضي الله عنه أحدا ممن قاتله فضلا عن تكفيره ، وإنما صلى على قتلاهم وترحم عليهم ، قال شيخ الإسلام رحمه الله :

---

[1] – الحجة في بيان المحجة (2/ 551–552)

[2] – مجموع الفتاوى (3/ 231)

" وقد ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من وجوهٍ أنه لمّا قاتَلَ أهلَ الجمل لم يَسْبِ لهم ذُرّيّةً، ولم يَغْنَم لهم مالاً، ولا أَجْهَزَ على جَريح، ولا اتبعَ مدبرًا، ولا قَتلَ أسيرًا، وأنه صلَّى على قتلَى الطائفتين بالجمل وصفين، وقال: "إخوانُنا بَغَوا علينا" ، وأخبَر أنهم ليسوا بكفَّار ولا منافقين، واتَّبعَ فيما قالَه كتابَ الله وسنةَ نبيِّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فإنّ الله سماهم إخوةً، وجعلَهم مؤمنين في الاقتتال والبغي، كما ذكر في قوله: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) "[1]

فالصحابة لم يقتتلوا لهوى ، ولكن كما تقدم كل طائفة كانت تظن أنها على الحق ، وهذا من التأويل، وهو عذر في مثل هذه الحالات .

أما من يأتي ويقول أنا أؤول الصلاة بذكر الأسماء الخمسة علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة. والحج ، قال : هو الذهاب إلي شيخ الطريقة ، ما هو القول في هذا التأويل ؟

الجواب : هذا تأويل باطل ولا يقبل ولا وجه له .

ولذلك: ما هو التأويل الذي يعذر به صاحبه ؟

التأويل الذي يعذر به صاحبه لابد أن يكون له وجه وإن كان خطأ ، ولكن له وجه علي أساسه قبلنا عذر هذا الرجل ، وإلا فاستحلال المحرمات بالحيل الباطلة وتأويلات الباطنية والفلاسفة وأهل الكلام من التأويلات الباطلة التي لا عذر فيها لأصحابها .

لا يمكن أن يكون عند من اعتقد أن عليا هو الله – تعالى الله – لا يمكن أن يكون عندهم تأويل سائغ مقبول ، فالمسائل التي لا يعذر أحد بجهلها لا يدخلها التأويل السائغ ، ولا عذر لأصحابها لا في الدنيا ولا في الآخرة .

مسألة التكفير بالمآل أو بلازم المذهب .

لو قال بعض الجهال من الناس أن الله في كل مكان ، فما الذي يؤول إليه كلامهم ؟

يؤل إلي مذهب الحلول والاتحاد. فلازم مذهبهم يؤول إلي الكفر الصريح ، فهل تحكم عليهم بلازم مذهبهم وتكفرهم ؟ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالي

---

[1] – جامع المسائل (3/ 82)

" وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ: هَلْ لَازِمُ الْمَذْهَبِ مَذْهَبٌ أَمْ لَيْسَ بِمَذْهَبِ؟ فَالصَّوَابُ: أَنَّ لَازِمَ مَذْهَبَ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ لَهُ إذَا لَمْ يَلْتَزِمْهُ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ قَدْ أَنْكَرَهُ وَنَفَاهُ كَانَتْ إضَافَتُهُ إلَيْهِ كَذِبًا عَلَيْهِ بَلْ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِهِ وَتَنَاقُضِهِ فِي الْمَقَالِ غَيْرِ الْتِزَامِهِ اللَّوَازِمَ الَّتِي يَظْهَرُ أَنَّهَا مِنْ قِبَلِ الْكُفْرِ وَالْمِحَالِ مِمَّا هُوَ أَكْثَرُ فَالَّذِينَ قَالُوا بِأَقْوَالِ يَلْزَمُهَا أَقْوَالٌ يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَلْتَزِمُهَا لَكِنْ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهَا تَلْزَمُهُ وَلَوْ كَانَ لَازِمُ الْمَذْهَبِ مَذْهَبًا لَلَزِمَ تَكْفِيرُ كُلِّ مَنْ قَالَ عَنْ الِاسْتِوَاءِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الصِّفَاتِ أَنَّهُ مَجَازٌ لَيْسَ بِحَقِيقَةِ؛ فَإِنَّ لَازِمَ هَذَا الْقَوْلِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَاتِهِ حَقِيقَةً وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُثْبِتْ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا لَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَالْإِقْرَارِ بِهِ إيمَانًا؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يُثْبِتُهُ الْقَلْبُ إلَّا وَيُقَالُ فِيهِ نَظِيرُ مَا يُقَالُ فِي الْآخَرِ وَلَازِمُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ يَسْتَلْزِمُ قَوْلَ غُلَاةِ الْمَلَاحِدَةِ الْمُعَطِّلِينَ الَّذِينَ هُمْ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

لَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَنْفِي ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ لَوَازِمَ قَوْلِهِ بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ إلَّا مَحْضَ حَقَائِقِ الْمَخْلُوقِينَ "[1]

وقال ابن حزم رحمه الله: "وأما من كفر الناس بما تؤول إليه أقوالهم فخطأ، لأنه كذب على الخصم وتقويل له ما لم يقل به، وإن لزمه فلم يحصل على غير التناقض فقط، والتناقض ليس كفراً، بل قد أحسن إذ فر من الكفر"[2]

ويقول ابن حجر المكي: "الصواب عند الأكثرين من علماء السلف والخلف: أنا لا نكفِّر أهل البدع والأهواء إلا إن أتوا بمكفر صريح، لا استلزامي، لأن الأصح أن لازم المذهب ليس بلازم "[3].

والتكفير باللازم يؤدي إلى شناعة لا حد لها، إذ يستلزم تبادل التكفير .

---

[1] – مجموع الفتاوى (20/ 217)

[2] – الفصل (294/3)

[3] – تحفة الأحوذي (302/6)

ولو قال قائل : ماذا بالنسبة لأتباع الباطنية الذين يقلدون مشايخ الطريقة ، فهل نحكم بكفر هؤلاء الأتباع الجهلة ؟ والجواب عن هذا يدعونا إلي بحث مسألة التقليد .

التقليـــد

التقليد لغة: مصدر للفعل الرباعى "قلَّد" بتضعيف اللام المفتوحة يقال: قلَّد فلان فلانا الأمر أى ألزمه إياه. كما يقال: قلد الماء فى الحوض واللبن فى السقاء يقلده قلْدا أى جمعه فيه.

ويقال: التقليد فى الدين، وتقليد الولاة والأعمال.. وتقلَّد الأمر احتمله.[1]

واصطلاحا: يُقصد به التزام حكم المقلَّد من غير دليل بحيث يلتزم المقلِّد قول المقلَّد شرعا فينعقد ما حرّمه حراما وما أوجبه واجبا، وما أباحه مباحا من غير دليل يستدل به المقلِّد على شيء من ذلك إلا قول من قلّده .

وعرّفه إمام الحرمين بأنه "قبول قول الغير من غير حجة" [2]

وقيل : هو اتباع قول من ليس قوله حجة.[3]

أما بالنسبة للأحكام : فإن الذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة ، لا يوجبون الاجتهاد علي كل أحد ويحرمون التقليد ، ولا يوجبون التقليد علي كل أحد ويحرمون الاجتهاد .

وأما الاجتهاد فجائز للقادر علي الاجتهاد ، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد ، فأما القادر علي الاجتهاد فلا يجوز له أن يقلد مَن في مثل حاله إلا إذا اضطر: إما لتكافؤ الأدلة أو لضيق الوقت عن الاجتهاد أو لعدم ظهور الدليل بالنسبة له .

وأما بالنسبة للعامي: فلابد له من أن يقلد ، فالعامة لابد لها من تقليد علمائها عند النوازل .

فالتقليد منه ما هو جائز ومنه ما هو غير جائز ، والتقليد الجائز هو الذي لا يختلف فيه أحد من المسلمين وهو تقليد العامي عالما في الفتيا ، وأما ما لا يجوز التقليد فيه بلا خلاف فتقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده فيذهب ويقلد مجتهدا آخر بخلاف ما ظهر له بالدليل فذلك لا يجوز .

---

[1] – لسان العرب(2718/5).

[2] – البرهان (888/2)

[3] – راجع : إرشاد الفحول (ص246–247)

ما حكم اتباع العوام مذاهب أهل البدع من الرافضة وغيرهم ؟

الذي يظهر من كلام الأئمة ، أن العذر بالتقليد من جنس العذر بالجهل باعتبار أن المكلف جاهل لا يفهم الدليل أو الحجة ، فإذا عذر من وقع في الكفر متأولا رغم علمه واجتهاده ، فعذر من يقلده من العوام من باب أولي .

كان العامة يعظمون ابن عربي الطائي وابن سينا وابن الفارض وكانوا يعدونهم من كبار العلماء ، هؤلاء العامة الذين يرددون أقوال ابن سبعين وابن عربي والحلاج ويعظمونهم ويقولون بكلامهم ، ما حكمهم ؟ قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر بعض مذاهب أهل الضلال وأقاويلهم :

" فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَخْبَرَ بِبَاطِنِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَوَافَقَهُمْ عَلَيْهِ كَانَ أَظْهَرَ كُفْرًا وَإِلْحَادًا. وَأَمَّا الْجُهَّالُ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ وَلَا يُفْهِمُونَهُ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْمَشَايِخِ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامٍ صَحِيحٍ لَا يَفْهَمُهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَهَؤُلَاءِ تَجِدُ فِيهِمْ إسْلَامًا وَإِيمَانًا وَمُتَابَعَةً لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِحَسَبِ إيمَانِهِمْ التَّقْلِيدِيِّ وَتَجِدُ فِيهِمْ إقْرَارًا لِهَؤُلَاءِ وَإِحْسَانًا لِلظَّنِّ بِهِمْ وَتَسْلِيمًا لَهُمْ بِحَسَبِ جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ؛ وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُثْنِيَ عَلَى هَؤُلَاءِ إلَّا كَافِرٌ مُلْحِدٌ أَوْ جَاهِلٌ ضَالٌّ "[1].

فعذر شيخ الإسلام هؤلاء المقلدين لهؤلاء الغلاة الذين لا يفهمون كلامهم ، لكن لو جاء واحد ممن يقلد هؤلاء الذين يقولون بوحدة الوجود ثم شرحت له معني كلامه الكفر الصريح: " فالعبد رب والرب عبد " ، وبسطت له علي قدر عقله ثم أصر ، فإنه يكفر مثل شيخه .

قال شيخ الإسلام : " وَأَمَّا الْمُنْتَسِبُونَ إلَى الشَّيْخِ يُونُسَ : فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَافِرٌ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يُقِرُّونَ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ بَلْ لَهُمْ مِنْ الْكَلَامِ فِي سَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ : مَا يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَهُمْ وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ عَامَّتِهِمْ - لَا يَعْرِفُ أَسْرَارَهُمْ وَحَقَائِقَهُمْ - فَهَذَا يَكُونُ مَعَهُ إسْلَامُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي اسْتَفَادَهُ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنْهُمْ "[2].

وقال ابن القيم رحمه الله :

---

[1] – مجموع الفتاوى (2/ 367)

[2] – مجموع الفتاوى (106/2)

" فَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ الْمُوَافِقُونَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُخَالِفُونَ فِي بَعْضِ الْأُصُولِ – كَالرَّافِضَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغُلَاةِ الْمُرْجِئَةِ وَنَحْوِهِمْ. فَهَؤُلَاءِ أَقْسَامٌ:

أَحَدُهَا: الْجَاهِلُ الْمُقَلِّدُ الَّذِي لَا بَصِيرَةَ لَهُ، فَهَذَا لَا يُكَفَّرُ وَلَا يُفَسَّقُ، وَلَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى، وَحُكْمُهُ حُكْمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا.

الْقِسْمُ الثَّانِي: الْمُتَمَكِّنُ مِنْ السُّؤَالِ وَطَلَبِ الْهِدَايَةِ، وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَلَكِنْ يَتْرُكُ ذَلِكَ اشْتِغَالًا بِدُنْيَاهُ وَرِيَاسَتِهِ، وَلَذَّتِهِ وَمَعَاشِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهَذَا مُفَرِّطٌ مُسْتَحِقٌّ لِلْوَعِيدِ، آثِمٌ بِتَرْكِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِ، فَهَذَا حُكْمُهُ حُكْمُ أَمْثَالِهِ مِنْ تَارِكِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتُ، فَإِنْ غَلَبَ مَا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ وَالْهَوَى عَلَى مَا فِيهِ مِنْ السُّنَّةِ وَالْهُدَى: رُدَّتْ شَهَادَتُهُ، وَإِنْ غَلَبَ مَا فِيهِ مِنْ السُّنَّةِ وَالْهُدَى: قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يَسْأَلَ وَيَطْلُبَ، وَيَتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى، وَيَتْرُكَهُ تَقْلِيدًا وَتَعَصُّبًا، أَوْ بُغْضًا أَوْ مُعَادَاةً لِأَصْحَابِهِ، فَهَذَا أَقَلُّ دَرَجَاتِهِ: أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا، وَتَكْفِيرُهُ مَحَلُّ اجْتِهَادٍ وَتَفْصِيلٍ، فَإِنْ كَانَ مُعْلِنًا دَاعِيَةً: رُدَّتْ شَهَادَتُهُ وَفَتَاوِيهِ وَأَحْكَامُهُ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ تُقْبَلْ لَهُ شَهَادَةٌ، وَلَا فَتْوَى وَلَا حُكْمَ، إلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ، كَحَالِ غَلَبَةِ هَؤُلَاءِ وَاسْتِيلَائِهِمْ، وَكَوْنِ الْقُضَاةِ وَالْمُفْتِينَ وَالشُّهُودِ مِنْهُمْ، فَفِي رَدِّ شَهَادَتِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ إذْ ذَاكَ فَسَادٌ كَثِيرٌ، وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ، فَتُقْبَلُ لِلضَّرُورَةِ "[1]

فمما سبق يتبين لنا إعذار الأئمة لمن وقع في الكفر تقليدا إن كان جاهلا لا بصيرة له ولا فقه لديه ، أما من كان قادرا علي فهم الحجة وفرط في طلبها فإنه يأثم ولكنه لا يكفر إلا بعد قيام الحجة عليه .

وقد قلنا سابقا أن مسألة قيام الحجة هي مسألة نسبية وإنها تختلف باختلاف الأحوال والأمكنة والأزمنة والوسائل أيضا ، وأن بعض البلدان قد يكون مقرر التوحيد في مدارسهم مأخوذا من

---

[1] – الطرق الحكمية (ص: 146–147)

الكتاب والسنة قائما علي الطريقة السلفية الصحيحة ومفندا للمذاهب الباطلة ، فبعض المقررات الدراسية قد تفي بالحجة .

كذلك هناك وسائل مثل الإنترنت فيمكن إقامة الحجة علي الناس في أقصي العالم من خلالها، إذاً هناك وسائل كثيرة لإقامة الحجة علي الناس .

وقلنا: نريد من الدعاة الاشتغال بإقامة الحجة ؛ لأن الله يريد إقامة الحجة علي الناس (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا). (النساء-165) فاشتغال الدعاة بذلك مقصد شرعي ومطلب رباني ، علي الأمة أن تقوم بإقامة الحجة علي الناس (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).(البقرة-143).

ولنتكلم الآن عن المكفرات ونواقض الإيمان ، والكفر وأنواعه والشرك .

أولا :- كفر الجحود والتكذيب ، وكذلك استحلال أمر معلوم من الدين بالضرورة .

كفر الجحود والتكذيب من جهة ، والاستحلال من جهة أخري ، ولعل الفرق بين هذا وذاك ليس بكبير ، قال الإمام ابن بطة رحمه الله :

" فَكُلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَوْ أَكَّدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجُحُودِ لَهَا وَالتَّكْذِيبِ بِهَا , فَهُوَ كَافِرٌ بَيِّنُ الْكُفْرِ لَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ عَاقِلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ أَقَرَّ بِذَلِكَ وَقَالَهُ بِلِسَانِهِ , ثُمَّ تَرَكَهُ تَهَاوُنًا وَمُجُونًا أَوْ مُعْتَقِدًا لَرَأْيِ الْمُرْجِئَةِ وَمُتَّبِعًا لِمَذَاهِبِهِمْ , فَهُوَ تَارِكُ الْإِيمَانِ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِنْهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ وَهُوَ فِي جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ نَافَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِوَصْفِهِمْ وَمَا أُعِدَّ لَهُمْ , وَإِنَّهُمْ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، نَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُرْجِئَةِ الضَّالَّةِ "[1].

وقال ابن قدامة رحمه الله :

" وَأَمَّا إذَا كَانَ الْجَاحِدُ لَهَا نَاشِئًا فِي الْأَمْصَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يُكَفَّرُ بِمُجَرَّدِ جَحْدِهَا، وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي مَبَانِي الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَهِيَ الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ؛ لِأَنَّهَا مَبَانِي الْإِسْلَامِ، وَأَدِلَّةُ وُجُوبِهَا لَا

[1] - الإبانة الكبرى (2/ 764)

تَكَادُ تَخْفَى، إِذْ كَانَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مَشْحُونَيْنِ بِأَدِلَّتِهَا، وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَيْهَا، فَلَا يَجْحَدُهَا إلَّا مُعَانِدٌ لِلْإِسْلَامِ، يَمْتَنِعُ مِنْ الْتِزَامِ الْأَحْكَامِ، غَيْرُ قَابِلٍ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا إجْمَاعِ أُمَّتِهِ "[1].

وقال القاضي عياض رحمه الله :

" نَقْطَع بِتَكْفِير كُلّ من كَذَّب وأنْكَر قاعِدَة من قَوَاعِد الشَّرْع وَمَا عُرِف يَقِينًا بالنّقْل الْمُتَوَاتِر من فِعْل الرَّسُول وَوَقَع الإجْماع الْمُتّصِل عَلَيْه كمن أنْكَر وُجُوب الصّلوات الخَمْس وعَدَد رَكَعاتِها وسَجَداتِها وَيَقُول إنَّمَا أوْجَب اللَّه عَلَيْنَا فِي كِتابِه الصَّلَاة عَلَى الْجُمْلَة وَكَوْنُها خَمْسًا وَعَلَى هَذِه الصّفات والشُّرُوط لَا أعْلَمُه ؛ إذ لَم يَرِد فِيه فِي الْقُرْآن نص جَليّ والخبر بِه عَن الرَّسُول صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم خبر واحد "[2].

بعض الذين ينشأون في بعض البلدان يمكن أن يكونوا معزولين تماما لا يصل إليهم الدين بالشكل الصحيح ، أو بعض تفاصيل الدين ، ولذلك قضية التكفير قضية اجتهادية فحينما تقول أن فلانا أقيمت عليه الحجة أو ما أقيمت عليه الحجة ، فأنت قد تقول أنها أقيمت عليه وأنا لا أقول بذلك ، فالقضية إذاً قد يكون فيها خلاف في الاجتهاد في التكفير: هل أقيمت الحجة أو ما أقيمت .

وهناك قضايا واضحة لا ينبغي النقاش فيها ، قال ابن قدامة :

" وَمَنْ اعْتَقَدَ حِلَّ شَيْءٍ أُجْمِعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَظَهَرَ حُكْمُهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَزَالَتْ الشُّبْهَةُ فِيهِ لِلنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِيهِ، كَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، وَالزِّنَى، وَأَشْبَاهِ هَذَا، مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ، كُفِّرَ؛ لِمَا ذَكَرْنَا فِي تَارِكِ الصَّلَاةِ "[3].

---

[1] – المغني (9/ 11)

[2] – الشفا بتعريف حقوق المصطفى (2/ 287)

[3] – المغني (9/ 11)

ما الشبهة في لحم الخنزير ؟ واحد يقول الآن : لحم الخنزير ليس بحرام ، فقلت له لماذا ؟ قال: لحم الخنزير كان حراما أيام زمان؛ لأنه كان يأكل القاذورات ، أما الآن فأكله نظيف لذلك ليس بحرام ، طبعا هذا إلي الاستهزاء أقرب منه إلى التأويل أو الاجتهاد ؛ فأنت أمامك نص بأن لحم الخنزير حرام ، نص واضح صريح ، وعليه إجماع الأمة .

الفرق بين الجحد والتكذيب والاستحلال والانكار:

من الآيات الصريحة في التفريق بين الجحد والتكذيب قوله تعالى: (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فالآية نفت عنهم التكذيب وأثبتت الجحود مما يدل على عدم تلازمهما، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية حول هذه الآية: " فَنَفَى عَنْهُمْ التَّكْذِيبَ وَأَثْبَتَ الْجُحُودَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِاللِّسَانِ لَمْ يَكُنْ مُنْتَفِيًا عَنْهُمْ فَعُلِمَ أَنَّهُ نَفَى عَنْهُمْ تَكْذِيبَ الْقَلْبِ وَلَوْ كَانَ الْمُكَذِّبُ الْجَاحِدُ عِلْمُهُ يَقُومُ بِقَلْبِهِ خَبَرٌ نَفْسَانِيٌّ لَكَانُوا مُكَذِّبِينَ بِقُلُوبِهِمْ فَلَمَّا نَفَى عَنْهُمْ تَكْذِيبَ الْقُلُوبِ عُلِمَ أَنَّ الْجُحُودَ الَّذِي هُوَ ضَرْبٌ مِنْ الْكَذِبِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ لَيْسَ هُوَ كَذِبًا فِي النَّفْسِ وَلَا تَكْذِيبًا فِيهَا "[1]

إذاً يمكن أن يقال أن التكذيب أعم من الجحود إذ الجحود يكون في اللسان، والكذب يكون في القلب واللسان والعمل، ويمكن أن يقال أيضاً كل جحود تكذيب وليس كل تكذيب جحوداً.

ولذلك يفرق بعض العلماء بين كفر التكذيب، وكفر الجحود، قال الشيخ حافظ حكمي – رحمه الله –: " أنواع الكفر لا تخرج عن أربعة: كفر جهل و تكذيب، وكفر جحود، وكفر عناد واستكبار، وكفر نفاق " وقال في إيضاح ذلك: "... وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفر الجهل والتكذيب قال الله تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) ... وإن كتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجحود والكتمان، قال الله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)[2]

---

[1] – الفتاوى الكبرى (517/6)

[2] – معارج القبول (593/2)

ومن الفروق التي يذكرها بعض العلماء بين الجحد والتكذيب، أن الجحد يقترن بالعناد في كثير من الأحيان، أما الاستحلال فمعناه: أن يعتقد في المحرمات أن الله لم يحرمها أو أنها مباحة .

أما الإنكار: فيقابل المعرفة، كما أن التكذيب يقابل التصديق.[1]

وكلام الأئمة حول كفر الجاحد والمكذب والمنكر معروف، وقد أجمعوا علي كفر من جحد فريضة من الفرائض الظاهرة المتواترة أو كذب حكما من أحكام الله الظاهرة المتواترة ، وكلامهم في هذا منتشر في كتب العقائد والأحكام .

قال شيخ الإسلام :

" الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مُكَذِّبًا وَمُنْكِرًا لِأُمُورِ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ أَخْبَرَ بِهَا وَأَمَرَ بِهَا وَلَوْ عَلِمَ ذَلِكَ لَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يُنْكِرْ. بَلْ قَلْبُهُ جَازِمٌ بِأَنَّهُ لَا يُخْبِرُ إلَّا بِصِدْقِ وَلَا يَأْمُرُ إلَّا بِحَقِّ ثُمَّ يَسْمَعُ الْآيَةَ أَوْ الْحَدِيثَ أَوْ يَتَدَبَّرُ ذَلِكَ أَوْ يُفَسِّرُ لَهُ مَعْنَاهُ أَوْ يَظْهَرُ لَهُ ذَلِكَ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ فَيُصَدِّقُ بِمَا كَانَ مُكَذِّبًا بِهِ وَيَعْرِفُ مَا كَانَ مُنْكِرًا وَهَذَا تَصْدِيقٌ جَدِيدٌ وَإِيمَانٌ جَدِيدٌ ازْدَادَ بِهِ إيمَانُهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ كَافِرًا بَلْ جَاهِلًا؛ وَهَذَا وَإِنْ أَشْبَهَ الْمُجْمَلَ وَالْمُفَصَّلَ لِكَوْنِ قَلْبِهِ سَلِيمًا عَنْ تَكْذِيبٍ وَتَصْدِيقٍ لِشَيْءِ مِنْ التَّفَاصِيلِ وَعَنْ مَعْرِفَةٍ وَإِنْكَارٍ لِشَيْءِ مِنْ ذَلِكَ فَيَأْتِيهِ التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْإِجْمَالِ عَلَى قَلْبِ سَاذَجٍ؛ وَأَمَّا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بَلْ مِنْ أَهْلِ الْعُلُومِ وَالْعِبَادَاتِ فَيَقُومُ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ التَّفْصِيلِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ تُخَالِفُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا تُخَالِفُ فَإِذَا عَرَفُوا رَجَعُوا وَكُلُّ مَنْ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ قَوْلًا أَخْطَأَ فِيهِ أَوْ عَمِلَ عَمَلًا أَخْطَأَ فِيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالرَّسُولِ أَوْ عَرَفَ مَا قَالَهُ وَآمَنَ بِهِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ؛ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ قَصْدُهُ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ فَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَمَنْ عَلِمَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَعَمِلَ بِهِ أَكْمَلُ مِمَّنْ أَخْطَأَ ذَلِكَ؛ وَمَنْ عَلِمَ الصَّوَابَ بَعْدَ الْخَطَأِ وَعَمِلَ بِهِ فَهُوَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ "[2].

---

[1] – نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف [1 /286–288]

[2] – مجموع الفتاوى (7/ 237)

وطرح هذه القضية في هذا الزمن مهم جدا لأن سوق التكذيب والجحود الآن وسوق الاستحلال للحرام ومعاندة الله في أحكامه سوق رائجة في الناس، وصار إعلان الكفر الآن بالروايات والقصص وغير ذلك، فلابد من توضيح قضية أنواع الكفر للناس لأنهم صباحا ومساء يسمعونه.

قال القاضي عياض رحمه الله :

" من أنكر الْقُرْآن أَو حرفا مِنْه أَو غَير شَيْئًا مِنْه أَو زاد فِيه كفعل الباطنية والإسماعيلية أَو زعم أنَّه لَيْس بحجة للنبي صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم أَو لَيْس فِيه حجة وَلَا مُعْجِزَة كقول هِشَام الفوطي ومعمر الصيمري إنَّه لَا يدل عَلَى اللَّه وَلَا حجة فيها لرسوله وَلَا يَدُلّ عَلَى ثَوَاب وَلَا عِقَاب وَلَا حُكْم وَلَا مَحَالَة فِي كُفْرِهِمَا بِذَلِك القَوْل وَكَذَلِك نُكَفرهُما بإنْكارِهِمَا أن يَكُون فِي سائِر مُعْجِزَات النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم حجة لَه أَو فِي خلق السَّمَوَات والأرض دَليل على الله لمخالفتهم الإجْماع والنّقْل المُتَوَاتِر عَن النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم باحْتِجَاجِه بَهَذَا كُله وَتَصْرِيح الْقُرْآن بِه وَكَذَلِك من أنكر شَيْئًا مِمَّا نص فِيه الْقُرْآن بَعْد علمه أنَّه من الْقُرْآن الَّذِي فِي أيدي النَّاس ومصاحف لمسلمين ولم يكن جاهلًا بِه وَلَا قريب عهد بالْإِسْلَام واحْتَجّ لإنْكاره إمَّا بأنه لم يصبح النّقْل عِنْدَه وَلَا بَلَغَه الْعِلْم بِه أَو لِتَجْوِيز الْوَهْم على ناقله فنكفره بالطريقين المتقدمين لِأَنَّه مُكَذّب للقرآن مُكَذّب للنبي صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم لكنه تَسَتّر بدَعْوَاه وَكَذَلِك من أنْكَر الْجَنة أَو النَّار أَو البَعْث أَو الحساب أو القيامة فهو كافِر بإجْماع لِلنصّ عَلَيْه وإجْماع الْأُمَّة عَلَى صِحّة نَقْله مُتَوَاترًا وَكَذَلِك من اعْتَرَف بِذَلِك ولكنه قَال إنّ المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب مَعْنَي غَيْر ظاهره وَأَنَّهَا لذات روحانية ومعان باطنة كقول النَّصَارَى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة وزعم أن مَعْنَي الْقِيَامَة الموت أو فناه محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم كقول بَعْض الفلاسفة وَكَذَلِك نقطع بتكفير غلاة الرافضة فِي قولهم إنّ الْأَئِمَّة أفضل مِن الْأَنْبِيَاء "[1].

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

---

[1] - الشفا (2/ 289-290)

" وَمَنْ جَحَدَ وُجُوبَ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ: كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَوْ جَحْدِ تَحْرِيمِ بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ: كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالزِّنَا وَغَيْرِ ذَلِكَ. أَوْ جَحْدِ حِلِّ بَعْضِ الْمُبَاحَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ: كَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَالنِّكَاحِ. فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ وَإِنْ أَضْمَرَ ذَلِكَ كَانَ زِنْدِيقًا مُنَافِقًا لَا يُسْتَتَابُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛ بَلْ يُقْتَلُ بِلَا اسْتِتَابَةٍ إذَا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِلُّ بَعْضَ الْفَوَاحِشِ: كَاسْتِحْلَالِ مُؤَاخَاةِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ وَالْخُلُوِّ بِهِنَّ زَعْمًا مِنْهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُنَّ الْبَرَكَةُ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُنَّ وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا فِي الشَّرِيعَةِ. وَكَذَلِكَ مَنْ يَسْتَحِلُّ ذَلِكَ مِنْ المردان وَيَزْعُمُ أَنَّ التَّمَتُّعَ بِالنَّظَرِ إلَيْهِمْ وَمُبَاشَرَتَهُمْ هُوَ طَرِيقٌ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ حَتَّى يَتَرَقَّى مِنْ مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ إلَى مَحَبَّةِ الْخَالِقِ وَيَأْمُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى وَقَدْ يَسْتَحِلُّونَ الْفَاحِشَةَ الْكُبْرَى كَمَا يَسْتَحِلُّهَا مَنْ يَقُولُ: إنَّ التلوط مُبَاحٌ بِمِلْكِ الْيَمِينِ. فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ... لَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ جَاهِلًا بِبَعْضِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ جَهْلًا يُعْذَرُ بِهِ فَلَا يُحْكَمُ بِكُفْرِ أَحَدٍ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مِنْ جِهَةِ بَلَاغِ الرِّسَالَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} وَلِهَذَا لَوْ أَسْلَمَ رَجُلٌ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ؛ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْخَمْرَ يَحْرُمُ لَمْ يَكْفُرْ بِعَدَمِ اعْتِقَادِ إيجَابِ هَذَا وَتَحْرِيمِ هَذَا؛ بَلْ وَلَمْ يُعَاقَبْ حَتَّى تَبْلُغَهُ الْحُجَّةُ النَّبَوِيَّةُ "[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: " وَكُفْرُ الْجَحُودِ نَوْعَانِ: كُفْرٌ مُطْلَقٌ عَامٌّ، وَكُفْرٌ مُقَيَّدٌ خَاصٌّ.

فَالْمُطْلَقُ: أَنْ يَجْحَدَ جُمْلَةَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَإِرْسَالَهُ الرَّسُولَ.

وَالْخَاصُّ الْمُقَيَّدُ أَنْ يَجْحَدَ فَرْضًا مِنْ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، أَوْ تَحْرِيمَ مُحَرَّمٍ مِنْ مُحَرَّمَاتِهِ، أَوْ صِفَةٍ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، أَوْ خَبَرًا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، عَمْدًا، أَوْ تَقْدِيمًا لِقَوْلِ مَنْ خَالَفَهُ عَلَيْهِ لِغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ.

---

[1] - مجموع الفتاوى (11/ 405-406)

وَأَمَّا جَحْدُ ذَلِكَ جَهْلًا، أَوْ تَأْوِيلًا يُعْذَرُ فِيهِ صَاحِبُهُ فَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهُ بِهِ، كَحَدِيثِ الَّذِي جَحَدَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يَحْرِقُوهُ وَيَذْرُوهُ فِي الرِّيحِ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَرَحِمَهُ لِجَهْلِهِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَهُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَجْحَدْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِعَادَتِهِ عِنَادًا أَوْ تَكْذِيبًا "[1].

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله– كأن يقول: كل هذه الشريعة لا تصلح، هذا تخلف، وهذه شريعة مضى زمانها ، والآن الناس طلعوا القمر وهذه تقال كثيراً، وتجد أصحاب الأدب المعاصر وغيرهم يصرخون: الشريعة موضة قديمة، انتهت .

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، أو يجحد إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، ويجحد السنة كلها والقرآن.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام أو تحريم محرم من محرماته أو صفة مما وصف الله بها نفسه أو خبراً أخبر الله به، عمداً أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض– كأن يأتي إنسان إلى شيء من دين الله ويقول: هذا أنكره أنا برأيي. أو يقول: متابعةً للشيخ الفلاني، أو لأي غرض من الأغراض.

لكن الأئمة وإن قالوا: إن مستحل الكبائر كافر، فإنهم لم يقصروا التكفير على مستحل الكبائر فقط، بل لو استحل من الصغائر ما تواتر النقل على تحريمه فإنه يكفر.

ولذلك قال شمس الدين الرملي رحمه الله فيما يوجب الردة:

" (أَوْ) (كَذَّبَ رَسُولًا) أَوْ نَبِيًّا أَوْ نَقَصَهُ بِأَيِّ مُنْقِصٍ كَأَنْ صَغَّرَ اسْمَهُ قَاصِدًا تَحْقِيرَهُ أَوْ جَوَّزَ نُبُوَّةَ أَحَدٍ بَعْدَ وُجُودِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعِيسَى نَبِيٌّ قَبْلُ فَلَا يُرَدُّ، وَمِنْهُ تَمَنِّي النُّبُوَّةَ بَعْدَ وُجُودِ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَمَنِّي كُفْرِ مُسْلِمٍ بِقَصْدِ الرِّضَا بِهِ لَا التَّشْدِيدِ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ أَيْضًا لَوْ كَانَ فُلَانٌ نَبِيًّا مَا آمَنْت بِهِ وَخَرَجَ بِكَذِبِهِ كَذِبُهُ عَلَيْهِ (أَوْ) (حَلَّلَ مُحَرَّمًا بِالْإِجْمَاعِ) قَدْ عُلِمَ تَحْرِيمُهُ مِنْ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ وَلَمْ يَجُزْ خَفَاؤُهُ عَلَيْهِ (كَالزِّنَا) وَاللِّوَاطِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَالْمَكْسِ إِذْ

[1] – مدارج السالكين (1/ 347–348)

إنْكَارُهُ مَا ثَبَتَ ضَرُورَةً أَنَّهُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيهِ تَكْذِيبٌ لَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (وَعَكْسُهُ) أَيْ حَرَّمَ حَلَالًا مُجْمَعًا عَلَيْهِ وَإِنْ كُرِهَ كَذَلِكَ كَنِكَاحٍ وَبَيْعٍ (أَوْ) (نَفَى وُجُوبَ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ) مَعْلُومًا كَذَلِكَ كَسَجْدَةٍ مِنْ الْخَمْسِ (وَعَكْسُهُ) أَيْ أَوْجَبَ مُجْمَعًا عَلَى نَفْيِ وُجُوبِهِ مَعْلُومًا كَذَلِكَ كَصَلَاةٍ سَادِسَةٍ أَوْ نَفَى مَشْرُوعِيَّةَ مُجْمَعٍ عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ مَعْلُومًا كَذَلِكَ وَلَوْ نَفْلًا كَالرَّوَاتِبِ وَكَالْعِيدِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْبَغَوِيّ، أَمَّا مَا لَا يَعْرِفُهُ إلَّا الْخَوَاصُّ كَاسْتِحْقَاقِ بِنْتِ الِابْنِ السُّدُسَ مَعَ بِنْتِ الصُّلْبِ وَكَحُرْمَةِ نِكَاحِ الْمُعْتَدَّةِ لِلْغَيْرِ وَمَا لِمُنْكِرِهِ أَوْ لِمُثْبِتِهِ تَأْوِيلٌ غَيْرُ قَطْعِيِّ الْبُطْلَانِ كَمَا مَرَّ فِي النِّكَاحِ أَوْ بَعُدَ عَنْ الْعُلَمَاءِ بِحَيْثُ يَخْفَى عَلَيْهِ ذَلِكَ فَلَا كُفْرَ بِجَحْدِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَكْذِيبٌ "[1].

إنسان يعرف أن الله شرع الرواتب فليس فيها نقاش فيجحد مشروعيتها ، إذاً يكفر.

فالآن لا تنظر إلى قضية كبائر وصغائر، وقضية مستحبات وواجبات، قضية مبدأ: أن الله شرع هذا، شرعه مستحباً أم واجباً وحلله أم حرمه؟ في عبادة أو في قضية خبز ولحم؟ مبدأ المضادة والمعاندة لله.

وكصلاة العيد، لو أن إنساناً أنكر صلاة العيد وهو يعلم أنها مستقرة في الشريعة تماماً، ولو كانت صلاة العيد غير واجبة على قول الجمهور يكفر، كما صرح به البغوي .

الفرق بين جحد أو إنكار الأمر الظاهر المتواتر وبين غيره: [2]

المتواتر على نوعين: أولاً: ما علمه العامة مع الخاصة كمثل كلمة التوحيد وأركان الإسلام فيكفر جاحده مطلقاً؛ لأنه قد بلغه التنزيل.

---

[1] - نهاية المحتاج (7/ 415-416)

[2] - راجع: نواقض الإيمان الاعتقادية [1 /293-295]

ثانياً: ما لم يعرف تواتره إلا الخاصة ، فلا يكفر مستحله من العامة؛ لأنه لم يبلغه، وإنما يكفر من استحله وهو يعلم حرمته بالضرورة، مثل: تحريم الصلاة على الحائض إلى غير ذلك من الأمثال الكثيرة .

قال النووي رحمه الله :

" أَطْلَقَ الْإِمَامُ الرَّافِعِيُّ الْقَوْلَ بِتَكْفِيرِ جَاحِدِ الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، بَلْ مَنْ جَحَدَ مُجْمَعًا عَلَيْهِ فِيهِ نَصٌّ، وَهُوَ مِنْ أُمُورِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِي مَعْرِفَتِهَا الْخَوَاصُّ وَالْعَوَامُّ، كَالصَّلَاةِ، أَوِ الزَّكَاةِ، أَوِ الْحَجِّ، أَوْ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، أَوِ الزِّنَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهُوَ كَافِرٌ. وَمَنْ جَحَدَ مُجْمَعًا عَلَيْهِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْخَوَاصُّ، كَاسْتِحْقَاقِ بِنْتِ الِابْنِ السُّدُسَ مَعَ بِنْتِ الصُّلْبِ، وَتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُعْتَدَّةِ، وَكَمَا إِذَا أَجْمَعَ أَهْلُ عَصْرٍ عَلَى حُكْمِ حَادِثَةٍ، فَلَيْسَ بِكَافِرٍ، لِلْعُذْرِ، بَلْ يَعْرِفُ الصَّوَابَ لِيَعْتَقِدَهُ. وَمَنْ جَحَدَ مُجْمَعًا عَلَيْهِ، ظَاهِرًا، لَا نَصَّ فِيهِ. فَفِي الْحُكْمِ بِتَكْفِيرِهِ خِلَافٌ "[1]

فلا بد أن يكون العامي أو الشخص الذي ينكر يعلم أنه متواتر، ويعلم أنه شيء مستقر في الشريعة، وليس عنده شك أنه مشروع وموجود في الدين، ولذلك أمور الإسلام الظاهرة التي يشترك في معرفتها الخاص والعام كالصلاة مثلاً فهذا من أنكرها فهو كافر.

لكن لو جاء إنسان وجحد أن بنت الابن تستحق السدس مع بنت الصلب ، أو جحد تحريم نكاح المعتدة وهو لا يعرف، وهذه مجمع عليها في الشريعة ومتواترة، لكنه أنكرها، فهذا ليس بكافر.

وخلاصة ما سبق: أن من أنكر أو جحد أو كذب خبراً من الأخبار الظاهرة المتواترة كالإيمان بعذاب القبر أو بوجود الجن – وليس تلبس الجني بالإنسي – فلو قال: الجن ليسوا موجودين، أنا أنكر وجود الجن ، معناه أنه مكذب بسورة الجن وبسورة الرحمن وسورة طه وسورة الأحقاف، إذاً: المسألة أنه يكذب بما قال الله– وكالتكذيب بعذاب القبر أو بوجود الجن أو برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ونحو ذلك، أو أنكر حكماً من الأحكام الظاهرة المتواترة، سواء كان هذا الحكم واجباً أو محرماً أو مستحباً كقضية الصلاة والزكاة وبقية الأحكام، أو وجوب بر الوالدين، وصلة

---

[1] – روضة الطالبين (2/ 146)

الأرحام، وما يشبه ذلك، أو تحريم الخمر والسرقة والربا إلى آخره، أو أنكر سنية الوتر أو الأضحية أو السنن الرواتب إلى آخره : فإنه يكفر إذا قامت عليه الحجة، ومثله من استحل محرماً من المحرمات الظاهرة المتواترة سواء كان هذا من الصغائر أو من الكبائر كاستحلال الغيبة ، واستحلال النظر إلى النساء، ونحو ذلك . والله أعلم.

وأيضاً فمن المكفرات العظيمة: الشك في حكمٍ من أحكام الله عز وجل أو خبرٍ من أخباره:

فمن شروط لا إله إلا الله كما تقدم: اليقين المنافي للشك.

قال الله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات:15].

وقوله: { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ } [التوبة:45]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[1]

وعن أبي هُرَيْرَةَ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ له وقد أَعْطَاه نَعْلَيْهِ : (اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ)[2]

واضح جداً من النصوص أن من شروط الإيمان: اليقين وعدم الشك والارتياب.

قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله :

" فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن فكيف إذا دخله الشك قال الله عز وجل (إنما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا في سبيل الله) إلى قوله (أولئك هم الصادقون) فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا أي لم يشكوا. فأما المرتاب فهو من المنافقين والعياذ بالله الذين قال الله تعالى فيهم (إنما يستأذنكم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) "[3]

---

[1] – رواه مسلم (27)

[2] – رواه مسلم (31)

[3] – معارج القبول [2 /419]

قال ابن القيم رحمه الله :

" فَالْيَقِينُ رُوحُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي هِيَ أَرْوَاحُ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ. وَهُوَ حَقِيقَةُ الصِّدِّيقِيَّةِ. وَهُوَ قُطْبُ هَذَا الشَّأْنِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ.

وَمَتَّى وَصَلَ الْيَقِينُ إِلَى الْقَلْبِ امْتَلَأَ نُورًا وَإِشْرَاقًا. وَانْتَفَى عَنْهُ كُلُّ رَيْبٍ وَشَكٍّ وَسَخَطٍ، وَهَمٍّ وَغَمٍّ. فَامْتَلَأَ مَحَبَّةً لِلَّهِ. وَخَوْفًا مِنْهُ وَرِضًا بِهِ، وَشُكْرًا لَهُ، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ. فَهُوَ مَادَّةُ جَمِيعِ الْمَقَامَاتِ وَالْحَامِلُ لَهَا "[1].

بعض الأمثلة التي ذكرها العلماء حول كفر الشك:

منها الشك في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أو الشك في البعث، أو الشك في كفر الكافر، أو الشك في شيء من القرآن أو الشك في حكم من الأحكام، قال القاضي عياض – رحمه الله – عند كلامه عن بعض المكفرات:

" وَكَذَلِك من أضاف إلى نبينا صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم تعمد الكَذِب فِيمَا بلغه وأخبر بِه أَو شك فِي صدقه أَو سبه أَو قَال إنَّه لَم يبلغ أَو استخف بِه أَو بأحد مِن الْأَنْبِيَاء أَو أزرى عَلَيْهِم أو آذاهم أَو قتل نَبيًّا أَو حاربه فَهُو كافر بإجماع "[2]

وقال أيضا :

" ولهذا نُكَفّر من لم يُكَفّر من دَان بِغَيْر ملّة الْمُسْلِمِين مِن المِلَل أَو وَقَف فِيهِم أَو شَكّ أَو صَحَّح مَذْهَبَهُم وإن أظْهَر مَع ذَلِك الْإِسْلَام وَاعْتَقَدَه وَاعْتَقَد إبْطَال كُلّ مذْهَب سِواه فَهُو كَافِر بإظْهَارِه مَا أظْهَر من خِلَاف ذَلِك وَكَذَلِك نَقْطَع بِتَكْفِير كُلّ قائِل قَال قَوْلًا يُتَوصّل بِه إلى تَضْلِيل الْأُمَّة وتكْفِير جميع الصَّحَابَة كَقَوْل الكُمَيْلِيّة مِن الرافِضَة بِتَكْفِير جَمِيع الْأُمَّة بَعْد النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم إِذ لَم تُقَدّم عَلَيًّا وكفرت عليا إِذ لَم يَتَقَدّم وَيَطْلُب حَقّه فِي التّقْدِيم فهؤلاء قَد كفروا من وُجُوه ... "[3]

---

[1] – مدارج السالكين (2/ 374–375)

[2] – الشفا (2/ 284)

[3] – الشفا (2/ 286)

ونجد اليوم من إذا سئل : اليهود والنصارى كفار أم لا؟ قال: والله أنا أتوقف ، أو قال : أنا أشك، ولست متأكداً أنهم كفار، فمن دان بملة غير ملة المسلمين أو وقف فيهم أو شك أو صحح مذهبهم – قال: هم على حق ونحن على حق– وإن أظهر مع ذلك الإسلام والشهادتين وصلى وصام وزكى فهو كافر ، يعني بعد قيام الحجة عليه .

فإذاً: المسألة الآن مسألة خطيرة والقضية مهمة، وقد ذكر شيخ الإسلام حكم من لم يكفر الكافر سواء كان كافراً أصلياً كاليهود والنصارى، أو ثبت كفره يقيناً كالباطنية ، فقال في الرد على أهل الحلول والاتحاد ، وهؤلاء يقولون: إن الله حل في كل المخلوقات، كل ما تراه بعينك فهو الله، الله كل شيء ، تعالى الله عن قولهم، قال شيخ الإسلام:

" وَأَقْوَالُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ النَّصَارَى وَفِيهَا مِنْ التَّنَاقُضِ مِنْ جِنْسِ مَا فِي أَقْوَالِ النَّصَارَى؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ بِالْحُلُولِ تَارَةً وَبِالِاتِّحَادِ أُخْرَى وَبِالْوَحْدَةِ تَارَةً فَإِنَّهُ مَذْهَبٌ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ؛ وَلِهَذَا يَلْبِسُونَ عَلَى مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ. فَهَذَا كُلُّهُ كُفْرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا بِإِجْمَاعِ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِ هَؤُلَاءِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ قَوْلِهِمْ وَمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَافِرٌ كَمَنْ يَشُكُّ فِي كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ إذاً: النصارى أعقل منهم "[1].

وكذلك قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نواقض الإسلام : " الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر إجماعاً "[2] وقال الشيخ سليمان حفيده : " فإن كان شاكاً في كفرهم أو جاهلاً بكفرهم بينت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على كفرهم، فإن شك بعد ذلك وتردد فإنه بإجماع العلماء على أن من شك في كفر الكفار فهو كافر "[3]

---

[1] – مجموع الفتاوى (2/ 368)

[2] – مجموعة الشيخ (الرسائل الشخصية) (ص213)

[3] – انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف [1 /299]

فإذا قال القائل من هؤلاء الجهلة: أنا لا أستطيع أن أكفر النصارى، أنا متوقف، أنا لا أدري هم كفار أم لا، فإنه تقام عليه الحجة بالأدلة الشرعية وكلام العلماء ، فإن شك بعد ذلك وتردد فإنه كافر بإجماع العلماء ، أجمعوا على أن من شك في كفر الكفار فهو كافر.

وكذلك فإن الشك في أصول الدين كفر، فلو أن إنساناً قال: أنا أشك في الجنة والنار، أنا أشك في البعث، فقد يكون هناك بعث وقد لا يكون، قال لي بعض هؤلاء مرة: أنا أصلي احتياطاً. قلت: كيف تصلي احتياطاً؟ قال: إذا صح أن هناك يوماً آخر وهناك حساباً نكون قد صلينا، أي: وإذا لم يصح فما خسرنا شيئاً.

هل تعرف ما معنى هذا؟

معناه أن هذا إنسان كافر بالله العظيم، خارج عن ملة الإسلام، لا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا زكاته ولا حجه ولا شيء، لأنه شك في قضية أصلية في الدين .

ومثله رجل له ولد ملتزم ومجتهد في العبادة، قال له يوما: يا بني! لا تتعب نفسك كثيراً، لا تجتهد كثيراً . لماذا؟ قال: يمكن يطلع ما في شيء !! وهذا أكفر من الأول.

فلذلك الشك هو التردد بين شيئين، كالذي لا يجزم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بكذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه ، وكالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوب الصلاة، أو لا يعتقد تحريم الزنا ولا عدم تحريم الزنا، وهذا كفر بإجماع المسلمين.

وهنا مسألة دقيقة:

لو قال واحد: يا أخي، لا يخلو الإنسان من الوساوس، أي: يأتينا الشيطان ويوسوس لنا ويقول: يمكن يكون الله موجودا أو غير موجود ، واليوم الآخر ، وهكذا . فهل نحن كفار وخارجون عن الملة ؟

فنقول: فرق بين الشك المنافي لليقين وبين الوسوسة ، فالوسوسة مما يهجم على الإنسان بغير اختياره، فإذا كرهها ونفاها كان ذلك صريح الإيمان عنده، فلو جاءك الشيطان وقال لك :

قد لا يكون هناك شيء ، وأنت تكره ذلك وتقول: والله لئن ألقى من جبل أحب إليّ من أن أقول الشيء الذي يوسوس به الشيطان إليّ ، أنا كاره لهذا .

إذاً: ما عليك شيء، وبالعكس ، هذا صريح الإيمان، اطمئن، لكن الذي يشك بدون وسوسة، هذا إنسان عنده شك في قلبه، فلو وسوس الشيطان فكره ذلك فليس عليه شيء إطلاقاً، وأما إذا استكان لوسوسة الشيطان وصدقها وبنى عليها فقد كفر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ (ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ)[1]

قال النووي رحمه الله :

" وَفِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى : (سُئِلَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْوَسْوَسَةِ فَقَالَ : تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ)[2] ومَعْنَاهُ : اِسْتِعْظَامُكُمْ الْكَلَام بِهِ هُوَ صَرِيح الْإِيمَان , فَإِنَّ اِسْتِعْظَام هَذَا وَشِدَّة الْخَوْف مِنْهُ وَمِنْ النُّطْق بِهِ فَضْلًا عَنْ اِعْتِقَاده إِنَّمَا يَكُون لِمَنْ اِسْتَكْمَلَ الْإِيمَان اِسْتِكْمَالًا مُحَقَّقًا وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيبَة وَالشُّكُوك .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّيْطَان إِنَّمَا يُوَسْوِس لِمَنْ أَيِسَ مِنْ إِغْوَائِهِ فَيُنَكِّد عَلَيْهِ بِالْوَسْوَسَةِ لِعَجْزِهِ عَنْ إِغْوَائِهِ , وَأَمَّا الْكَافِر فَإِنَّهُ يَأْتِيه مِنْ حَيْثُ شَاءَ وَلَا يَقْتَصِر فِي حَقّه عَلَى الْوَسْوَسَة بَلْ يَتَلَاعَب بِهِ كَيْف أَرَادَ "[3]

ومن نواقض الإيمان أيضا: الشرك بالله عز وجل، ومن ذلك الشرك في الربوبية.

وهو مثل أن يصف أحدا من الخلق بأي صفة من صفات الله عز وجل الذاتية أو الفعلية المختصة به سبحانه وتعالى كالخلق أو الرزق أو علم الغيب أو التصرف في الكون، حتى ولو أثبت هذه الصفات لله، فلو قال: الله يعلم الغيب وفلان يعلم الغيب مثلاً؛ فإن ذلك يعتبر من المخالفة للتوحيد مخالفة أساسية ناقضة للإيمان، وهذا الشرك يكثر لدى الفرق المنحرفة كغلاة الصوفية والباطنية حيث يعتقد أهل الرفض مثلاً في أئمتهم المعصومين الاثني عشر بزعمهم

[1] – رواه مسلم (132)

[2] – رواه مسلم (133)

[3] – شرح مسلم (154/2)

أنهم يعلمون الغيب، وتخضع لهم ذرات الكون ونحو ذلك. وهذا ولا شك شرك في الربوبية، فمن اعتقد أن الأئمة يعلمون الغيب فهو مشرك كافر خارج عن الملة، ونوع الشرك : شرك في الربوبية.

فعامة شرك الربوبية عند هؤلاء يقع في العلم والتصرف، أما في الخلق، والرزق فيقر به عامة الصوفية، وكذا المشركون الأوائل يعتقدون بأن الله عز وجل هو الخالق الرازق، لكنهم يدعون ويستغيثون بالأولياء من دون الله لزعمهم أنها تقربهم إلى الله زلفى.

ومن الشرك في الربوبية –أيضاً– الشرك في العلم.

بأن يعتقد أن بعض الناس يعلمون مثل علم الله أو يشاركون الله في العلم الذي هو مختص به عز وجل كما جاء في كتاب المجالس المؤيدية قال: الأئمة يعلمون من أمر المبدأ والمعاد ما حجبه الله عن كافة العباد.

وهذا الشعراني في كتابه الطبقات الكبرى ينقل عن شيخه الخواص أنه كان يعلم ما في اللوح المحفوظ ساعة بساعة . ومما قاله المتصوفة: " ينبغي على المريد أن يعتقد في شيخه أنه يرى أحواله كلها كما يرى الأشياء في الزجاجة "

وينسبون إلى الحسن بن علي رضي الله عنه أنه قال: إنا نعلم المكنون والمخزون والمكتوم الذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل غير محمد صلي الله عليه وسلم وذريته.

وهذه الفكرة –أيضاً– موجودة عند الصوفية الغلاة، ولذلك هم بينهم وبين أهل الرفض قرابة في المذهب، أولاد عم في الأفكار والمعتقدات.

وهذا عبد الكريم الجيلي الصوفي صاحب كتاب " الإنسان الكامل " يزعم أنه كشف له عن حقائق الأمور من الأزل إلى الأبد ، وأنه رأى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة.

وهذا الشعراني صاحب الطبقات الكبرى ينقل عن شيخه الخواص أنه كان يعلم ما يكتب في اللوح المحفوظ ساعة بساعة. [1]

علم الغيب :

وكذلك فإن أهل السنة والجماعة يعتقدون أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهذا واضح بيّن بالآيات والأحاديث: قال تعالى : { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } [هود:123]. وقال تعالى : { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الكهف:26]

ما الفرق بين (غيب السماوات والأرض له) وبين (له غيب السماوات والأرض؟) التخصيص، له غيب السماوات والأرض اختص به سبحانه وتعالى، وقال تعالى: { قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ } [الأنعام:50] وأولئك يقولون: ورثناها وراثة عن محمد صلى الله عليه وسلم! كذباً، ينسبون إلى الأئمة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم أنهم ورثوه وراثة. { قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } [النمل:65]

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ : لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)[2]

فمن قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر. وعلم ما في الأرحام يشمل أنه يعلم هل هو شقي أو سعيد، ويعلم عمله ومتى يولد، وكم يوم بالضبط، هل يجهض؟ هل يموت ناقصا؟ هل يولد ناقصاً أم يكمل المدة أو أنه لا يكمل المدة، أو يسقط جنيناً قبل أن يكتمل؟ كل ذلك لا يعلمه على الحقيقة إلا الله.

وبقيت قضايا معينة: مثلاً: هل هو ذكر أو أنثى مثلاً؟ هذه المسألة إذا كان فيها تجربة وقال الإنسان فيها بخبرته وتجربته، قال: من خبرتي وتجربتي أنها تحمل ذكراً.

فإن كان لهذا سبب واضح فلا نقول: هو كافر .

---

[1] – راجع: نواقض الإيمان الاعتقادية [1 /315–316]

[2] – رواه البخاري (7379)

قال أبو بكر بن العربي رحمه الله :

" مَقَامَاتُ الْغَيْبِ الْخَمْسَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ لَا أَمَارَةَ عَلَيْهَا، وَلَا عَلَامَةَ عَلَيْهَا، إلَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ الْمُجْتَبَى لِاطِّلَاعِ الْغَيْبِ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ، وَالْأَرْبَعَةُ سِوَاهَا لَا أَمَارَةَ عَلَيْهَا؛ فَكُلُّ مَنْ قَالَ: إنَّهُ يَنْزِلُ الْغَيْثُ غَدًا فَهُوَ كَافِرٌ، أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَمَارَاتٍ ادَّعَاهَا، أَوْ بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ. وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الرَّحِمِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ فَأَمَّا الْأَمَارَةُ عَلَى هَذَا فَتَخْتَلِفُ؛ فَمِنْهَا كُفْرٌ، وَمِنْهَا تَجْرِبَةٌ، وَالتَّجْرِبَةُ مِنْهَا أَنْ يَقُولَ الطَّبِيبُ: إذَا كَانَ الثَّدْيُ الْأَيْمَنُ مُسْوَدَّ الْحَلَمَةِ فَهُوَ ذَكَرٌ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الثَّدْيِ الْأَيْسَرِ فَهُوَ أُنْثَى؛ وَإِنْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَجِدُ الْجَنْبَ الْأَيْمَنَ أَثْقَلَ فَهُوَ ذَكَرٌ، وَإِنْ وَجَدَتْ الْجَنْبَ الْأَشْأَمَ أَثْقَلَ فَالْوَلَدُ أُنْثَى، وَادَّعَى ذَلِكَ عَادَةً لَا وَاجِبًا فِي الْخِلْقَةِ لَمْ نُكَفِّرْهُ، وَلَمْ نُفَسِّقْهُ.

فَأَمَّا مَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْكَسْبِ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، أَوْ أَخْبَرَ عَنْ الْكَوَائِنِ الْجُمَلِيَّةِ أَوْ الْمُفَصَّلَةِ فِيمَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، فَلَا رِيبَةَ فِي كُفْرِهِ أَيْضًا.

فَأَمَّا مَنْ أَخْبَرَ عَنْ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: يُؤَدَّبُ وَيُسْجَنُ وَلَا يُكَفَّرُ، أَمَّا عَدَمُ تَكْفِيرِهِ فَلِأَنَّ جَمَاعَةً قَالُوا: إنَّهُ أَمْرٌ يُدْرَكُ بِالْحِسَابِ، وَتَقْدِيرِ الْمَنَازِلِ، حَسْبَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} [يس: 39] فَلِحِسَابِهِمْ لَهُ، وَإِخْبَارِهِمْ عَنْهُ، وَصِدْقِهِمْ فِيهِ، تَوَقَّفَتْ عُلَمَاؤُنَا عَنْ الْحُكْمِ بِتَكْفِيرِهِمْ.

وَأَمَّا أَدَبُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ الشَّكَّ عَلَى الْعَامَّةِ فِي تَعْلِيقِ الْعِلْمِ بِالْغَيْبِ الْمُسْتَأْنَفِ وَلَا يَدْرُونَ قَدْرَ الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَغَيْرِهِ، فَتُشَوَّشُ عَقَائِدُهُمْ فِي الدِّينِ، وَتَتَزَلْزَلُ قَوَاعِدُهُمْ فِي الْيَقِينِ، فَأُدِّبُوا حَتَّى يُسِرُّوا ذَلِكَ إذَا عَرَفُوهُ وَلَا يُعْلِنُوا بِهِ "[1].

وكذلك لما قال عز وجل عن نفسه: { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن:26–27] فهذا يبين أن الله عز وجل اختص بعلم الغيب، وأنه إذا أطلع رسولاً على شيء من الغيب فلحكمة، مثلما أطلع الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً على بعض ما

[1] – أحكام القرآن (2/ 259–260)

يكون عند قيام الساعة، فحدثنا به عليه الصلاة والسلام فيما يعرف بأشراط الساعة ، فيطلعه على أمرٍ معين وليس على كل شيء.

قال ابن العربي رحمه الله :

" عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمُ الْغَيْبِ، وَبِيَدِهِ الطُّرُقِ الْمُوصِلَةِ إلَيْهِ، لَا يَمْلِكُهَا إلَّا هُوَ؛ فَمَنْ شَاءَ إطْلَاعَهُ عَلَيْهَا أَطْلَعَهُ، وَمَنْ شَاءَ حَجْبَهُ عَنْهَا حَجَبَهُ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ إفَاضَتِهِ إلَّا عَلَى رُسُلِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: 179] "[1]

وقال تعالى : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة:109] وقال عن نبيه: { قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } [الأنعام:50].

فمن ادعى علم الغيب لنفسه أو لغيره فهو كافر مكذب بالقرآن، وقد قال الله لنبيه: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ } [الأحقاف:9] فهذه الأخبار قد جاءت في القرآن الكريم بهذا عن سائر الأنبياء: فإبراهيم عليه السلام لم يعلم بأنه يولد له ولد من زوجته سارة إلا بعد أن جاءته الملائكة في صورة بشر فلم يعرفهم، فذبح لهم عجلاً، ولم يكن يعرف مقصدهم حتى أخبروه أنهم يريدون أن يذهبوا لتدمير قرية قوم لوط، ولما جاءوا لوطاً ساءه ذلك ولم يعلم حقيقة هؤلاء الأضياف، وظن أنه قد ابتلي بهؤلاء الأضياف فكيف سيدافع عنهم، ثم لم يعرف الحقيقة إلا بعد أن أخبروه أنهم ملائكة ، وأنهم جاءوا لإنجائه وإنجاء أهله من قومه.

إذاً: فالله هو المختص بعلم الغيب ، ولو قيل: إنه سبحانه وتعالى قال: { إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن:27] فنقول: هذا في أمورٍ معينة، عند الله تعالى علم الغيب وحده، وبيده طرق الغيب لا يملكها إلا هو، فإذا شاء إطلاع أحد من خلقه من الرسل مثلاً على شيء من الغيب

---

[1] – أحكام القرآن (2/ 259)

أطلعه عليه مثل أشراط الساعة، وأن بعض الصحابة في الجنة، وأحوال بعض أهل النار وأهل الجنة ، وغير ذلك مما هو معلوم.

وأما بالنسبة للغيب :

فكل ما غاب عنك فهو غيب، فقد يكون في الماضي وقد يكون في الحاضر، مثل أشياء الآن في قاع المحيطات، وقد يكون في المستقبل، وهو الذي لا يعلمه إلا الله ، فالماضي قد يعلمه بعض الناس، والحاضر يعلمه بعض الناس، ولذلك قضية الغيب للماضي والحاضر قضية نسبية، فبعض الناس يعلمون أشياء لا يعلمها آخرون من أخبار الماضي أو من أخبار الحاضر، أما المستقبل فلا يعلمه إلا الله عز وجل. ولذلك لا بد من تمييز هذه القضايا لئلا يتسرع بعض الناس في الحكم على أشخاص آخرين بالكفر دون أن يكون هناك بينة شرعية.

قال صديق حسن خان رحمه الله: " فمن اعتقد في نبي، أو ولي، أو جن، أو ملك، أو إمام، أو ولد إمام، أو شيخ، أو شهيد، أو منجم، أو رمال، أو جفار، أو فاتح فال، أو راهب، أو جنية، أو خبيث أن له مثل هذا العلم، وهو يعلم الغيب بعلمه ذلك فهو مشرك بالله، وعقيدته هذه من أبطل الباطلات وأكذب المكذوبات، وهو منكر لهذه الآية القرآنية وجاحد لها – أي قوله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب...) الآية .[1]

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله:

" والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة، ونحو هذا من علوم الجاهلية.. فمن أتاهم (أي الكهنة والعرافين) فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد، وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، لا ريب أن من ادعى

---

[1] – الدين الخالص (1/425–426)

الولاية، استدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن،... إلى أن قال–رحمه الله– بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله؟ "[1]

والمقصود من هذا أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات، فهو إما داخل في حكم الكاهن وإما مشارك له في المعنى فيلحق به.

وهناك أيضاً مما يخرج عن الملة وينقض الإيمان وينافي توحيد الربوبية منافاةً أساسية قضية الشرك في التصرف :

الشرك في التصرف ممن يقول به بعض الفرق كالباطنية ، فيؤلهون بعض الأشخاص، فيؤله بعض فرق الباطنية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكذلك الدروز يؤلهون الحاكم بأمره، وهؤلاء لهم غلوٌ ظاهر، فمثلاً يعتقد بعض الباطنية أن الله يحل في الأشخاص، وأن آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب ، بل ذهبوا إلى ما يشبه عقيدة التثليث عند النصارى، إذ إنهم ألفوا ثالوثاً يتكون من علي ومحمد وسلمان الفارسي ، ويزعمون أن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي خلق محمداً، ومحمد خلق سلمان ، وسلمان خلق الأيتام الخمسة، وهم: المقداد بن الأسود ، وأبو ذر الغفاري ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن رواحة ، وقنبر بن كادان مولى علي رضي الله عنه وأنه أوكل لهؤلاء الخمسة –الأيتام الخمسة– مسئولية الكون والتصرف فيه وتصريف أموره، فالمقداد موكل إليه الرعد والصواعق والزلازل، وأبو ذر موكل إليه الرياح وقبض أرواح البشر، وقنبر موكل إليه نفخ الأرواح في الأجسام، فعلي بن أبي طالب وسلمان والأيتام الخمسة يتفردون بتصريف أمور الكون من الخلق والموت والحياة وهذا من أخص صفات الربوبية.

فإذاً: من يعتقد هذا فلا شك أنه كافر كفراً أكبر.

كذلك فالإمامية الاثنا عشرية ينسبون إلى علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– من رواية جعفر بن محمد قوله: انتقل النور إلى غرائزنا، ولمع في أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج.

---

[1] – فتح المجيد (ص403–406)

ويقولون أن علياً قال عن الأئمة: ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذننا، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة.

وكذلك قالوا: إن لأئمتنا درجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لها جميع ذرات الكون. وهذا شرك في الربوبية.

وكذلك المتصوفة جعلوا بعض أئمتهم أو الولي عندهم أو الغوث الأعظم مساوياً لله عز وجل في بعض صفاته، يرون مثلاً: أن الولي الفلاني يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويتصرف في الكون، ولهم تقسيمات لهذه الولاية، فالولي والولاية، طبقات وأنواع: فهناك الغوث المتحكم في كل شيء في العالم، والأقطاب الأربعة الذين يمسكون الأركان الأربعة في العالم بأمر الغوث، والأبدال السبعة الذين يتحكم كل واحد منهم في قارةٍ من القارات السبع ، وكذلك النجباء كل واحد منهم يتصرف في ناحية تتحكم في مصائر الخلق، بل يزعم بعض المتصوفة أن من كرامات أوليائهم أنهم يحيون الموتى، وأن أحمد البدوي جاءته امرأة تستغيث به ليحيي ولدها الذي مات، فمد أحمد البدوي يده ودعا له فأحياه الله تعالى، ويزعمون أن البدوي يميت من يتعرض له من الأحياء كما فعل مع معارضيه في العراق ، فقال لهم: موتوا. فوقعوا على الأرض قتلى.

ثم قال: قوموا بإذن من يحيي الموتي ويميت الأحياء ، فقاموا.[1]

الاعتقاد في الأنواء

ومما يدخل تحت دعوى تصرف المخلوقات بشئون الكون من دون الله: ما يدعيه أهل الجاهلية ومن تبعهم من الاعتقاد بالأنواء والنجوم والكواكب، وأنها تنشئ السحاب وتنزل الغيث، وأن هذه النجوم لها تأثير مباشر على الحوادث الأرضية، وأن بسببها يموت فلان ويحيا فلان، ويحدث كذا، وتقوم حرب وهكذا، فهؤلاء أيضاً مشركون شرك الربوبية.

أما أهل السنة والجماعة المسلمون فيعتقدون أن الله سبحانه وتعالى مختص بهذه الأشياء، وأن النفع والضر، والخير والشر والخلق والرزق والإحياء والإماتة، والتصرف في شئون العالم كله بقضائه وقدره ومشيئته وأمره عز وجل، وأنه يأمر ملائكته بالأوامر المختلفة فينفذون، وقال عز

---

[1] – نواقض الإيمان (326/1)

وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } [الأعراف:188] وقال عز وجل: { قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً } [الجن:21] وقال تعالى : { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } [آل عمران:126] وقال سبحانه وتعالى: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } [سبأ:22].

{ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ } [سبأ:22] : ما لهم نصيب ولا مشاركة ولا تصرف . وقال عز وجل عن نفسه: { أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْر } [الأعراف:54]

في الحديث: (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)[1] . وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ: كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[2]

فليس لأحد من مخلوقاته شيء ما بوجه من الوجوه من ناحية التدبير والتصريف، فالكل تحت ملكه سبحانه وقهره إماتةً وخلقاً ورزقاً وغير ذلك.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[3]

---

[1] – متفق عليه

[2] – رواه الترمذي (2516) وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي .

[3] – متفق عليه

الشرك في الألوهية :

وكما أن هناك شركاً في الربوبية فهناك شرك في الألوهية، وعلى هذا قاتلت الأنبياء، فاعتقاد ألوهية غير الله عز وجل يناقض قول القلب، وينقل عن الإسلام إلى الكفر، وصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله شرك في الألوهية، وقال ابن القيم رحمة الله عليه عند كلامه عن الشرك:

" الشِّرْكُ شِرْكَانِ: شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَالشِّرْكُ الْأَوَّلُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: شِرْكُ التَّعْطِيلِ: وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَ: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشُّعَرَاءِ: 23] .

فَالشِّرْكُ وَالتَّعْطِيلُ مُتَلَازِمَانِ: فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعَطِّلٌ وَكُلُّ مُعَطِّلٍ مُشْرِكٌ، لَكِنَّ الشِّرْكَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ، بَلْ يَكُونُ الْمُشْرِكُ مُقِرًّا بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ مُعَطِّلٌ حَقَّ التَّوْحِيدِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

تَعْطِيلُ الْمَصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ.

وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ طَائِفَةِ أَهْلِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَا ثَمَّ خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ وَلَا هَاهُنَا شَيْئَانِ، بَلِ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ. وَمِنْهُ شِرْكُ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى وَأَوْصَافَهُ وَأَفْعَالَهُ مِنْ غُلَاةِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ، فَلَمْ يُثْبِتُوا لَهُ اسْمًا وَلَا صِفَةً، بَلْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ أَكْمَلَ مِنْهُ، إِذْ كَمَالُ الذَّاتِ بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ، وَلَمْ يُعَطِّلْ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتَهُ، كَشِرْكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا، وَأُمَّهُ إِلَهًا.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْمَجُوسِ الْقَائِلِينَ بِإِسْنَادِ حَوَادِثِ الْخَيْرِ إِلَى النُّورِ، وَحَوَادِثِ الشَّرِّ إِلَى الظُّلْمَةِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا تَحْدُثُ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا مِنْ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُشْرِكُ بِالْكَوَاكِبِ الْعُلْوِيَّاتِ، وَيَجْعَلُهَا أَرْبَابًا مُدَبِّرَةً لِأَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مُشْرِكِي الصَّابِئَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ، وَأَخَفُّ أَمْرًا، فَإِنَّهُ يَصْدُرُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَكِنْ لَا يَخُصُّ اللَّهَ فِي مُعَامَلَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ لِحَظِّ نَفْسِهِ تَارَةً، وَلِطَلَبِ الدُّنْيَا تَارَةً، وَلِطَلَبِ الرِّفْعَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ عِنْدَ الْخَلْقِ تَارَةً، فَلِلَّهِ مِنْ عَمَلِهِ وَسَعْيِهِ نَصِيبٌ، وَلِنَفْسِهِ وَحَظِّهِ وَهَوَاهُ نَصِيبٌ، وَلِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ، وَلِلْخَلْقِ نَصِيبٌ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ "[1]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

" وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللَّهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ. بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ: مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: " لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ " فَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ: " {لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك لَبَّيْكَ إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَك} "[2]

كفر الإعراض:

هناك أنواع أخرى من نواقض الإيمان تنافي عمل القلب، أي أن هناك أشياء تنافي قول القلب وأشياء تنافي عمل القلب، فمثلاً: كفر الإعراض: هو الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، فما هو الإعراض؟

---

[1] - الجواب الكافي (ص: 129-131)

[2] - مجموع الفتاوى (3/ 96)

الإعراض عن الشيء: الصد عنه ، قال تعالى : {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } [السجدة: 22] أي: تركها، ترك القبول، وقد ذكر الله عز وجل الإعراض في آيات كثيرة من كتابه: قال تعالى: { فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [القيامة:31–32]، وقال: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [الأحقاف:3].

وكفر الإعراض له مظاهر، فقد يكون أحياناً عدم الاستماع لأوامر الله عز وجل وعدم المبالاة بها وعدم التفكر فيها وهو الغالب، فغالب كفر الإعراض أنه لا يسمع للشريعة أبداً، يقول: الدين على جنب، أبسط كلمة يقولها: دع الدين على جنب.

أي مناقشة في أي قضية اقتصادية أو حياتية أو اجتماعية، قال: خلي الدين على جنب.

وهذا إعراض واضح يمارسه بعض العامة: لا يدخل الدين في حياتنا ولا في عاداتنا، وكأن الدين هذا لأهل السماوات فقط؟!

ثانياً: يأتي الإعراض بمعنى عدم القبول، فشيء عدم الاستماع وعدم المبالاة وشيء عدم القبول.

ويأتي بمعنى الامتناع والتولي عن الطاعة، وهذا يكون بعد الاستماع والقبول لكن يقول: لا يطيع ولا يفعل، وكذلك يأتي الإعراض –أيضاً– بمعنى ترك العمل بالكلية، وكذلك يأتي بمعنى الصدود وأيضاً ترك التحاكم إلى الله.

فإذاً: شيء يتعلق بالعلم وهو قول القلب من عدم الاستماع وعدم المبالاة، وشيء يتعلق بعدم العمل –أي: عمل القلب والجوارح– مثل عدم القبول وعدم الاستسلام، وهذا منافٍ لعمل القلب، ألَّا يعمل بالدين نهائياً ولا بشيء من الدين هذا ترك لعمل الجوارح وهذا كله إعراض .

ينبغي أن نفرق هنا بين مسألة قضية الإعراض المكفر والإعراض غير المكفر.

لأن بعض الناس يعرضون عن مسألة أو مسألتين: عن أشياء معينة يتولون عنها، لا يعملون بها، هل هؤلاء كفار؟ من الكافر؟ من هو الذي يكفر بالإعراض؟

عرفه ابن القيم فقال:

" وَأَمَّا كُفْرُ الْإِعْرَاضِ فَأَنْ يُعْرِضَ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ عَنِ الرَّسُولِ، لَا يُصَدِّقُهُ وَلَا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يُوَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ، وَلَا يُصْغِي إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ يَالِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وَاللَّهِ أَقُولُ لَكَ كَلِمَةً، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَنْتَ أَجَلُّ فِي عَيْنِي مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَأَنْتَ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ أُكَلِّمَكَ "[1]. هذا كفر الإعراض.

وفي موضع آخر قال: " العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادة العلم بها وبموجبها. الثانى: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض والثانى كفر عناد "[2]

فالآن لو جاء شخص تتناقش معه وتورد عليه شيئاً من القرآن والسنة يقول: لا، لا، لا تسمع لي ولا أسمع لك، لا تقل لي شيئاً، معرض لا يريد الاستماع أصلاً، يقول: أي شيء فيه دين لا أقبله ولا أسمع، معرض.

وهناك من يسمع لك لكن بعدما يسمع يرفض ولا يقبل، ومنهم من يقبل أن يسمع ولكن يقول: { سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } [النساء:46].

والإعراض المكفر على حسب ما ذكر لنا ابن القيم رحمه الله من نوع اللامبالاة، لا يسمع الحجة ولا يبحث عنها ولا يفكر فيها، وليس هذا فقط هو الإعراض المكفر، لكن هذا الذي ينافي قول القلب وإلا فقد سبق الكلام عن الإعراض في أنواع أخرى تتعلق بعمل القلب وعمل الجوارح ، وهو مكفر.

ومن صور الإعراض المكفر: الإعراض عن حكم الله عز وجل ورسوله: { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [النور:47-51].

---

[1] - مدارج السالكين (1/ 347)

[2] - طريق الهجرتين (ص: 414)

إذاً: نستخلص من كلام العلماء في مسألة كفر الإعراض:

أن الإعراض الناقض للإسلام هو إعراض عن أصل الإيمان ، إما أن يعرض إعراضاً تاماً عن تعلم أصول الدين مع قدرته على ذلك، يقول: لا أريد أن أتعلم الدين ولا أريد أن أسمع آية، ولا أريد أن أتعلم منه حرفا واحداً، الإعراض عن أصل الإيمان إعراضاً تاماً عن تعلم أصوله مع القدرة ، أو عن قبولها والانقياد لها، يقول: لا أنقاد لحكم شرعي ولا أقبل شيئا أبداً. طبعا سواءً قاله بلسان الحال أو بلسان المقال.

أو يعرض عن العمل تماماً، كأن يقول: أنا لا أعمل شيئاً البتة، وهذا الذي يسمونه كفر التولي وترك العمل بالكلية؛ لأننا نعلم –أيها الإخوة– أن مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان: أنه قول القلب –وهو المعرفة– وقول اللسان وعمل القلب وهو القبول والتسليم، وعمل الجوارح.

إذاً: أربعة أشياء تتكون منها حقيقة الإيمان، قول القلب: وهو المعرفة والتصديق، وقول اللسان: وهو نطق الشهادتين، وعمل القلب: وهو القبول والتسليم والاستسلام والانقياد، وعمل الجوارح: وهو التطبيق العملي للعبادات وما شابه ذلك.

فإذاً: لو أن إنساناً أعرض عن هذا بالكلية، عن أي واحد منها يكفر وينتقض إيمانه.

قال الشافعي رحمه الله: " وَكَانَ الْإِجْمَاعُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكْنَاهُمْ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ لَا يُجْزِئُ وَاحِدٌ مِنْ الثَّلَاثِ إلَّا بِالْآخَرِ ".

وَقَالَ حَنْبَلٌ: حَدَّثَنَا الحميدي قَالَ: وَأُخْبِرْت أَنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: مَنْ أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَلَمْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا حَتَّى يَمُوتَ وَيُصَلِّيَ مُسْتَدْبِرَ الْقِبْلَةِ حَتَّى يَمُوتَ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مَا لَمْ يَكُنْ جَاحِدًا إذَا عَلِمَ أَنَّ تَرْكَهُ ذَلِكَ فِيهِ إيمَانُهُ إذَا كَانَ مُقِرًّا بِالْفَرَائِضِ وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فَقُلْت: هَذَا الْكُفْرُ الصُّرَاحُ وَخِلَافُ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} الْآيَةَ. [1]

---

[1] – مجموع الفتاوى (7/ 209)

يعني قالوا له في أناس يقولون أن الذي لا يصلي ولا يزكي ولا يصوم ولا كذا ولا كذا هذا مؤمن إذا كان لا يجحد ، قال هذا الكفر الصراح ، لأنه لا يعمل شيئاً، تولى عن العمل بالكلية، مثل بعض الذين يعيشون في الخارج مسلمون بالاسم فقط لا يعرفون مسجداً ولا قبلة ولا صلاة ولا يزكون ولا يصومون ولذلك رأينا في الإنترنت أن أحدهم يقول: أنا مسلم بالاسم فقط.

فهذا الذي يقول: أنا مسلم بالاسم فقط كافر، لماذا؟ لأنه تولى عن الدين لا يعمل بشيء منه أبداً، لا يعرف أي عبادة، لا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج، فهذا الذي يسمي نفسه مسلماً بالاسم فقط هذا إنسان متولٍ عن العمل، وهذا إنسان كافر بعد قيام الحجة عليه .

وقد قال الإمام أبو ثور رحمه الله لما سئل عن الإيمان: هل يزيد وينقص؟ فقال:

" فَأَمَّا الطَّائِفَةُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِبَادِ إِذْ قَالَ لَهُمْ: أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ إِلَّا إِقْرَارًا بِذَلِكَ أَوِ الْإِقْرَارَ وَالْعَمَلَ، فَإِنْ قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ الْإِقْرَارَ وَلَمْ يُرِدِ الْعَمَلَ، فَقَدْ كَفَرَتْ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يُصَلُّوا وَلَا يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِنْ قَالَتْ أَرَادَ مِنْهُمُ الْإِقْرَارَ وَالْعَمَلَ قِيلَ: فَإِذَا أَرَادَ مِنْهُمُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا لِمَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ وَقَدْ أَرَادَهُمَا جَمِيعًا؟ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: أَعْمَلُ جَمِيعَ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَلَا أُقِرُّ بِهِ أَيَكُونُ مُؤْمِنًا؟ فَإِنْ قَالُوا: لَا، قِيلَ لَهُمْ: فَإِنْ قَالَ: أُقِرُّ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَلَا أَعْمَلُ مِنْهُ شَيْئًا أَيَكُونُ مُؤْمِنًا؟ فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ، قِيلَ لَهُمْ: مَا الْفَرْقُ وَقَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ بِأَحَدِهِمَا مُؤْمِنًا إِذَا تَرَكَ الْآخَرَ جَازَ أَنْ يَكُونَ بِالْآخَرِ إِذَا عَمِلَ وَلَمْ يُقِرَّ مُؤْمِنًا، لَا فَرْقَ بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِنِ احْتَجَّ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَسْلَمَ فَأَقَرَّ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَكُونُ مُؤْمِنًا بِهَذَا الْإِقْرَارِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ وَقْتُ عَمَلٍ؟ قِيلَ لَهُ: إِنَّمَا نُطْلِقُ لَهُ الِاسْمَ بِتَصْدِيقِهِ أَنَّ الْعَمَلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ فِي وَقْتِهِ إِذَا جَاءَ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْإِقْرَارُ بِجَمِيعِ مَا يَكُونُ بِهِ مُؤْمِنًا، وَقَالَ: أُقِرُّ وَلَا أَعْمَلُ لَمْ نُطْلِقْ لَهُ اسْمَ الْإِيمَانِ "[1]

---

[1] – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4/ 932)

فنقول: الذي لا يعمل عمل الجوارح أبداً ليس بمسلم؛ لأن هذا من أنواع الإعراض الذي ذكر الله عز وجل في القرآن عند تكفير المعرضين، ونحن لا نقول: أعرض عن شيء واحد، أعرض عن صيام يوم من رمضان فلم يصمه لا. إنما أعرض عن العمل بالكلية، ولا يعمل شيئاً، هذا إنسان غير مسلم وإن ادعى الإسلام.

فأبو ثور يقول : يقال للذين يقولون العمل ليس شرطاً في الإيمان، ماذا أراد الله من عباده لما قال لهم: { وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } [البقرة:43] الإقرار فقط أم الإقرار والعمل؟ فإن قالوا: إن الله أراد الإقرار ولم يرد العمل فقد كفروا، فإن قالوا: أراد منهم الإقرار والعمل، قيل: فإذا أراد منهم الأمرين جميعاً فلمَ زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعاً ؟ أرأيتم لو أن رجلاً قال: أعمل جميع ما أمر الله ولا أقر به ، مثل ذاك الذي يقول: أنا أصلي احتياطاً أو يقول: يمكن ويمكن.

فهذا قال: أنا أعمل كل شيء لكن لا أقر به، أيكون مؤمناً؟ فإن قالوا: لا يكون مؤمناً؛ لأن أعماله ليس لها أساس، والعمل بدون إقرار عمل باطل، قيل لهم: فإن أقر بجميع ما أمر الله به وقال: لا أعمل منه شيئاً. أيكون مؤمناً؟ انظروا ولاحظوا! الله أراد إقراراً وعملاً، يقول: يقر أن الله أوجب هذا وحرم هذا، ثم يعمل.

فإن قالوا: إنه أراد الأمرين جميعاً فيقال: لو أن رجلاً قال: لا أقر لكن أعمل كل شيء.

يقال له: هذا كافر.

وإذا قال: أقر لكن لا أعمل شيئاً أيكون مؤمناً؟ فإن قالوا: نعم. قيل لهم: فما الفرق وقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً؟!

ومثل الأعمال في الإيمان كمثل القلب في الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر، لا يكون الجسم الحي لا قلب له، ولا يكون القلب بغير جسم، فهما شيئان منفردان، وهما في الحكم والمعنى متصلان، فلا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقل، ومثل ذلك العلم الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فمثل العلم من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما.

تخيل لو أن رجلاً ليس له شفتان عنده لسان وليس عنده شفتان، لا يستطيع الكلام، لأنه بدون شفتين! وكذلك من له شفتان وليس له لسان ، لا يستطيع الكلام ؛ لأن الشفتين تجمعان الحروف واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، وكذلك سقوط العمل بطلان الإيمان

احفظوا هذا المثل: (العمل مع الإيمان مثل الشفتين مع اللسان).

فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئاً من أمور الدين، من الصلاة والزكاة والصيام والحج ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات، أي محرم يتاح له لا يقصر فيه ، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن.

هذا الكلام لا يتصور أبداً.

وسئل الشوكاني رحمه الله: ما حكم أعراب البادية الذين لا يفعلون شيئاً من الشرعيات إلا مجرد التكلم بالشهادتين هل هم كفار أم لا؟ وهل يجب على المسلمين غزوهم أم لا ؟ فقال:

" من كان تاركاً لأركان الإسلام وجميع فرائضه ورافضاً لما يجب عليه من ذلك من الأقوال والأفعال ولم يكن لديه إلا مجرد التكلم بالشهادتين فلا شك ولا ريب أن هذا كافر شديد الكفر حلال الدم والمال "[1].

إذاً الخلاصة التي نستنتجها مما سبق:

أولاً: أن وجود جنس العمل شرط لصحة الإيمان، وإذا لم يوجد العمل لم يوجد الإيمان، ويكون صاحبه معرضاً ناقضاً لأصل الإيمان.

ثانياً: أن الكلام عن مسألة ترك العمل بالكلية متعلق بكلام السلف عن الإيمان أنه قول وعمل لا يغني أحدهما عن الآخر.

ثالثاً: أن هذا دليل على ارتباط الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر، وأنه لا يوجد باطن صحيح بدون ظاهر صحيح، كما أنه لا يوجد ظاهر صحيح ومقبول عند الله إلا إذا كان يوجد باطن صحيح.

فالذي لا يعمل شيئا أبداً هذا دليل على أنه ليس في قلبه إيمان بالله، الذي لا يعمل شيئاً من الدين ماذا يوجد في قلبه؟ لو كان في قلبه إيمان لظهر في التطبيق، ولو كان التطبيق ناقصاً

[1] – الإرشاد إلى دليل المسائل (ص33)

لكان هناك شيء اسمه عمل، أما إذا لم يكن هناك عمل بالكلية فهذا دليل على أن داخل القلب لا يوجد فيه شيء بالكلية، وإنما هو ادعاء كاذب.

إذاً: تصور الآن ما ينتج عن القول بأن الإيمان هو مجرد التصديق القلبي، وأن الكفر هو التكذيب والجحود فقط؟ وهذه مصيبة المرجئة ، وهذه معركتنا معهم، يقولون: الإيمان هو التصديق، والكفر هو الجحود والتكذيب.

وما حال المعرض عن العمل بالكلية وما شابه ذلك؟ إذاً: هنا يتبين الفرق بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب المرجئة .

أيها الإخوة: إن مذهب المرجئة يناسب حال الكفرة –الآن– في هذا العصر، فهم يحبونه جداً؛ لأنه يتوافق مع أهوائهم، ويجعلهم مؤمنين وليس لهم من الإيمان نصيب.

ترك الأركان الأربعة :

وهذا الكلام يقودنا إلى مسألة وهي قضية تارك الأركان الأربعة.

الآن عرفنا أن ترك العمل بالكلية كفر، فهل هناك أعمال معينة تركها كفر؟ لو أن رجلاً قام بأشياء أخرى، كبر الوالدين وصلة الرحم والصدقة على الفقراء، صادق ملتزم بالمواعيد، هل هناك أعمال معينة تركها كفر؟

نجد في كلام العلماء أن تارك الأركان الأربعة كافر، ولم يخالف في مسألة ترك جنس العمل أحد –كما قلنا– وأما قضية الأركان الأربعة فإن تاركها كافر، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأقوال في المسألة، وقال عن الإمام أحمد رواية أنه يكفر بترك واحد من الأركان الأربعة حتى الحج .

ثانيا: أنه يكفر بترك شيء من ذلك مع الإقرار بالوجوب .

ثالثا:– أنه لا يكفر إلا بترك الصلاة .

رابعا: يكفر بترك الصلاة والزكاة .

خامسا : يكفر بترك الصلاة والزكاة إذا امتنع وقاتل .

إذاً: ترك الأركان الأربعة بالكلية كفر كما أن ترك العمل كله كفر، أما لو ترك الصيام فالراجح أنه لا يكفر بترك الصيام، أو ترك الحج فالراجح أنه لا يكفر.

أما ترك الصلاة والزكاة : فهذه المسألة فيها خلاف كبير ، والراجح أن تارك الصلاة بالكلية كافر حتى لو كان تكاسلاً؛ لأجل النص: (بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ)[1] (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)[2]

ولا يوجد شيء آخر منصوص على أن تركه كفر من الأعمال إلا هذا ولذلك قلنا به .

وتارك الزكاة فيه خلاف كبير في تكفيره، وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن تارك الزكاة لا يكفر إلا إذا قاتل، كأن يقول: لا أؤدي وقاتل فهذا كافر.

فهذه هي الخلاصة في قضية ترك الأعمال.

إذاً: ترك جنس العمل كله كفر، ومن الأعمال الأخرى ترك الصلاة بالكلية -هذا وحده- كفر، والزكاة يكفر إذا قاتل؛ لأن معناه أنه مستعد أن يموت ولا يزكي، أين الإيمان الذي عنده؟

ومن الأمور التي توجب الكفر أيضاً: اعتقاد أن بعض الناس لا يجب عليهم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه كارثة ومصيبة عظيمة، وذهب إلى هذا غلاة الصوفية والباطنية .

يقول الداعي الإسماعيلي طاهر بن إبراهيم الحارثي اليماني في كتابه " العقد الشريف: " حُجج الليل هم أهل الباطن المحض المرفوع عنهم في أدوار الستر التكاليف لعلو درجاتهم "[3].

وكلام رءوس الباطنية والإسماعيلية أشبه بالألغاز؛ لأنهم يخفون عقيدتهم عن الناس، ولذا تجد فيها غموضاً، لكن هذا النص واضح في قضية اعتقاد إسقاط التكاليف، وأن هناك مشايخ من أهل الباطن تسقط عنهم التكاليف لعلو درجاتهم، وينسبون إلى جعفر بن محمد الباقر قوله:

" من عرف الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر، ورفعت عنه الأغلال والأصفاد وإقامة الظاهر".

---

[1] – رواه مسلم (82)

[2] – رواه الترمذي (2621) وصححه الألباني

[3] – الأنوار اللطيفة (ص 102)

ويقول أحد دعاة الباطنيين: من عرف الباطن فقد عمل الظاهر، وإنما وضعت الأغلال والأصفاد على المقصرين.[1]

فسمى التكاليف أصفاداً وأغلالاً، وقال: هذه علينا نحن العامة المقصرين، أما من بلغ وعرف هذه الدرجات فقد أعتق من الرق ورفعت عنه الأغلال والأصفاد وإقامة الظاهر.

وعند هؤلاء أيضاً أن المحرمات عليَّ وعليك نحن العامة مثل الزنا وغيره، أما أهل الباطن –هؤلاء المشايخ الكبار– فليست عليهم بحرام، وحتى نكاح الأم ووطء الأخت ليس فيه شيء.

وقالوا بالنص: إذا وصلت إلى مقام اليقين سقطت عنك العبادة، ويتلون قوله تعالى: { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:99] قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِلُّ بَعْضَ الْفَوَاحِشِ: كَاسْتِحْلَالِ مُؤَاخَاةِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ وَالْخُلُوِّ بِهِنَّ زَعْمًا مِنْهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُنَّ الْبَرَكَةُ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُنَّ وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا فِي الشَّرِيعَةِ. وَكَذَلِكَ مَنْ يَسْتَحِلُّ ذَلِكَ مِنْ المردان وَيَزْعُمُ أَنَّ التَّمَتُّعَ بِالنَّظَرِ إلَيْهِمْ وَمُبَاشَرَتَهُمْ هُوَ طَرِيقٌ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ حَتَّى يَتَرَقَّى مِنْ مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ إلَى مَحَبَّةِ الْخَالِقِ وَيَأْمُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى وَقَدْ يَسْتَحِلُّونَ الْفَاحِشَةَ الْكُبْرَى كَمَا يَسْتَحِلُّهَا مَنْ يَقُولُ: إنَّ التلوط مُبَاحٌ بِمِلْكِ الْيَمِينِ. فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ "[2]

ولو تقرأ كلام بعض الصوفية في هذا الموضوع مثل الذي يذكره الشعراني صاحب طبقات الأولياء ، والنبهاني صاحب جامع كرامات الأولياء تسمع العجب العجاب، فمن ذلك ما ذكره العطار عن بعض مشايخهم أنه نصح أحد مريديه بترك الصلاة، فعلق العطار قائلاً: " لو سأل سائل ما الحكمة في الأمر بترك الصلاة؟ فالجواب إن الطريق أحياناً تخالف ظاهر الشريعة كقتل الخضر الولد بدون سبب ظاهري، فإذن لا إنكار في الطريقة على مثل هذه الأمور".

وحكي عن العطار نفسه أنه كان تاركاً للصلاة وكان يقول: " إن الله رفع عني فريضة الصلاة "[3]

---

[1] – نواقض الإيمان (1/ 301)

[2] – مجموع الفتاوى (11/ 405)

[3] – تذكرة الأولياء (ص73،86)

فعندهم: لو قال لك شيخ الطريقة: اعمل محرماً أو اترك واجباً فلا تستغرب، لأنه يمكن أن يكون وصل إلى الله بشيء غير الذي أنت تعرف، فإذا قلت: لماذا؟! قال: الخضر قتل الغلام، نقول: الخضر قتل الغلام بناء على: { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } [الكهف:82] لأنه نبي يوحى إليه، الله الذي أمره بقتله، وأنت من الذي أمرك بترك الصلاة؟ لقد أمرك الله أن تصلي لا أن تترك الصلاة.

والشعراني في آخر كتابه الطبقات الكبرى لما ذكر مشايخه في القرن العاشر قال: وفيهم سيدي بركات الخياط رضي الله تعالى عنهم، كان رضي الله عنه من الملامتية و الملامتية يظهرون المحرمات ليلومهم الناس بينما هم في الحقيقة يقصدون إخفاء الولاية.

فمثلاً: عندما يحلق الولي لحيته يلومه الناس، وقصد الولي أن يخفي الولاية عن الناس بلومهم، حتى لا يرائي يرتكب الزنا، أو يشرب الخمر، حتى لا يرائي، يخبئ الولاية عن الناس!!

فيقول: وفيهم سيدي بركات الخياط رضي الله عنه، وكان من الملامتية ، وقد مدحته للشيخ جمال الدين الصائغ مفتي الجامع الأزهر وجماعته فقالوا امضوا بنا نزوره، وكان يوم جمعة، فكبر المؤذن على المنارة، فقالوا: نصلي الجمعة.

فقال: ما لي عادة بذلك.

فأنكروا عليه، فقال: نصلي اليوم لأجلكم!

قال الشعراني : ومنهم سيدي الشريف المجذوب – رضي الله عنه ورحمه –، وكان رضي الله عنه يأكل في نهار رمضان، ويقول: أنا معتوق، أعتقني ربي ، ومنهم الشيخ شعبان المجذوب، وذكر من أحواله أنه كان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كرسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، وكان يرى حلال زينة الدنيا كالحرام في الاجتناب، وكان الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً لم أسمع قط أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم .[1]

وهذا موجود في العالم الإسلامي، يعني: شيوخ من هذا النوع!!

[1] – انظر: الطبقات الكبرى للشعراني (2/144–186)

التكاليف الشرعية مشروطة بالعلم والقدرة:

فمتى تحقق العلم والقدرة وجب العمل، ولذلك فالذي لا يستطيع لا يكلف، كالطفل والمجنون.

ثم أعظم الناس درجة عند الله من هم؟ الأنبياء ، فهل رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ترك صلاةً واحدة أو ترك صوم يومٍ دون عذر؟ أو فعل ذلك أحد من أصحابه أو أحد من أهل العلم المشهود لهم بالفضل والصلاح؟!

ومن المعلوم عند العلماء أن من استحل الحرام كفر، فكيف بمن يستحل جميع المحرمات ويترك جميع الواجبات؟؟

ثم الولاية ! والولاية بيننا وبين الصوفية فيها معارك.

الولاية متى تنال؟ وبأي شيء تنال؟ قال تعالى : { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس:62-63]

فيخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم فقال: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

{وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا} بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًا .[1]

وقال تعالى : { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:99] ما هو اليقين في تفسير السلف ؟!

قال الحسن البصري : " والله ما جعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت "[2].

فاليقين هو الموت باتفاق المسلمين والمفسرين.

[1] – تفسير السعدي (ص: 368)

[2] – رواه الإمام أحمد في الزهد [ص 272] وإسناده صحيح

ثم ما شأن الصلاة في كتاب الله ، التي جعل هؤلاء الضالون تركها علامة على الوصول إلى أسمى المقامات وأعلى الدرجات ؟!

قال تعالى : {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا *إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } [مريم: 59، 60]

وقال تعالى: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } [المدثر/42–48] .

ومن نواقض الإيمان: النفاق

والنفاق: إظهار القول باللسان أو الفعل، بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد، بأن يستر كفره ويظهر إيمانه.

و"النفاق" اسم إسلامي لم تعرفه العرب من قبل بمعناه المخصوص .

والنفاق كالكفر: يوجد نفاق مخرج من الملة ونفاق غير مخرج من الملة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

" فَمِنْ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أبي وَغَيْرِهِ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ أَوْ الْمَسَرَّةِ بِانْخِفَاضِ دَيْنِهِ أَوْ الْمُسَاءَةِ بِظُهُورِ دِينِهِ. وَنَحْوِ ذَلِكَ: مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إلَّا عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَمَّا النِّفَاقُ الْأَصْغَرُ: فَهُوَ النِّفَاقُ فِي الْأَعْمَالِ وَنَحْوِهَا: مِثْلَ أَنْ يَكْذِبَ إذَا حَدَّثَ وَيُخْلِفَ إذَا وَعَدَ وَيَخُونَ إذَا أُؤْتُمِنَ أَوْ يَفْجُرَ إذَا خَاصَمَ. [1]

---

[1] – مجموع الفتاوى (28/ 434–435)

وقال ابن القيم :

" النفاق نَوْعَانِ: أَكْبَرُ، وَأَصْغَرُ. فَالْأَكْبَرُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ فِي دَرْكِهَا الْأَسْفَلِ، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ لِلْمُسْلِمِينَ إِيمَانَهُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُنْسَلِخٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُكَذِّبٌ بِهِ ... "[1]

إذاً النفاق المخرج من الملة لا شك أن النفاق الاعتقادي داخل فيه، لكن ليس هو نفاق التكذيب فقط .

فالنفاق الأكبر الذي يخرج من الملة ليس هو فقط أن يظهر الإنسان الإسلام والقلب مكذب، فقد يكون منافقاً نفاقاً أكبر يخرج عن الملة بأشياء يعملها، مثل: مناصرة الكفار على المسلمين، فلو أن إنساناً ناصر الكفار على المسلمين فهذا كافر وعمله كفر.

أيضاً ليس كل نفاق اعتقادي مخرجاً عن الملة، أليس الرياء عملا قلبياً، وليس من الأشياء العملية ؟ ليس نفاقاً عملياً كالكذب وإخلاف الوعد، ومع ذلك إذا كان الرياء يسيراً لا يكفر صاحبه.

إذاً: لابد أن ننتبه في قضية النفاق الاعتقادي والنفاق العملي إلى أنه ليس كل نفاق اعتقادي متعلق بالقلب يكفر صاحبه كيسير الرياء، وليس كل النفاق العملي لا يكفر صاحبه، فبعض النفاق العملي يكفر صاحبه. هذه هي الخلاصة.

فالنفاق ينقسم إلى قسمين: نفاق أكبر ونفاق أصغر، والنفاق الأصغر معروف كما جاء في الحديث: (آية المنافق ثلاث: إذ حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) [2] .

والنفاق الأصغر نوع من الاختلاف بين السريرة والعلانية لكن لا يصل إلى الكفر، وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وكذلك: إظهار مودة أخ والكيد له بالسر، هذا نوع من النفاق لكنه ليس مكفراً، اللهم إلا إذا كان يكيد للمسلمين لأنهم مسلمون.

---

[1] - مدارج السالكين (1/ 354-355)

[2] - متفق عليه

والنفاق الأكبر صاحبه مخلد في النار ، مثل نفاق عبد الله بن أبي وغيره ؛ وذلك بأن يظهر تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم أو يجحد بعض ما جاء به، أو يبغضه.

أما النفاق الأصغر فلا يخلد صاحبه في النار .

ما الفرق بين الكافر والمنافق؟

الجواب : أن الكافر لا ينطق بالشهادتين، ولا يقول أنا مسلم، ولا يدعي الإسلام، ولا يصلي مع المسلمين، ولكن المنافق يقول: أنا مسلم، وينطق بالشهادتين ويصلي مع المسلمين.

كيف يصير منافقاً نفاقاً أكبر؟

الجواب : بأمور كثيرة: منها:

أن يظهر تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك لا يشترط عندما نقول: منافق نفاقا أكبر أن لا يظهر منه شيء البتة، يمكن أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله أمام الناس، ويصلي مع المسلمين، ويقول: أنا مسلم. لكن عمله وما يظهره فيه أشياء كفرية واضحة مخرجة عن الملة، فهذا يسمى منافقاً لماذا؟ لأنهم يدعون الإسلام وفي محافل ومناسبات يظهرون الكفر، ماذا نسميه؟ نسميه منافقا، في تصريح ومقالات، وأشياء مكتوبة، وقصائد يظهر الكفر، ولما تأتيه يقول لك: أنا مسلم، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنا أصلي!!

فالمنافق نفاقاً مخرجاً من الملة لا يشترط أن يكون مستوراً لا يعرف عنه شيء، يظهر الإسلام ويخفي الكفر لا، وحال المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يظهر منهم أشياء لكن لأنهم يدعون الإسلام، ينطقون بالشهادتين، ويصلون مع المسلمين، ويصلون العيد، ويحضرون الجمعة عوملوا في الظاهر معاملة المسلمين ، وعبد الله بن أبيّ كان يفعل ذلك كله، لكن ظهرت منه أشياء تدل على كفره وتظهره ، في تخذيل المسلمين، ونصرة الكفار عليهم، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، والطعن فيه، والطعن في رسالته، والكيد له، والكيد لجماعة المسلمين .

إذاً: النفاق الأكبر المخرج عن الملة، مثل: إنسان يدعي الإسلام وعنده أقوال وأفعال أخرى تناقض ما يقول فيعتبر منافقاً، ومن باب أولى الذي لا يظهر شيئاً أبداً، مثل رجل يبطن الكفر ويظهر الإسلام، ولم نضبط عليه لا كلمة ولا فعلاً، لكنه في الحقيقة كافر زنديق.

ولذلك قال بعض العلماء: إذا اطُّلع على الزنديق فإنه يقتل ولا يستتاب؛ لأننا لو استتبناه سيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وهو يقولها أصلاً! فنقتله، فإن كان صادقاً في التوبة نفعته عند الله .

وقال آخرون: الزنديق يستتاب، فإن تاب يكف عنه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" فَمِنْ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أبي وَغَيْرِهِ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ أَوْ الْمَسَرَّةِ بِانْخِفَاضِ دَيْنِهِ أَوْ الْمُسَاءَةِ بِظُهُورِ دِينِهِ. وَنَحْوِ ذَلِكَ: مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إلَّا عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَهَذَا الْقَدْرُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا زَالَ بَعْدَهُ؛ بَلْ هُوَ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِهِ؛ لِكَوْنِ مُوجِبَاتِ الْإِيمَانِ عَلَى عَهْدِهِ أَقْوَى. فَإِذَا كَانَتْ مَعَ قُوَّتِهَا وَكَانَ النِّفَاقُ مَعَهَا مَوْجُودًا فَوُجُودُهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ أَوْلَى "[1]

وهذا واضح في عصرنا جداً، فالعلمانيون اليوم يظهرون الإسلام ويدّعونه ، لكن انظر إلى المقالات والأفعال والشعارات !

فتبيّن بما تقدم : أن أي مَظهر من مظاهر النفاق الأكبر يحكم على صاحبه بالنفاق الأكبر ولو كان يدعي الإسلام مثل تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بغض الرسول صلى الله عليه وسلم أو بغض بعض ما جاء به من الشريعة، وكالمسرة بانخفاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم أو كراهية انتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم اعتقاد وجوب تصديقه فيما أخبر، وعدم اعتقاد وجوب طاعته فيما أمر، وكذا إيذاؤه أو عيبه أو لمزه صلى الله عليه وسلم وبعض الذين يكتبون في الأدب اليوم يكتبون الكفر الصراح ثم يدّعون الإسلام !

---

[1] – مجموع الفتاوى (28/ 434)

وبعضهم يسب النبي صلى الله عليه وسلم ويقع فيه ثم يقول: أنا لم أكن أعرف أن هذا كفر ! فإذا كانت المسألة واضحة جداً، وليس لها تبرير ولا له فيها عذر، فهذا لا يتردد في كفره .

وكذلك مظاهرة الكافرين ومناصرتهم على المؤمنين، أو الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم لا لشيء شخصي بينهم وبينه، وإنما يستهزئ بهم لأجل إيمانهم، وكذا التولي والإعراض عن حكم الله وحكم رسوله.

كل هذه الأشياء حصلت من المنافقين، يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الله: { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ } [التوبة:61]. فرد الله عليهم .

وقال تعالى : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } [التوبة:58] .

وإذا دعوا إلى الله ورسوله تولوا ولا يأتون، ولا ينقادون، ويظاهرون الكافرين ويعاونونهم على المؤمنين، والله يقول: { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [المائدة:51] .

والموالاة للكفار منها ما يصل إلى درجة الكفر الأكبر، ومنها ما هو دون ذلك، فإذا كانت موالاة تامة، ورضاً بدين الكفار، وتصحيحاً لمذهبهم فهو كفر أكبر ، قال تعالى : { {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } [آل عمران: 28]

قال ابن جرير رحمه الله :

" ومعنى ذلك: لا تتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك "فليس من الله في شيء"، يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر

قال: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم –أي: على عورات المسلمين– وثغور

المسلمين، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر "[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نواقض الإسلام : " الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [المائدة:51].[2]

وقال الشيخ ابن السعدي رحمه الله في قوله تعالى: { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة:23] قال: " وذلك الظلم بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً كان ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دون ذلك "[3]

فإذاً: فالتولي درجات، إذا كان التولي عاماً فهو كفر، وتحت ذلك درجات.

وكذلك المسرة بانخفاض دين النبي صلى الله عليه وسلم، واضح أمرهم في قوله تعالى في وصف المنافقين: { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ } [التوبة:50] ، فعملنا الاحتياطات، وما خرجنا، والذي خرج هو الذي أصابه ما أصابه: { وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ } [التوبة:50]

وقال الله قبل ذلك : { لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ } [التوبة:48] هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بهذه الصفات لا شك أنهم منافقون. وكذلك الذين يكرهون ما أنزل الله، { كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد:9] { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [المؤمنون:70] { وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } [التوبة:54] { وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:81] .

بقي سؤال في هذه القضية ، وهو لو أن إنساناً قال: عند حصول التكاليف الشاقة كالجهاد وصلاة الفجر ونحو ذلك أحس بثقل ومشقة ، فهل الإحساس بالثقل والمشقة في التكاليف يُعتبر كرهاً لما أنزل الله، ومحبطاً للعمل، ونفاقاً أكبر أم لا؟

---

[1] – تفسير الطبري (6/ 313)

[2] – الرسائل الشخصية (ص213)

[3] – تفسير السعدي (ص857)

فالجواب:– ينبغي التفريق بين الكره والنفور الطبعي، وبين الكره الاعتقادي، قال الراغب – رحمه الله – –: " الكره المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، والكره ما يناله من ذاته وهو يعافه، وذلك على ضربين، أحدهما: ما يعاف من حيث الطبع، والثاني: ما يعاف من حيث العقل أو الشرع، ولهذا يصح أن يقول الإنسان في الشيء الواحد إني أريده وأكرهه بمعنى إني أريده من حيث الطبع وأكرهه من حيث الشرع، أو أريده من حيث العقل أو الشرع وأكرهه من حيث الطبع "[1].

ونأخذ مثالاً: قوله تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ } [البقرة:216] فالآن خاطب الله الصحابة، فقال: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ } [البقرة:216] فهو يثبت أن بعضهم يكرهونه، لكن يكرهونه من ناحية الطبع، وأما من ناحية الشرع فهم يحبون أن يفرض الجهاد .

وهذه المسألة تشبه من وجه مسألة الزوجة الثانية ؛ فبعض النساء عندهن مشكلة في هذه القضية، لو قلت للزوجة: ما رأيك لو أن زوجك تزوج عليك؟ ما رأيك في الزوجة الثانية؟ تكرهين ذلك أم تحبينه؟ فلا شك أنها تكرهه من جهة الطبع ، ولكن ذلك لا يلزم منه أن تكون قد كرهته من جهة الشرع .

إذاً: إذا كان الإنسان كره شيئاً طبعاً كأن يكره أن يقوم لصلاة الفجر؛ لأجل النوم ولذة الفراش، لكنك لو قلت له: تحب صلاة الفجر أم لا؟ يقول: أحب صلاة الفجر، لكن نفسي عليها مشقة، نقول: ليس عليك شيء في ذلك إذا جاهدت نفسك وقمت للصلاة .

من أنواع المكفرات ونواقض الإيمان : كفر الإباء والاستكبار والامتناع .

وهذا مناقض لعمل القلب ، وهو ككفر إبليس وفرعون واليهود الذي عرفوا الحق فلم ينقادوا ولم يستسلموا له .

[1] – المفردات (ص 429) ، وانظر : نواقض الإيمان الاعتقادية [1 /384]

وقال تعالى عن إبليس : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

وَكُفْرُ إبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَالْيَهُودِ وَنَحْوُهُمْ لَمْ يَكُنْ أَصْلُهُ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ التَّصْدِيقِ وَالْعِلْمِ ؛ فَإِنَّ إبْلِيسَ لَمْ يُخْبِرْهُ أَحَدٌ بِخَبَرِ بَلْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ فَكُفْرُهُ بِالْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ ؛ لَا لِأَجْلِ تَكْذِيبٍ . وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا "[1]

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان أنواع الكفر الأكبر :

" وَأَمَّا كُفْرُ الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ فَنَحْوُ كُفْرِ إِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَجْحَدْ أَمْرَ اللَّهِ وَلَا قَابَلَهُ بِالْإِنْكَارِ، وَإِنَّمَا تَلَقَّاهُ بِالْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمِنْ هَذَا كُفْرُ مَنْ عَرَفَ صِدْقَ الرَّسُولِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ إِبَاءً وَاسْتِكْبَارًا، وَهُوَ الْغَالِبُ عَلَى كُفْرِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: 47]

وَقَوْلِ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [إبراهيم: 10] وَقَوْلِهِ: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [الشمس: 11] وَهُوَ كُفْرُ الْيَهُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة: 89] وَقَالَ {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: 146] وَهُوَ كُفْرُ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا، فَإِنَّهُ صَدَّقَهُ وَلَمْ يَشُكَّ فِي صِدْقِهِ، وَلَكِنْ أَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَتَعْظِيمُ آبَائِهِ أَنْ يَرْغَبَ عَنْ مِلَّتِهِمْ، وَيَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ.

وَأَمَّا كُفْرُ الْإِعْرَاضِ فَأَنْ يُعْرِضَ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ عَنِ الرَّسُولِ، لَا يُصَدِّقُهُ وَلَا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يُوَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ، وَلَا يُصْغِي إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ يَالِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَاللَّهِ أَقُولُ لَكَ كَلِمَةً، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَنْتَ أَجَلُّ فِي عَيْنِي مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَأَنْتَ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ أُكَلِّمَكَ.

---

[1] – مجموع الفتاوى [7 /534]

وَأَمَّا كُفْرُ الشَّكِّ فَإِنَّهُ لَا يَجْزِمُ بِصِدْقِهِ وَلَا يُكَذِّبُهُ، بَلْ يَشُكُّ فِي أَمْرِهِ، وَهَذَا لَا يَسْتَمِرُّ شَكُّهُ إِلَّا إِذَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْإِعْرَاضَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُمْلَةً، فَلَا يَسْمَعُهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَأَمَّا مَعَ الْتِفَاتِهِ إِلَيْهَا، وَنَظَرِهِ فِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَهُ شَكٌّ، لِأَنَّهَا مُسْتَلْزِمَةٌ لِلصِّدْقِ، وَلَا سِيَّمَا بِمَجْمُوعِهَا، فَإِنَّ دَلَالَتَهَا عَلَى الصِّدْقِ كَدَلَالَةِ الشَّمْسِ عَلَى النَّهَارِ.

وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ فَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ بِلِسَانِهِ الْإِيمَانَ، وَيَنْطَوِيَ بِقَلْبِهِ عَلَى التَّكْذِيبِ، فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَكْبَرُ "[1].

وكذلك فإن من امتنع عن التزام شريعة من شعائر الإسلام الظاهرة المتواترة ، امتنع عن الامتثال بها ورفض الانقياد وتمنع وتسلح واستعد للقتال ، هذه المسألة هي التي يسميها العلماء قتال الطائفة الممتنعة .

وقد أجمع العلماء على وجوب قتال الطائفة الممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة واستندوا إلى عدة أدلة ومن ذلك : قتال الصحابة لمانعي الزكاة وأحاديث الأمر بقتال الخوارج وقول الله عز وجل فيمن لا يتوب من أكل الربا {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة: 279]

واستدلوا بآية الحرابة وبقوله تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: 39] ، وقوله : {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة: 5]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة قائلا :

" فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا لَمْ تَنْتَهِ عَنْ الرِّبَا فَقَدْ حَارَبَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَمَا حَرَّمَهُ قَبْلَهُ أَوْكَدُ. وَقَالَ تَعَالَى: {إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} .

[1] – مدارج السالكين (1/ 346)

فَكُلُّ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَنْ الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ عَمِلَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فَقَدْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا؛ وَلِهَذَا تَأَوَّلَ السَّلَفُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْكُفَّارِ وَعَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ؛ حَتَّى أَدْخَلَ عَامَّةُ الْأَئِمَّةِ فِيهَا قُطَّاعَ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يُشْهِرُونَ السِّلَاحَ لِمُجَرَّدِ أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَجَعَلُوهُمْ بِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْقِتَالِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا "[1].

ولذلك فإن هؤلاء الممتنعين عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، قال شيخ الإسلام :

" كُلُّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ الْتِزَامِ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَهُ وَإِنْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَمُلْتَزِمِينَ بَعْضَ شَرَائِعِهِ كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَانِعِي الزَّكَاةَ. وَعَلَى ذَلِكَ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ بَعْدَهُمْ بَعْدَ سَابِقَةِ مُنَاظَرَةِ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ عَلَى حُقُوقِ الْإِسْلَامِ عَمَلًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ " [2]

فعُلم أن الالتزام بالإسلام مع عدم الالتزام بشرائعه ليس بمسقط للقتال فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة .

قال شيخ الإسلام :

" فَأَيُّمَا طَائِفَةٍ امْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ أَوْ الصِّيَامِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالْمَيْسِرِ أَوْ عَنْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ جِهَادِ الْكُفَّارِ أَوْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ وَمُحَرَّمَاتِهِ – الَّتِي لَا عُذْرَ لِأَحَدِ فِي جُحُودِهَا وَتَرْكِهَا – الَّتِي يَكْفُرُ الْجَاحِدُ لِوُجُوبِهَا. فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ تُقَاتَلُ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَتْ مُقِرَّةً بِهَا. وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ إذَا أَصَرَّتْ

---

[1] – مجموع الفتاوى (28/ 469)

[2] – مجموع الفتاوى (28/ 502)

عَلَى تَرْكِ بَعْضِ السُّنَنِ كَرَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ – عِنْدَ مَنْ لَا يَقُولُ بِوُجُوبِهَا – وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الشَّعَائِرِ. هَلْ تُقَاتَلُ الطَّائِفَةُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَى تَرْكِهَا أَمْ لَا؟ فَأَمَّا الْوَاجِبَاتُ وَالْمُحَرَّمَاتُ الْمَذْكُورَةُ وَنَحْوُهَا فَلَا خِلَافَ فِي الْقِتَالِ عَلَيْهَا. وَهَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ الْعُلَمَاءِ لَيْسُوا بِمَنْزِلَةِ الْبُغَاةِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ أَوْ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ؛ كَأَهْلِ الشَّامِ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَإِنَّ أُولَئِكَ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ إمَامٍ مُعَيَّنٍ أَوْ خَارِجُونَ عَلَيْهِ لِإِزَالَةِ وِلَايَتِهِ. وَأَمَّا الْمَذْكُورُونَ فَهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الْإِسْلَامِ؛ بِمَنْزِلَةِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَبِمَنْزِلَةِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.[1]

لكن ، هل يقاتلون قتال بغاة أم يقاتلون قتال كفار ؟

لقد وقع خلاف في هذه المسألة ، وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

" ثُمَّ تَنَازَعَ الْفُقَهَاءُ فِي كُفْرِ مَنْ مَنَعَهُمَا وَقَاتَلَ الْإِمَامُ عَلَيْهَا مَعَ إقْرَارِهِ بِالْوُجُوبِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد كَالرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ فِي تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَغْيِ الْمُجَرَّدِ فَلَا يَكْفُرُونَ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَصَّ عَلَى إيمَانِهِمْ وَإِخْوَتِهِمْ مَعَ وُجُودِ الِاقْتِتَالِ وَالْبَغْيِ "[2].

وشيخ الإسلام رحمه الله تعالى رجح تكفير الممتنع عن الشرائع الظاهرة المتواترة إذا كانوا طائفة وقاتلوا الإمام ، قال : يكفرون .

وقال رحمه الله :

" مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ قِتَالَهُمْ بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَهَؤُلَاءِ إذَا كَانَ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ. فَهَلْ يَجُوزُ اتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَقَتْلُ أَسِيرِهِمْ وَالْإِجْهَازُ عَلَى جَرِيحِهِمْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ مَشْهُورَيْنِ. فَقِيلَ: لَا يُفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مُنَادِيَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَادَى يَوْمَ الْجَمَلِ لَا يُتْبَعُ مُدْبِرٌ وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ.

---

[1] – مجموع الفتاوى (28/ 503–504)

[2] – مجموع الفتاوى (35/ 57)

وَقِيلَ: بَلْ يُفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ. وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ الْقِتَالِ دَفْعُهُمْ فَلَمَّا انْدَفَعُوا لَمْ يَكُنْ إلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ؛ بِمَنْزِلَةِ دَفْعِ الصَّائِلِ.

فَمَنْ جَعَلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ جَعَلَ فِيهِمْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ أَصْلًا وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ جِنْسِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَأَهْلِ الطَّائِفِ والخرمية وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ قُوتِلُوا عَلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَهَذَا مَوْضِعٌ اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ الْفُقَهَاءِ؛ فَإِنَّ الْمُصَنِّفِينَ فِي " قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ " جَعَلُوا قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقِتَالَ الْخَوَارِجِ وَقِتَالَ عَلِيٍّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقِتَالَهُ لمعاوية وَأَتْبَاعِهِ: مِنْ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَأْمُورٌ بِهِ وَفَرَّعُوا مَسَائِلَ ذَلِكَ تَفْرِيعَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ وَقَدْ غَلِطُوا؛ بَلْ الصَّوَابُ مَا عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ كالأوزاعي وَالثَّوْرِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

فَقِتَالُ عَلِيٍّ لِلْخَوَارِجِ ثَابِتٌ بِالنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا الْقِتَالُ " يَوْمَ صفين " وَنَحْوِهِ فَلَمْ يَتَّفِقْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ؛ بَلْ صَدَّ عَنْهُ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ؛ مِثْلَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ مسلمة وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِمْ "[1].

لكن ! من الذي يقاتل هؤلاء ؟

القادر عليهم ، ولذلك من الفتن التي حصلت في المسلمين اليوم أن قوما قد احتجوا بفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في إعلان الجهاد بين المسلمين لأجل هذه القضية ، وقد يصح قولهم في وجود الطائفة الممتنعة ، يوجد طوائف في بلاد المسلمين ممتنعة عن بعض شرائع الدين أو الشريعة كلها ، لكن متى يقاتلوا ؟ إذا قُدر على ذلك لكن إذا لم يقدر عليه فيكون إشعال الحرب ورفع السلاح في هذا خطأ ظاهر .

فالذي يقدر على قتالهم من الأئمة يجب عليه أن يقاتلهم إذا استطاع ذلك .

---

[1] – مجموع الفتاوى (28/ 547-549)

وهذه مسألة مهمة ، وقد حصل فيها كثير من الغلو والخلط .

والمقصود أنه يجب أن تكون نظرة المسلم صحيحة حتى لو كان غير قادر على تنفيذ الحكم ، أما أن تشعل الفتن بدون قدرة على حسم الأمور ولا استطاعة فهذا واضح أن ضرره أكثر من نفعه .

وكذلك فإن من نواقض الإيمان الشرك الأكبر بعمل القلب كالمحبة والإرادة والقصد .

وهذا الشرك في العبادة الذي هو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله ، قد ذكره العلماء على أربعة أنواع :

شرك الدعاء وشرك النية والإرادة والقصد وشرك الطاعة وشرك المحبة .

وهذه الأنواع ترجع إلى شرك الاعتقاد وهو عمل القلب وشرك الأقوال والأعمال وهذه ترجع إلى عمل القلب أيضا .

أما بالنسبة لشرك النية والإرادة والقصد : فإن الله عز وجل قد أمر بالإخلاص ، وقال عز وجل : {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110] ، وقال تعالى : {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: 5] وهذا من شروط " لا إله إلا الله "

عندما نقول شرك النية والإرادة والقصد لا بد أن نوضح ماذا نقول .

النية في كلام العلماء تقعُ بمعنيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العباداتِ بعضها عن بعضٍ، كتمييزِ صلاة الظُّهر مِنْ صلاةِ العصر مثلاً ، وتمييزِ صيام رمضان من صيام غيرِه.

أو تمييز العباداتِ مِنَ العادات ، كتمييز الغُسلِ من الجَنَابةِ مِنْ غسل التَّبرُّد والتَّنظُّف، ونحو ذلك، وهذه النيةُ هي التي تُوجَدُ كثيراً في كلامِ الفُقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييزِ المقصودِ بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريكَ له، أم لغيره، أم لله وغيرِه ، وهذه النيّة هي التي تكلم عنها العلماء في كلامهم على الإخلاص ، وتُوجَدُ كثيراً في كلام السَّلَفِ المتقدّمين.[1]

وهي النية التي تكرر ذكرها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم تارة بلفظ النية وتارة بلفظ الإرادة .

والله عز وجل قال {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } [آل عمران: 152]

وقال : {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } [الأنفال: 67]

وقال تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ... } [البقرة: 265]

هذا الشرك في النية والإرادة والقصد المضاد للإخلاص درجات :

فقد يكون شركا أكبر وقد يكون شركا أصغر ، وهاهنا كلام لابن رجب رحمه الله جيد في هذه المسألة ، يقول :

" واعلم أنَّ العمل لغيرِ الله أقسامٌ: فتارةً يكونُ رياءً محضاً، بحيثُ لا يُرادُ به سوى مراآت المخلوقين لغرضٍ دُنيويٍّ، كحالِ المنافِقين في صلاتهم، كما قال الله – عز وجل –: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً} .

وقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ} الآية .

وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرِّياء في قوله: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ}.

وهذا الرِّياءُ المحضُ لا يكاد يصدُرُ من مُؤمنٍ في فرض الصَّلاةِ والصِّيامِ، وقد يصدُرُ في الصَّدقةِ الواجبةِ أو الحجِّ، وغيرهما من الأعمال الظاهرةِ، أو التي يتعدَّى نفعُها، فإنَّ الإخلاص فيها عزيزٌ، وهذا العملُ لا يشكُّ مسلمٌ أنَّه حابِطٌ، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقتَ مِنَ اللهِ والعُقوبة.

[1] – جامع العلوم والحكم (1/ 63)

وتارةً يكونُ العملُ للهِ، ويُشارِكُه الرِّياءُ، فإنْ شارَكَهُ مِنْ أصله، فالنُّصوص الصَّحيحة تدلُّ على بُطلانِهِ وحبوطه أيضاً.

وفي " صحيح مسلم " عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، عن النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – قال: (يقولُ الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّرك، مَنْ عَمِل عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركته وشركَه)[1] ، وخرَّجه ابنُ ماجه [2] ولفظه: (فأنا منه بريءٌ، وهوَ للَّذي أشركَ) .

وأمَّا إنْ كان أصلُ العمل للهِ، ثم طرأت عليه نيَّةُ الرِّياءِ، فإنْ كان خاطراً ودفَعهُ، فلا يضرُّه بغيرِ خلافٍ، وإن استرسلَ معه، فهل يُحبَطُ عملُه أم لا يضرُّه ذلك ويجازى على أصل نيَّته؟ في ذلك اختلافٌ بين العُلماءِ مِنَ السَّلَف قد حكاه الإمامُ أحمدُ وابنُ جريرٍ الطَّبريُّ، ورجَّحا أنَّ عمله لا يبطلُ بذلك، وأنّه يُجازى بنيَّتِهِ الأُولى، وهو مرويٌّ عنِ الحسنِ البصريِّ وغيره.

فأمَّا إذا عَمِلَ العملَ لله خالصاً، ثم ألقى الله لهُ الثَّناء الحسنَ في قُلوبِ المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشرَ بذلك، لم يضرَّه ذلك.

وفي هذا المعنى جاء حديثُ أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم –، أنَّه سُئِلَ عن الرَّجُل يعملُ العَمَل لله مِنَ الخير ويحمَدُه النَّاسُ عليه، فقال: (تلك عاجلُ بُشرى المؤمن) خرَّجه مسلم (2642) "[3]. انتهى كلامه رحمه الله باختصار .

ولكن يجب على الإنسان إذا طرأ عليه طارئ من الرياء أن يدافعه ولا يستمر معه ويسترسل ، وحصول هذا الطارئ الراجح أنه لا يحبط العمل ، بخلاف ما لو عمله لغير الله ، أو عمله لله ولغير الله من الأول .

وأما شرك المحبة:

---

[1] – رواه مسلم (2985)

[2] – سنن ابن ماجة (4202)

[3] – جامع العلوم والحكم (1/ 79–85)

فإن محبة الله أصل كل عمل من أعمال الدين ، وهي شرط من شروط " لا إله إلا الله " فلابد من إخلاص المحبة لله ، وإذا كانت المحبة أصل كل عمل وحركة ، وكذلك الإرادة فلا بد أن تُجعل لله تعالى .

وهذه المحبة لو بطلت بطلت مقامات الإيمان والإحسان وتعطلت جميع المنازل إلى الله ، فهي كالروح في العمل إذا انتهت انتهى العمل .

والعلامات التي تدل على المحبة كثيرة منها :

– فعل الواجبات من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة .

– محبة أولياء الله وبغض أعدائه .

– اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

أما شرك المحبة : فهو أَنْ يُحِبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، فَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165]

وَقَالَ أَصْحَابُ هَذَا الشِّرْكِ لِآلِهَتِهِمْ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْجَحِيمُ: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ – إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: 97 – 98] .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ مَا سَوَّوْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَالْمُلْكِ، وَالْقُدْرَةِ، وَإِنَّمَا سَوَّوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبِّ، وَالتَّأَلُّهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُمْ وَالتَّذَلُّلِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَكَيْفَ يُسَوَى التُّرَابُ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ، وَكَيْفَ يُسَوَى الْعَبِيدُ بِمَالِكِ الرِّقَابِ، وَكَيْفَ يُسَوَى الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ الضَّعِيفُ بِالذَّاتِ الْعَاجِزُ بِالذَّاتِ الْمُحْتَاجُ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، بِالْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ، وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَجُودُهُ، وَإِحْسَانُهُ، وَعِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَكَمَالُهُ الْمُطْلَقُ التَّامُّ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟ فَأَيُّ ظُلْمٍ أَقْبَحُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ حُكْمٍ أَشَدُّ جَوْرًا مِنْهُ؟ [1]

---

[1] – انظر : الجواب الكافي (ص: 132–133)

ومن جعل غير الرسول صلى الله عليه وسلم تجب طاعته مثل الرسول أو أحبه مثله أو استغاث به مثل ما يستغيث بالله ، فهذا يكون مشركا بالله تعالى .

وكل من اتخذ من دون الله ندا يدعوه ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله من قضاء الحاجات وتفريج الكربات حتى ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم فهو مشرك لأن الله عز وجل لا بد أن يفرد بالتوحيد وأن لا يلجأ العبد في تفريج الكربات وقضاء الحاجات إلا إليه سبحانه وتعالى إذا كان لا يقدر على ذلك إلا هو .

فلا يجوز أن يلجأ إلى غير الله في مثل ذلك لأنه من الشرك .

أما الاستعانة بالخلق في أمور الدنيا التي يقدرون عليها فمادامت في مباح فهي جائزة .

وأما بالنسبة للنواقض التي تنقض الإيمان فإن منها أيضا كفر التشريع .

فمن المعلوم أن الحكم لله عز وجل ، وأن هذا الأمر من توحيد الربوبية مثل اختصاص الله عز وجل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة فكذلك التشريع مختص به ، فهو حق لله وحده .

إذا علمنا أن التشريع من خصوصيات الرب عز وجل ولا يجوز أن يشرع إلا الله تعالى فإننا نعلم عند ذلك أن الذي يدعي حق التشريع كافر خارج عن الملة ، والله عز وجل قد أنزل شريعته وقال : {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } [يوسف: 40] ، وقال تعالى : {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: 10] ، وقال عز وجل : {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88]

وفي هذا دليل واضح على أن قضية التشريع خاصة بالله .

وقد ذكرنا سابقا أنه لا يكفي الإيمان بالله حتى يكفر الإنسان بالطاغوت ، ومن المعلوم أن الله سمى الحكم بغيره طاغوتا فقال سبحانه : {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} [النساء: 60] فأي واحد يشرّع غير الله فهو طاغوت .

وإذا صدق عبد ووافق وأقر أن يكون التشريع لغير الله كفر .

فكما أنه لا يجوز أن يصلي لغير الله فكذا لا يجوز أن يتحاكم على غير الله .

وكما أننا نؤمن أنه لا يحيي إلا الله ولا يميت إلا الله فكذلك لا يشرع إلا الله .

فيجب صحة تصور هذه المسألة . فالله عز وجل لا يشرك في حكمه أحدا ، قال تعالى : {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 70]

وقال تعالى : {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31]

متى حصل الشرك في الربوبية عند هؤلاء ؟

عندما جعلوهم يشرعون لهم وأخذوا تشريعهم وحكموه فيهم ، ولذلك يؤخذ من قوله {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } [الكهف: 26] أن متبعي أحكام المشرعين في غير ما شرعه الله مشركون بالله .

وقد سمى الله الحكم بغير ما أنزل طاغوتا ، فقال : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: 60]

والطاغوت كل ما عبد من دون الله من متبوع او مطاع ، فالحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية.

وهم من مقتضى ربوبيته ومن مقتضى ملكه وتصرفه وهو الذي يصرف أمور الملك والناس ويدبرها فلذلك هو الذي يشرع سبحانه وتعالى .

فإذاً من الشرك الأكبر ما يلي :

أ–أن يأتي إنسان يشرع قانونا للبشر غير ما أنزل الله عز وجل ، فهذا المشرع كافر كفرا أكبر مخرجا عن الملة .

ومن المصائب العظيمة أن تجد أن بعض الناس في هذا الزمان قد رفضوا مبدأ سيادة الشريعة ، ورفضوا أن تكون الشريعة رقم (1) أو رقم (2) ، وقالوا: يُحتكم أولا إلى القانون فإن لم يوجد فبالعرف فإن لم يوجد فالسوابق القضائية فإن لم يوجد فبالشريعة .

ومن هنا نعلم أيضا أن من يقول إن الشريعة المصدر الرئيسي للقوانين أن هذا الكلام ضلال مبين لأنك إذا قلت إن الشريعة هي المصدر الرئيسي للقوانين فمعنى ذلك ان هناك مصادر فرعية غير الشريعة ، فلا بد أن تقول إن الشريعة هي المصدر الوحيد للقوانين .

فمن قال إن الشعب يشرع أو الحاكم يشرع أو العالم يشرع أو مجلس النواب له حق التشريع فهذا كفر اكبر مخرج من الملة ؛ لأن التشريع خاص بالله تعالى .

بـ : ويكفر كفرا أكبر كذلك من جحد أو أنكر أحقية حكم الله تعالى ورسوله ، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44] ، فمن اعتقد تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فهو كافر .

جـ : أن يفضل حكم الطاغوت على حكم الله تعالى سواء كان ذلك مطلقا أو مقيدا .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

" مَن اعتقد أن غير هدْي النبي صلى الله عليه وسلم أكملُ مِن هديه، أو أن حُكْمَ غيرِه أحسنُ من حكمه، كالذي يفضِّل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافِرٌ "[1]

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله : – " من اعتقد أن حكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن من حكمة وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقاً، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، فلا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان، وصرف نحاتة الأفكار على حكم الحكيم الحميد "[2].

فإذاً لو أن أحدا من الناس قال : أنا أعتقد ان الشريعة أفضل إلا في الجانب الاقتصادي فالقانون أفضل . ولو أطلق وقال أعتقد أن القانون الوضعي أفضل فهو كافر .

---

[1] – نواقض الإسلام [ص 3]

[2] – فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (299/12)

ولو اعتقد أنهما متساويان فهو كافر أيضا ، ولو قال : الشريعة أفضل وأحسن ولكن يجوز التحاكم إلى القانون الوضعي فهو كافر أيضا لأنه اعتقد جواز التحاكم إلى غير ما أنزل الله .

قال الشنقيطي رحمه الله :

" وَأَمَّا النِّظَامُ الشَّرْعِيُّ الْمُخَالِفُ لِتَشْرِيعِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَحْكِيمُهُ كُفْرٌ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَدَعْوَى أَنَّ تَفْضِيلَ الذَّكَرِ عَلَى الْأُنْثَى فِي الْمِيرَاثِ لَيْسَ بِإِنْصَافٍ، وَأَنَّهُمَا يَلْزَمُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْمِيرَاثِ. وَكَدَعْوَى أَنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ظُلْمٌ، وَأَنَّ الطَّلَاقَ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ، وَأَنَّ الرَّجْمَ وَالْقَطْعَ وَنَحْوَهُمَا أَعْمَالٌ وَحْشِيَّةٌ لَا يَسُوغُ فِعْلُهَا بِالْإِنْسَانِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَتَحْكِيمُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ النِّظَامِ فِي أَنْفُسِ الْمُجْتَمَعِ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ كُفْرٌ بِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَمَرُّدٌ عَلَى نِظَامِ السَّمَاءِ الَّذِي وَضَعَهُ مَنْ خَلَقَ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مُشَرِّعٌ آخَرُ عُلُوًّا كَبِيرًا "[1]

فمن قال : تجب المساواة بين المرأة والرجل في الميراث والدية والشهادة فهذا يجحد حكم الله .

وكذلك من لم يحكم بما أنزل الله إباء وامتناعا فهو كافر خارج عن الملة .

ولذلك فقول المرجئة أنه لا يكفر إلا الجاحد المكذب قول غير صحيح ؛ لأن المقر قد يكفر مثل الذي يصر على التحاكم لغير شرع الله ويرفض التحاكم لشرع الله إباء واستكبارا .

وكذلك فإن المحكوم إذا رضي بالقانون الوضعي واعتقد جواز التحاكم إليه فإنه يكفر ، لكن إذا كان مكرها أو لا يمكن أن يستخلص حقه إلا بالقانون الوضعي مع علمه أن هذا القانون كفر والتحاكم إليه كفر ، فهذا لا يكفر .

متى يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفرا أصغر ؟

لأنه جاء عن ابن عباس أنه قال : كفر دون كفر .[2]

---

[1] – أضواء البيان (3/ 260)

[2] – رواه الحاكم (3219) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (51/6)

يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفرا اصغر إذا كان قد حكم في واقعة معينة لهوى أو رشوة أو محاباة شخص ، فهذا لا يكفر لكنه أتى كبيرة عظيمة من الكبائر .

لكن واحد يحكم شريعة كاملة غير شريعة الله ، ويبدل الشريعة ، ويضع بدلا منها قانونا يفرضه على الناس فهذا كافر خارج عن الملة ، أو يأبى التحاكم إلى شرع الله أو يرى ان حكم الله لا يناسب الزمن والحال ونحو ذلك فهذا كافر .

بخلاف من حكم في واقعة معينة بغير ما أنزل الله لهوى أو رشوة كما تقدم فهذا فاسق ظالم كما قال الله تعالى : {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: 45] ، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [المائدة: 47]

فينبغي تنزيل المسائل على وجوهها الصحيحة .

كذلك من نواقض الإيمان مظاهرة المشركين على المسلمين ، لأن هذا مما ينقض عقيدة الولاء والبراء .

فلو أن إنسانا أعان المشركين على المسلمين وأمدهم بالسلاح والرجال أو قاتل معهم ضد المسلمين فلا شك في كفره كما قد جاء كلام العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة .

كما حصل في بعض الحروب الصليبية قام بعض من ينتسب إلى الإسلام يعاون النصارى ضد المسلمين ، فهذه كارثة عظيمة وهذه ردة وخروج عن الملة .

لذلك يجب الحذر من قضية موالاة المشركين لأن الموالاة للكفار خطيرة جدا .

وقد تكون هذه الموالاة كفرا وقد تكون فسقا ، فلو ذهب فعاون المشركين على المسلمين وقاتل المسلمين مع المشركين فهذه ردة كما تقدم .

لكن لو تشبه بالكفار في اللباس مثلا – وهذا نوع موالاة لهم – فهذا ليس كفرا .

وكذلك يكفر من والاهم على دينهم .

وكذلك دعوى التقارب معهم في شرائعهم ، فيقول مثلا: وحدة الأديان عمل جيد ، والتقارب بين الأديان طريقة جيدة لتحقيق السلام للبشرية .

وإذا قال : نوجد دينا مشتركا يجمع بين الجميع فهذا كفر لا شك فيه .

قال تعالى : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: 85]

وكذلك فإن من الأمور الخطيرة أيضا في مسألة النواقض الاستهانة بالدين أو المصحف أو بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن هذا كفر أيضا ، ومن استهزأ بالمسلمين لأجل إسلامهم فقال : إن المسلمين متخلفون لأنهم مسلمون ، فإذا تركوا دينهم تقدموا : فمثل هذا كله كفر أكبر.

ولو قال : إن في المسلمين إهمالا في العمل وخلفا للمواعيد – نعم لا يكفر، لكن إذا قال : الدين هو السبب في التخلف ، فهذا يكفر .

وأما مسألة سب الصحابة ففيها تفصيل :

من سب الصحابة بإطلاق أو لعنهم بإطلاق كفر كما صرح بذلك العلماء .

وكذا من سبهم كلهم أو لعنهم كلهم إلا ثلاثة أو أربعة فهو كافر أيضا .

وعند كثير من العلماء أن من سب الشيخين او لعنهما كفر .

ومن اتهم عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه كفر لأنه مكذب لكتاب الله .

وكذلك فإن الإمام أحمد رحمه الله سئل عمن يسب أبا بكر وعمر وعائشة فقال : ما اراه على الإسلام .[1]

وقال الميموني: قال لي أحمد: "يا أبا الحسن إذا رأيت أحدا يذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الإسلام"[2].

وقال أحمد بن يونس: إنا لا نأكل ذبيحة رجل رافضي، فإنه عندي مرتد .[3]

[1] – السنة للخلال (493/1)

[2] – الصارم المسلول (ص: 568)

[3] – شرح أصول اعتقاد أهل السنة (459/8)

وعن عبد الملك بن عبد الحميد قال: سمعت أبا عبد الله – يعني الإمام أحمد – قال: من شتم أخاف عليه الكفر مثل: الروافض، ثم قال: من شتم أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم –، لا نأمن عليه أن يكون مرق من الدين .[1]

وقال أبو زرعة الرازي : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدي إلينا هذا القرآن، والسنن: أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة .[2]

وعن موسى بن هارون قال: سمعت الفريابي ورجل يسأله عمن شتم أبا بكر وعمر؟ قال: كافر ، قال: فيصلى عليه؟ قال: لا، وسألته كيف يصنع به وهو يقول: لا إله إلا الله؟ قال: لا تمسوه بأيديكم ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته .[3]

ومن قدّم عليا على الشيخين فهو مبتدع ، يقول : أنا أوقر الشيخين وأتولاهما ، لكن علي بن أبي طالب أفضل منهما ، فهذا مبتدع قد أزرى على أئمة الإسلام .

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي: – وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه – أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ. وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ : ثُمَّ أَنْتَ . قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ [4]

وأما من قذف أي واحدة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن فهذا ولا شك إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم وتنقص له ، وقال الله تعالى : {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [النور : 26]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

---

[1] – السنة للخلال (493/1)

[2] – الكفاية (ص49)

[3] – السنة للخلال (499/1)

[4] – رواه البخاري (3671)

" قال أبو السائب القاضي : كنتُ يوماً بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطرستان ، وكان يلبس الصوف ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويوجِّه في كل سنَة بعشرين ألف دينار إلى مدينة السلام يفرِّق على سائر ولد الصحابة ، وكان بحضرته رجلٌ فذكَر عائشة بذكرٍ قبيحٍ من الفاحشة ، فقال : يا غلام اضرب عنقه ، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا ، فقال : معاذ الله ، هذا رجل طعن على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (النور:26) فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي صلى الله عليه وسلم خبيث ، فهو كافر ، فاضربوا عنقه ، فضربوا عنقه ، وأنا حاضر ، رواه اللالكائي " [1]

وكذلك سبق الكلام على أن من زعم أن الصحابة ارتدوا إلا خمسة أو ستة فهذا هدم لأساس الدين ، لأنه هدم للقرآن والحديث ، فلو فرض أنهم ارتدوا إلا خمسة أو ستة فكل الروايات والأحاديث تسقط ، فهذه حيلة خبيثة واضحة لإسقاط الدين .

والاستهزاء بالعلماء والصالحين إذا كان لدينهم وصلاحهم كفر وإذا كان لأشخاصهم وذواتهم فهو فاسق ، لأن لحوم العلماء مسمومة .

لكن لو أنه استهزأ بهم لدينهم فهذا يكفر لأن استهزاءه يعود على الدين نفسه .

وأما بالنسبة لمسألة السحر: فإن السحر قد ذكر الله تعالى في القرآن ما يدل على كفر متعاطيه . قال تعالى : {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: 102]

ومسألة السحر هذه في كلام العلماء يوجد فيها تفصيل :

فمن اعتقد أن الساحر ينفع ويضر من دون الله فهذا كافر .

---

[1] – الصارم المسلول (1 / 568)

وكذلك فإن السحر تعلمه واستعماله حرام ، لكن بعض أهل العلم ذهب إلى أن تعلم السحر كفر وإن لم يعمل به .

قال ابن قدامة رحمه الله :

وَيُكَفَّرُ السَّاحِرُ بِتَعَلُّمِهِ وَفِعْلِهِ، سَوَاءٌ اعْتَقَدَ تَحْرِيمَهُ أَوْ إبَاحَتَهُ.[1]

وقال الرحيباني رحمه الله :

" فَسَاحِرٌ يَرْكَبُ الْمِكْنَسَةَ فَتَسِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ أَوْ يَدَّعِي أَنْ الْكَوَاكِبَ تُخَاطِبُهُ كَافِرٌ ، كَمُعْتَقِدِ حِلِّهِ ، لَا مَنْ يُسْحِرُ بِأَدْوِيَةٍ وَتَدْخِينٍ وَسَقْيِ شَيْءٍ يَضُرُّ . وَيُعَزَّرُ بَلِيغًا بِحَيْثُ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْقَتْلَ "[2]

فنلاحظ أنهم يفرقون في قضية السحر بين من يتعامل مع الشياطين وبين الذي يستعمل أدوية ضارة يعطيها لشخص يريد أن ينتقم من فلان من الناس ليضعها له فيتضرر فمثل هذا لا يكفر . فالساحر الذي يتعامل مع الشياطين ويصرف لهم انواع من العبادة ولا يعاونونه على مقاصده في الغالب إلا إذا صرف لهم أي نوع من العبادة فهذا يكفر .

أما إن كان سحره من قبيل استعمال الأدوية الضارة والتدخينات المؤذية فهذا يعزر تعزيرا بليغا ، ولذلك فالساحر له حال يقتل فيها كفرا وحال يقتل فيها قصاصا وحال يقتل فيها تعزيرا .

فإذا عمل بسحره ما يبلغ الكفر قتل ردة ، وإذا عمل بسحره ما يوجب القصاص قتل قصاصا ، وإذا كان فشا أمره ولم يندفع شره إلا بالقتل قتل تعزيرا ، حتى ولو كان يستعمل في سحره الأدوية والتدخينات المؤذية ، ولو لم يكن قتل أحدا بسحره ؛ لأنه لم يندفع شره عن الناس إلا بالقتل .

يلحق بالسحر مسألة التنجيم وهي من أقسام الكهانة ، ولذلك يسمون المنجم كاهنا والكهانة ادعاء علم الغيب والذي يدعي علم الغيب كافر ولكن يجب أن يفرق بين من يذهب إليهم وهو يصدق أنهم يعلمون الغيب ، فهذا كافر ، وبين من لا يصدق بذلك ولكنه يذهب إليهم من باب حب

---

[1] – المغني (9/ 29)

[2] – مطالب أولي النهى (304/6)

الاستطلاع مثلا ، فهذا لا يكفر، لكنه فاسق ؛ لأنه فعل ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من إتيان هؤلاء وهو على خطر عظيم لأنه قد يعجب بعملهم وقد يثق بهم وقد يذهب أول مرة للتجربة والمشاهدة ثم يذهب المرة الثانية معتقدا مصدقا .

ولا شك ان الشريعة تحرم من باب سد الذرائع أشياء قد تكون في الأصل مباحة لكن من باب سد الذرائع تحرمها .

الشرك الأصغر :

عرفنا الشرك الأكبر وأنواعه وأمثلة كثيرة عليه .

وهذا الشرك الأكبر يحبط العمل وصاحبه خالد مخلد في النار ولا يرث ولا يورث ، إلى غير ذلك من الأحكام .

أما الشرك الأصغر : فتعريفه :

كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه ، وقد جاء في النصوص تسميته شركا ، وحكمه أنه حرام وهو أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر لكنه لا يخرج صاحبه عن الملة ، والله عز وجل قد حذرنا من الشرك كبيره وصغيره بجميع أنواعه ، وقد قال عز وجل : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء: 116]

وقال : {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110]

ومع أن هذه الآية في الشرك الأكبر لكن بعض العلماء كابن عباس كانوا يحتجون بها على الأكبر والأصغر ويقولون : الكل شرك .

ومعلوم أن الرياء رأس الشرك الأصغر ، إذا لم يكن صاحبه من المشركين ، فهذا الرياء الذي هو من الشرك الأصغر داخل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1]

---

[1] – رواه مسلم (2985)

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ) قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ (الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟)[1]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ : أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ قُلْنَا بَلَى فَقَالَ : (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)[2]

فما هي إذاً الآثار التي تترتب على الشرك الأصغر وما هي أضراره ؟

الشرك الأصغر يبطل ثواب العمل ، وإذا كان العمل واجبا يعاقب الإنسان عليه وينزل منزلة من لم يعمله . فلما لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمره الله به فلا يصح عمله ولا يقبل منه .

بعض الفروقات بين الشرك الأكبر والأصغر :

– الشرك الأكبر لا يغفر الله لصاحبه ، إلا إذا تاب ، أما الشرك الأصغر فتحت المشيئة ، وبعض العلماء شدد في الشرك الأصغر وقال لا يغفر إلا بالتوبة ؛ لعموم قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء: 48] ولذلك يجب الحذر من الشرك كله .

– الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال أما الأصغر فيحبط العمل الذي قارنه فقط.

– الشرك الأكبر مخرج عن الملة ، والأصغر لا يخرج به صاحبه عن الملة .

فالمشرك شركا أصغر يعامل معاملة المسلمين ، يَنكح ويُنكح يرث يورث يصلى عليه .

– الشرك الأكبر صاحبه خالد مخلد في النار ، والشرك الأصغر لا يخلد صاحبه في النار .

---

[1] – رواه أحمد (23119) وصححه الألباني في الصحيحة (951)

[2] – رواه ابن ماجة (4204) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة

والشرك الأصغر منه شرك في النيات والمقاصد وسبقت الإشارة إليه وهو الرياء والسمعة .

الفرق بين الرياء والسمعة :

الفرق بين الرياء والسمعة : أن الرياء هو العمل لرؤية الناس ، والسمعة العمل لأجل سماعهم .

فالرياء متعلق بالنظر والبصر ، والسمعة متعلقة بالسمع والأذن .

وفي الحديث : (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ)[1]

والرياء إما أن يدخل في أساس العمل أو في تحسينه ، وقد سبق الكلام في هذا الموضوع .

ومن الرياء ما يكون من جهة البدن كأن يرائي بإظهار النحول ليظن للناس أنه كثير الصيام ويرائي بتشعيث شعره ولبس الملابس القديمة ليقول للناس أني زاهد في الدنيا .

كذلك يكون الرياء بالقول كأن يقوم ويعظ ويذكر الآثار والأحاديث ، وأقوال العلماء ؛ لكي يرائي بذلك العلماء ويماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه .

وهناك من الرياء الرياء بالعمل كتطويل الصلاة ليراه الناس ، والرياء بالأصحاب والزائرين فيستضيف المشايخ وأهل العلم يقصد أن يقول الناس : فلان يحب العلماء ، فلان يزوره العلماء .

ولو كان قصده الفائدة منهم والتقرب إلى الله بإكرامهم وضيافتهم كانت تصير طاعة يثاب عليها.

وكذلك فإن من الأمور التي قد تختلط على الناس في هذا الموضوع : تحسين الثوب الذي يلبسه يتجمل للناس والأصحاب والزوار ، ليس يقصد الرياء فهذا ليس من الرياء .

وكذلك كتمان الذنوب لا يعتبر من الرياء لأن الله أمر بالستر .

نشاط الإنسان إذا رأى اجتهاد العابدين : لا حرج فيه إذا كان العمل لله ، فهو يتشجع بهم ، لا أنه يعمل لأجلهم ، فهذا ليس من الرياء .

كذلك لو أن الإنسان عمل عملا صالحا فأثنى الناس عليه وذكروه في المجالس بالذكر الحسن ، فهذا ليس رياء .

---

[1] – متفق عليه

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) [1]

قال النووي رحمه الله :

" قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَة لَهُ بِالْخَيْرِ , وَهِيَ دَلِيل عَلَى رِضَاء اللَّه تَعَالَى عَنْهُ , وَمَحَبَّته لَهُ , فَيُحَبِّبهُ إِلَى الْخَلْق كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيث , ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْقَبُول فِي الْأَرْض . هَذَا كُلّه إِذَا حَمِدَهُ النَّاس مِنْ غَيْر تَعَرُّض مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ , وَإِلَّا فَالتَّعَرُّض مَذْمُوم "[2].

إرادة الإنسان بعمله الدنيا .

فيعمل أعمالا صالحة يريد بها الدنيا ، مثل الذي يجاهد للمال والغنيمة ويتعلم للمال أو يواظب على الصلاة كي يجعلوه إماما للمسجد ، ونحو ذلك .

ما هو الفرق بينه وبين الرياء ؟

المرائي يعمل للمدح والثناء ، والمريد بعمله الدنيا يريد المال والمنصب والجاه ونحو ذلك من متاع الدنيا الزائل.

والذي يريد بعمله الدنيا لا يخلو حاله من ثلاثة أمور :

أولا : أن تكون إرادة العبد من عمله كلها منحصرة في العمل لأجل الدنيا ولولا هذا المقصد ما عمل . فهذا عمله حابط وليس له في الآخرة من نصيب .

ثانيا : أن تكون إرادته من عمله وجه الله والدنيا والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا شرك أصغر مناف لكمال التوحيد الواجب ، وهذا يحبط العمل الذي قارنه مثل ما ذكرنا في الرياء .

والله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه

ثالثا : أن تكون إرادة العبد من عمله إرادة الله وحده واخلص فيه لكن يأخذ على عمله جعلا معلوما ، مثل العطايا التي تعطى من بيت المال كأرزاق أئمة المساجد والمؤذنين والمفتين

---

[1] – رواه مسلم (2642)

[2] – شرح النووي على مسلم (189/16)

والقضاة والدعاة . فهذا إذا كان يعمل لله ويأخذ المال ليستعين به على التفرغ للإمامة مثلا أو الأذان أو الدعوة أو القضاء أو الجهاد ونحو ذلك : فهذا لا حرج عليه فيما اخذ ما دام أنه يريد بعمله وجه الله ، لكن لو قال : أنا في الحقيقة لم اجد وظيفة فتقدمت للعمل مؤذنا ، أو أنا لم أجد سكنا وأريد سكنا فلذلك تقدمت لطلب للإمامة .

فكل همه في العمل الراتب أو السكن فهذا يريد بعمله الدنيا لا يريد به وجه الله .

ولذلك تجد بعض هؤلاء يأتي بمن يؤذن بدلا منه ويعطيه أجرة على ذلك ويأخذ الباقي ، فلذلك تجده لا يؤذن إنما يؤذن الآخر ، هذا لأن قصده من طلب العمل مؤذنا ليس تحصيل فضيلة الأذان والمؤذنين والأجر الأخروي على ذلك ، وإنما قصده الراتب أو المسكن ، فهذا مريد بعمله الدنيا لا يريد به وجه الله وهو عمل مناف للإخلاص .

الحلف بغير الله

إذا كان يعظم المحلوف به مثل تعظيم الله فهذا كفر أكبر مخرج من الملة ، وإذا لم يكن كذلك فهو مشرك شركا أصغر .

وكذلك قول : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، إذا كان يعتقد أن هذا مثل الله فهذا كافر كفرا أكبر وإلا فهو مشرك شركا أصغر .

فإذا قال : لولا الله والشرطي ، لولا الله والبط في الدار لسرقنا اللصوص ، ونحو ذلك : فنفس الجواب ، فلا يجوز أن يقول لولا الله وفلان وهذا من الشرك الأصغر .

وقول بعض الناس " مطرنا بنوء كذا " إذا كان لا يعتقد أن النجوم لها أثر في الحوادث الأرضية ولا أنها تنزل الغيث ولا أنها تضر وتنفع فهذا يعزو النعمة لغير المنعم فهذا من كفران النعمة وهو شرك أصغر .

بهذا نكون قد انتهينا من ذكر ما يتعلق بالشرك وأنواعه ، في ضمن الحديث عن نواقض الإيمان .

القضاء والقدر .

أما القضاء والقدر فهو متعلق بتوحيد الربوبية ، وسبق أن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بعبادة ، وتوحيد الربوبية هو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير.

وقد يقول الإنسان : ما حكم الخوض في القضاء والقدر ؟

إن هناك أحاديث قد جاءت ، يفيد ظاهرها منع الكلام ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وإذا ذكر القدر فأمسكوا)[1] ، فلماذا نتحدث في القضاء والقدر ؟

أولا : إن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ، ولا يتم إيمان العبد إلا به ، فكيف يُعرف إذا لم يُتحدث عنه ويبين للناس أمره ؟

ثانيا : ورد الإيمان بالقدر في أعظم حديث في الإسلام وهو حديث جبريل عليه السلام وكذلك في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه (ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[2]

فمعرفته من الدين وهو واجب على سبيل الإجمال .

ثالثا : القرآن الكريم مليء بذكر القدر وتفاصيله والله عز وجل أمرنا بتدبر القرآن وعقله ، كما قال سبحانه : {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [سورة ص: 29]

رابعا : الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أدق أمور القدر كما في حديث جَابِرٍ بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ : جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ . قَالَ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ [3]

خامسا: قد علم الصحابة رضي الله عنهم تلاميذهم الإيمان بالقدر، بل وسألوهم عنه ليختبروهم ولينظروا : هل فهموا عقيدة القضاء والقدر أم لا ؟

---

[1] – رواه الطبراني في الكبير (1427) وصححه الألباني في الصحيحة (34)

[2] – متفق عليه

[3] – رواه مسلم (2648)

فعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ قَالَ : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ قَالَ: فَقَالَ أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ : كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ ؛ إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[1]

سادسا : ألف أئمة السلف في هذا الباب وتكلموا فيه .

سابعا : لو تركنا الحديث عن القدر لجهل الناس به فلربما انفتح الباب لأهل البدعة والضلالة فيروجون لباطلهم ، بل قد فعلوا ذلك .

ثامنا : لو تركنا الكلام على القدر لفاتنا علم غزير .

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا الكلام وبين حديث النبي صلى الله عليه وسلم (وإذا ذكر القدر فأمسكوا)[2] ، وكذلك ما ورد في عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ فَقَالَ: (بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ)[3]

فعلى ذلك : هناك أحاديث تكلمت عن القدر ، وأحاديث تنهى عن الكلام والخوض في القدر ، فما توجيه ذلك؟

---

[1] – رواه مسلم (2650)

[2] – تقدم تخريجه آنفا

[3] – رواه ابن ماجة (85) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة

فنقول : إن الأحاديث التي ورد فيها النهي عن الخوض في القدر إنما المقصود بها النهي عن الخوض بلا علم ولا دليل بل خوض بالباطل .

وكذا : أن يخوض الإنسان فيه معتمدا على عقله البشري القاصر والعقل البشري لا يمكن أن يستقل بمعرفة تفاصيل العقيدة .

أو المقصود أن يخوض الإنسان في القضاء والقدر مع عدم التسليم والإذعان لقضاء الله وقدره ؛ لأنه غيب والغيب مبني على التسليم فإذا خاض الإنسان فيه بغير تسليم يدخل في النهي .

وكذلك فيمكن أن نقول إن النهي إنما هو عن البحث في الجانب الخفي من القدر والقدر سر الله في خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

فلو أراد الإنسان أن يخوض في الجانب الخفي من القدر فالخوض فيه ينطبق عليه أحاديث النهي عن الكلام في القدر .

وكذلك يمكن أن توجه أحاديث النهي على أن المقصود بها من يتوجه في القدر بأسئلة اعتراضية المقصود بها التعنت لا التعلم ، كأن يقول : الواحد منهم : لماذا أضل الله فلانا ؟ لماذا هدى الله فلانا ؟ لماذا قبض الله هذا الصغير وترك هذا الكبير ؟ لماذا كذا ولماذا كذا ؟ ويقترح على الله .

فمثل هذا يدخل في أحاديث النهي .

أما من سأل مستفهما عن الحكمة مثل أن يسأل سائل : ما الحكمة من خلق إبليس ، يسأل سؤال مستفهم مستبصر لا سؤال متعنت فهذا لا بأس به بل هو مشروع .

ثم إن بعض أحاديث النهي واضح فيها قضية التنازع ، والتنازع في القدر يؤدي إلى الاختلاف والافتراق ، ولا يدخل في التنازع المذموم منازعة الفرق الضالة ومجادلتهم بالحق لأننا قد أمرنا بها.

فهذا إذاً يحمل عليه سبب غضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا يعني أن الكلام في القدر والبحث فيه بالمنهج العلمي صحيح غير محرم ولا منهي عنه وإنما الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الخوض بالباطل والتنازع فيه .

ما هو تعريف القضاء والقدر ؟

القدر في اللغة مصدر قدر ، والقاف والدال والراء أصلٌ يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ، فالقدر مبلغ كل شيء ، وكذلك يقال: قدرت الشيء أقدره من التقدير ، والقدر هو القضاء والحكم وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور .

ويقال التقدير أيضا : التروية والتفكير في تسوية الأمور .

وأما في اصطلاح العلماء :

فالقدر تقدير الله الكائنات حسب ما سبق به علمه واقتضت حكمته ، فقدر الله هو ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد ، فقدر الله مقادير الخلائق وما يكون، وعلم عز وجل ما سيقع وعلى أي صفة .

فقدر الله : هو ما علمه وكتبه وشاءه وخلقه .

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل عن القدر فأجاب بقوله : " القدر قدرة الله على العباد " .

وقد علق العلامة ابن القيم على تعريف الإمام أحمد فقال : " واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا ، وقال : هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين ، وهو كما قال أبو الوفاء ، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الله على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها ، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم " [1].

وأما بالنسبة للقضاء:

فإن القضاء في اللغة : الحكم والصنع والحتم والبيان ، وأصله : القطع والفصل ، وقضاء الشيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق أيضا .

فما العلاقة بين القضاء والقدر وما الفرق بينهما ؟

قيل : المراد بالقدر التقدير وبالقضاء الخلق ، كقوله عز وجل (فقضاهن سبع سموات) .

---

[1] – شفاء العليل (ص28)

فهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمثابة الأساس وهو القدر والآخر بمثابة البناء وهو القضاء .

وقيل العكس : فالقضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به والقدر هو وقوع الخلق وإيجاده وخلقه وخلق هذه الأحداث الواقعة .

وقيل : إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا .

وقيل : هما بمعنى واحد .

وقال الراغب الأصفهاني : " والقضاء من الله –تعالى – أخص من القدر ؛ لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل والقضاء بمنزلة الكيل ، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : " أتفر من القضاء " ؟ قال : " أفر من قضاء الله إلى قدر الله " ، تنبيها أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضي فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله تعالى ويشهد لذلك قوله (وكان أمرا مقضيا) وقوله (كان على ربك حتما مقضيا) وقوله: (وقضى الأمر): أي : فصل ، تنبيها أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه "[1].

ما هي ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وما هو أثر ذلك على نفس المسلم ؟

أولا : القدر مما تعبدنا الله به استسلاما له ، فلا بد أن نعرف حكم الإيمان بالقضاء والقدر ، وأنه واجب لنعبد الله بالتسليم بالقضاء والقدر .

ثانيا: أن ذلك طريق للخلاص من الشرك، فالمجوس مثلا ضلوا في باب القضاء والقدر كما ضل فيه ناس كثيرون .

فلاجتناب البدعة والشرك والضلالة في هذا الباب لا بد أن نعرف ما هي العقيدة الصحيحة في ذلك ، عقيدة أهل السنة والجماعة .

[1] – مفردات غريب القرآن (ص 407)

وقد ضل فيه من قديم الزمان المجوس حيث زعموا أن هناك خالقين : خالق للخير وخالق للشر وجعلوا النور خالق الخير والظلام خالق الشر ، وأثبتوا خالقين مع الله عز وجل وهذا شرك ولذلك فإن تبيان هذا الأمر ينقذ من هذه العقيدة الفاسدة الباطلة ومن غيرها .

ثم إن الإيمان بالقضاء والقدر يورث الشجاعة والإقدام ، فالذي يؤمن بالقضاء والقدر يعلم أنه لن يموت قبل وقته وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله عليه ، فهو يدخل في المعارك غير هياب ولا وجل .

ولذلك كانت العقيدة الصحيحة لكثير من المسلمين في القدر سببا في شجاعتهم وإقدامهم .

فهذا الإيمان بالقضاء والقدر يرزق العبد به قوة إيمانية تجعله لا يتضعضع ولا يتزعزع ، ثم إنه مع ذلك يصبر ويحتسب ويواجه الأخطار والصعاب .

وتجد في غير بلاد المسلمين حيث لا إيمان بالله ولا بقدره حصول الكثير من المصاعب النفسية والازدياد المطرد في نسبة الانتحار ، ولأتفه الأسباب ، فهذا تركته عشيقته ، وهذا رسب في الامتحان ، وهذا بسبب وفاة مطرب ، وأحيانا يكون انتحارا جماعيا ، ولهم في هذا الشأن أساليب مبتكرة بل ومستشفيات خاصة .

وقد يقدم على الانتحار في تلك البلاد بعض الأطباء النفسانيين الذين من المفترض أنهم يعالجون الحالات النفسية المتردية التي تدعو أصحابها إلى الإقدام على الانتحار !

وكان منهم من قام بعمل أبحاث طويلة ودراسات ميدانية وقابل أشخاصا وعالج حالات ثم كانت النتيجة أخيرا أنه هو نفسه أقدم آخر الأمر على الانتحار .

قال الله عز وجل : {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: 11]

قال علقمة بن قيس رحمه الله : هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم ذلك ويرضى.[1]

[1] – تفسير الطبري (23/ 421)

فمتى آمن العبد أن الله هو الذي قدر المقادير وكتبها ، فتح الله له باب هداية بسبب إيمانه بالقضاء والقدر .

وكذلك إذا أنفق العبد المسلم وتصدق متوكلا على الله موقنا أن رزقه الذي كتبه الله سيأتيه لا محالة اطمأن قلبه ، ودفعه ذلك إلى الكرم والجود ، ومن جهة أخرى يرزق العبد بسببه استسلاما واعتمادا وتوكلا على الله .

وقول الله تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) يرزق به المؤمن إخلاصا ، حيث علم أن العباد لن ينفعوه أو يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له .

فيستمر العبد على الإخلاص غير مبال بمدح الناس ولا بذمهم .

أيضا : فالإيمان بهذه العقيدة يرزق العبد به إحسان الظن بالله وقوة الرجاء .

ما مسني قَدَرٌ بكُرْهٍ أو رضا *** إلا اهتديت به إليك طريقا

فالمؤمن حسن الظن بالله يرجو الله في كل أحواله .

كذلك يرزق المؤمن بإيمانه بالقضاء والقدر الخوف من الله ، والخوف من سوء الخاتمة .

كذلك فإن الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض مثل الحسد ، يقول الله عز وجل : {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: 54]

فإذا آمن بالقدر ، وأيقن بأن الله كتب له نصيبه وكتب لفلان نصيبه ، فلماذا يحسد فلانا على ما آتاه الله من فضله وقد كتبه له وقدره له قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؟ وهذا شأنه سبحانه ، وهو لا يسأل عما يفعل عز وجل ، وعلى العبد الرضا والتسليم .

كما أن الإيمان بهذه العقيدة يحارب الخرافات لأن الناس يلجئون إلى الدجالين والعرافين والكهان في علم الغيب ، فإذا علم العبد أن هذه الأشياء مقدرة ومكتوبة علم أنه لن يغيرها هؤلاء الدجالون ، وكذلك لن يطلعوا عليها ، كما قيل :

الزجر والطير والكهان كلهم *** مضللون ودون الغيب أقفال

وقال آخر :

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى *** نجاحا ولا عن ريثهن قصور

وقال لبيد بن ربيعة رضي الله عنه:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى *** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

سلوهن إن كذبتموني متى الفتى *** يذوق المنايا أو متى الغيث واقع

ولذلك فإن الذين لا يؤمنون بعقيدة القضاء والقدر وأن تدبير الأمر كله إلى الله ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن مشيئة العباد مقيدة ومرتهنة بمشيئة الله تعالى – هؤلاء يقعون في الضلالة وينسبون تدبير الأمر وتقدير المقادير لغير الله تعالى ، وهذا كثير متفشٍّ في الصوفية الذين يؤمنون بالأقطاب والأبدال والأغواث ، ويقولون فلان عليه مدار العالم وفلان القطب الأعظم وفلان نظام الكون إلى غير ذلك من ضلالاتهم .

يُحكى أن مريدا من هؤلاء الصوفية جاء إلى شيخه يستأذنه في السفر فأبى عليه وخوفه من عاقبته وأنه إذا سافر حصل له ما يكرهه ، وكان هذا المريد في حاجة شديدة إلى هذا السفر ، فأحاله شيخه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله – والشيخ عبد القادر بريء منهم ومن ضلالاتهم فإنه يكذبون عليه وينسبون إليه ما هو بريء منه .

فلما جاء هذا المريد إلى الشيخ عبد القادر – بزعمهم – وحكى له صورة الحال والضرورة التي هو عليها قال له : هو كما قال لك شيخك ، فقال له المريد ولكني أريد أن أسافر ضرورة ، فقال له : أنت مصر على ذلك ؟ قال نعم ، فقال له : إذاً سافر .

فسافر ثم رجع إلى شيخه ولم يصب بسوء ، وقال له : قد سافرت ولم يصبني مكروه في سفري خلافا لما ذكرته لي ، فقال له : نعم ، هو كما قلت لك ، ولكنك لما ذهبت إلى الشيخ عبد القادر ورأى منك الإلحاح على السفر والحاجة الشديدة إليه غيّر مجريات المقادير ، وصرف عن طريقك هذا السوء الذي كان سيصيبك . نحن نعرف ما وراء ستور الغيب ، ولكن الشيخ عبد القادر يعرف ذلك ، ويعرف كيف يغير الغيب والمقادير !!

وهذا بلا شك هو الضلال المبين ، ومن آمن بعقيدة القضاء والقدر وعلم أن الغيب لله فقد احترز لنفسه من الوقوع في هذا الضلال وأشباهه بما منّ الله عليه من الإيمان.

وكذلك فإن الإيمان بالقضاء والقدر يرزق العبد به تواضعا ؛ فإذا رزقه الله مالا أو جاهاً أو علما تواضع لله ؛ لأنه يعلم أن هذا الفضل مما قدره الله له ومنّ به عليه ، ولولا منة الله وكرمه ما أصابه من هذا الفضل شيء .

وبالإيمان بالقضاء والقدر يسلم العبد من الاعتراض على أحكام الله الشرعية ولا يعترض بكلمة ولا فعل .

مثلا النياحة هذه لماذا تحصل ؟ لأن الإيمان بعقيدة القضاء والقدر ضعيف

وكذلك بالإيمان بالقضاء والقدر يجدّ الإنسان ويعمل ويخلص في عمله ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1]

ولذلك فإن العبد يشكر ربه على ما أنعم به عليه من اندفاع نقمة أو حصول نعمة ويؤمن بأن هذا كله من قضاء الله تعالى وقدره ، فيرضى بما قسم الله له ، ويمتلئ قلبه رضا بربه ورضا عن ربه ورضا بمقادير ربه وتصريفه في الكون ، وإنما موقعه حتى يلقى الله بين حسنة تصيبه فهو يشكر الله عليها ويحمده ، ومكروه يقع به فهو يصبر عليه ويحمد ربه .

قال ابن القيم رحمه الله :

" فَمَنْ رَضِيَ عَنْ رَبِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. بَلْ رِضَا الْعَبْدِ عَنِ اللَّهِ مِنْ نَتَائِجِ رِضَا اللَّهِ عَنْهُ. فَهُوَ مَحْفُوفٌ بِنَوْعَيْنِ مِنْ رِضَاهُ عَنْ عَبْدِهِ: رِضًا قَبْلَهُ، أَوْجَبَ لَهُ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ، وَرِضًا بَعْدَهُ. هُوَ ثَمَرَةُ رِضَاهُ عَنْهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ الرِّضَا بَابَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ، وَجَنَّةَ الدُّنْيَا، وَمُسْتَرَاحَ الْعَارِفِينَ، وَحَيَاةَ الْمُحِبِّينَ، وَنَعِيمَ الْعَابِدِينَ، وَقُرَّةَ عُيُونِ الْمُشْتَاقِينَ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ حُصُولِ الرِّضَا: أَنْ يَلْزَمَ مَا جَعَلَ اللَّهُ رِضَاهُ فِيهِ. فَإِنَّهُ يُوصِلُهُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا وَلَا بُدَّ.

[1] – رواه مسلم (2664)

قِيلَ لِيَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ: مَتَى يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا؟ فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي قَبِلْتُ. وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ. وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبَدْتُ. وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ "[1].

فبالإيمان بالقدر تحصل الاستقامة على الصراط المستقيم في السراء والضراء ، والعسر واليسر ، وعدم اليأس من انتصار الحق وأهله وظهوره على الباطل وأهله ، وخاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه العدو وعم فساده وتسلطه مع ضعف المسلمين وتأخرهم .

فمن آمن بالقضاء والقدر لم ييأس لأنه يعلم أن تدبير الأمر وتصريف كل شيء إنما هو بيد الله ، فنحن نحسن الظن بربنا وندعوه أن ينصرنا على عدونا .

ومن لا يؤمن بعقيدة القضاء والقدر ييأس ويستكين ويضعف ثم يجبن وتخور عزيمته .

وأيضا : فإن العبد يحصل له بهذا الإيمان من الرضا بقضاء الله ما يحصنه من التحسر والتأسف على ما فاته من أمر الدنيا ، فإذا رأى الشيء مما كان يرغب فيه وقد فاته لم يتحسر عليه ولم يكره قدر الله الواقع ، وإنما يصبر على الفقد والحرمان ويحمد ربه على قضائه وقدره ، بل يحسن الظن بالله ، ويقول : لعله خير ، ويتلو قول الله تعالى وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) البقرة / 216 .

وقول نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)[2]

وكثيرا ما يتبين للإنسان أن الخير في فوات ما فات مما كان يؤمل وقوعه وحصوله ، وأنه لو قُدر له حصول ما كان يرغب فيه ويحبه فلربما كان فيه حتفه أو ربما أصابه بحصوله مكروه يتمنى معه أن لو لم يكن .

---

[1] – مدارج السالكين (2/ 172)

[2] – رواه مسلم (2999)

وكم من الناس من يتبرم ويضيق صدره؛ لفوت محبوب؛ أو نزول مكروب. وما إن ينكشف الأمر ويستبين سرُّ القدر إلا وتجده مسروراً؛ لأن العاقبة كانت حميدة بالنسبة له.

وما أحسن قول القائل:

كم نعمةٍ لا تستقل بشكرها ** لله في طي المكاره كامنه

وقول الآخر:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي ** طيِّ الحوادث محبوب ومكروه

وربما ســــــــرَّني ما كنت أحذره ** وربما ســاءني ما كنت أرجوه

وكذلك يكتسب عز النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين في مثل قضية الرزق وأن الرزق عند الله وأنه لن يموت حتى يستكمل رزقه وأن الله هو حسبه وهو الرزاق ولو قدر شيئا من الرزق له فلا بد أن يصل إليه ، ولا يستطيع أحد أن يقطع رزق أحد ، ما يقوله الناس : لا تقطع رزق فلان ، كلام غير صحيح ، لكن لو قال : لا تكن سببا في مضارة فلان فلا حرج في ذلك .

نعم يمكن لصاحب العمل مثلا أن يفصله من العمل ، فهو بذلك انقطع راتبه ، لكننا لا نقول : انقطع رزقه ؛ لأنه ربما يحصل على عمل آخر هو أفضل من هذا العمل ، ويرزقه الله به أضعاف ما كان يرزقه وهو يعمل في عمله الأول الذي فصل منه .

فعلى من ترك عملا أو فُصل منه أن لا يجزع ولا يخاف ولا يعتقد في الناس ما يجب عليه أن يعتقده في ربه ، وعليه أن يحسن الظن بالله ويقبل على دعائه والتضرع إليه وسؤاله الحاجات فإنه لا يقضي له حاجته إلا ربه ، وما العباد إلا أسباب مسخرة لا قدرة لأحد منهم على جلب رزق أو منعه .

وفي الحديث القدسي المشهور : (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)[1]

ولذلك إذا رزق الإنسان القناعة والثقة بالله لم يلتفت إلى الناس ولا تعلق بهم ، وكما قيل :

رَأَيْتُ القنَاعَةَ رَأْسَ الغنَى ** فصِرتُ بأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ

فلا ذا يراني على بابهِ ** وَلا ذا يَرَاني بهِ مُنْـــهمِكْ

فصرتُ غَنِيّاً بِلا دِرْهَم ** أمرُّ على النَّاسِ شبهَ الملك

والفوائد والآثار المترتبة على عقيدة الإيمان بالقدر كثيرة ، والنعيم الذي حصل لكثير من الناس بسبب هذه العقيدة والسرور وانشراح الصدر أمر لا ينكر ، ويتمنى العاقل أن لو حصّل ذلك ووصل إلى رتبته ، إذاً لاستراح من عنت الدنيا ولاطمأنت نفسه بالله .

قال إبراهيم الحربي رحمه الله :

أجمع عقلاء كل أمه أن من لم يجر مع القدر لم يتهن بعيشه.[2]

وبعض الكفار لما خالطوا المسلمين صار عندهم نوع من الدهشة لاستقرار هذه العقيدة في نفوس المسلمين ؛ كما قال مؤلف كتاب " رياح على الصحراء " :

" في عام 1918 وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي, ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية, حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام, أتقنت خلالها لغة البدو وكنت أرتدي زيهم وآكل من طعامهم وأتخذ مظاهرهم في الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً وأنام كما ينامون في الخيام وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد . صلى الله عليه وسلم . عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي وأحفلها بالسلام والإطمئنان والرضا بالحياة.

---

[1] – رواه مسلم (2577)

[2] – البداية والنهاية [11 /90]

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيّناً.. فهم لا يتعجلون أمراً ولا يلقون بأنفسهم في براثن الهم قلقاً على أمر.

إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي, كلاّ "

ثم أردف قائلاً: " ودعني أضرب لك مثلا لما أعنيه: هبّت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا, وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة حتى أحسست كأن شعر رأسي يتزعزع من منابته لفرط وطأة الحر ,وأحسست من فرط القيظ كأني مدفوع إلى الجنون..

ولكن العرب لم يشكون إطلاقا فقد هزوا أكتافهم وقالوا كلمتهم المشهورة: (قضاء مكتوب)

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير, فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء.

فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

وقال رئيس القبيلة : لم نفقد الشيء الكبير فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ولكن حمدا لله وشكرا فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا وفي استطاعتنا أن نبدأ عملنا من جديد.

ثم قال:

وثمة حادثة أخرى, فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر أحد الإطارات وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي. وتولاني الغضب وانتابني القلق والهم وسألت صحبي من الأعراب : ماذا عسى أن نفعل؟

فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لا يجدي، بل هو خليق بأن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق.

ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا ، ولكنها ما لبثت أن توقفت، فعلمت أن البنزين قد نفد.

وهنالك أيضا لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب ولا فارقهم هدوُهم. بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام.

وبعد أن استعرض هذا الكاتب تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً:

قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل أن الملتاثين ومرضى النفوس والسكيرين الذين تحفل بهم أوروبا وأمريكا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساسا لها.

إنني لم أعانِ شيئا من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا.

وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاما على مغادرتي الصحراء مازلت أتخذ مواقف العرب حيال قضاء الله فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من أولئك البدو في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير الطبية ".

انتهى كلامه .

فاليوم الأطباء يصرفون المسكنات والعقاقير ، لو فيه اليوم أطباء يعلّمون الناس أشياء تؤدي بهم إلى الإيمان بعقيدة القضاء والقدر لكان العلاج بها أجدى وأنفع وأحسن من تلك العقاقير . وبدون آثار جانبية مضرة ، بل تكون هي التي تضع الإنسان على الصراط المستقيم .

لقد دل القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والفطرة والحس على أن القضاء والقدر حق :

أما من القرآن الكريم :

فقد قال الله تعالى : {كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا } [الأحزاب: 38] ، وقال عز وجل : {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49] ، وقال عز وجل : {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: 21] ، وقال تعالى : {ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى } [طه: 40] ، وقال :

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: 2] ، وقال : {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال: 44] ، وقال سبحانه : {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى: 3]

وأما من السنة : فقد جاءت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مطابقة وموافقة للقرآن الكريم وشارحة له ، كما جاء في حديث جبريل : (قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ؟ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[1]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[2]

وعَنْ طَاوُسٍ قَالَ : أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ : كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ . قَالَ : وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ ، أَوْ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ)[3]

وعَنْ طَاوُسٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي حَلْقَةٍ، فَذُكِرَ أَهْلُ الْقَدَرِ، فَقَالَ: أَفِي الْحَلْقَةِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَآخُذُ بِرَأْسِهِ ؟ ثُمَّ أَقْرَأُ عَلَيْهِ {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء: 4] [4]

فقدر الله ماض ولا شك ، ولا يستطيع أحد أن يغيره ، فليس إلا الرضا والصبر ، وأن يجري العاقل مع القدر .

نعم ، يمكن أن يغير الإنسان بعض الآثار السلبية للمصيبة التي قُدّر وقوعها ، بالنسبة لنفسه أو الآخرين بتصبيرهم مثلا ، أما أن تمنع وقوع الموت أو حصول المصيبة التي قدر الله حصولها فهذا غير ممكن .

---

[1] – رواه مسلم (8)

[2] – رواه مسلم (2664)

[3] – رواه مسلم (2655) ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْعَاجِز قَدْ قَدَّرَ عَجْزه , وَالْكَيِّس قَدْ قَدَّرَ كَيْسه .

[4] – السنة لعبد الله بن أحمد (2/ 420)

ونجد في عصرنا هذا هذه الأفلام العلمية القائمة على الخيال العلمي ، فيها أن البشر قد تقدموا حتى اخترعوا " آلة الزمن " يعني آلة يمكن أن تعود بالإنسان إلى الزمن الماضي فيراه ويغير فيه ، أو تقدمه إلى الزمن المستقبل ، فيراه ويغير فيه ، وفي هذا مضادة لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر مضادة تامة ، بل نحن نوقن أن البشر مهما اخترعوا ، فلن يستطيعوا أن يخترعوا آلة كهذه ، وبعض مجلات الأطفال وبعض هذه الأفلام التي يشاهدونها مبنية على معاكسة ومضادة الإيمان بقدر الله ! ونحن نتركهم لمشاهدة وقراءة مثل هذه الأفلام والمجلات ، وهي في الحقيقة تسعي في تخريب عقيدتهم ومسخها ، والتشبه بأهل الكتاب الذين لا خلاق لهم في الآخرة .

لا يمكن للبشر أن يعود واحد منهم إلى الماضي ، ولا أن يطلع على المستقبل .

يتوب عما حصل منه في الماضي نعم ، يسأل الله الخير في المستقبل ، نعم ، أما أن يرجع إلى الوراء ! فلا يمكن . أو يذهب إلى المستقبل ويطلع عليه ، لا يمكن .

وأما من جهة الإجماع :

فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ، قال النووي رحمه الله :

" وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَدِلَّةُ الْقَطْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وِالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءُ مِنَ التَّصْنِيفِ فِيهِ "[1]

وقال ابن حجر رحمه الله :

" وَمَذْهَبُ السَّلَفِ قَاطِبَةً أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى "[2]

وأما الفطرة :

فإن الإيمان بالقدر مركوز في فطر البشر لا ينكره إلا شواذ المشركين ، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره في الجملة ، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح ، ولذلك فإن الكفار لم يقولوا إن الله لم يشأ ولم يقدر ، لكن قالوا : لو شاء الله ما أشركنا .

---

[1] – شرح النووي على مسلم (1/ 155)

[2] – فتح الباري (11/ 478)

فهم لم ينفوا القدر ، لكن احتجوا به خطأ ، واستعملوه خطأ ، وفهموه على غير الوجه الحق ، فهم أثبتوا المشيئة ولكنهم احتجوا بها على ما هم عليه من الشرك .

ولقد كان العرب الكفار في الجاهلية يعلمون أن المنايا مكتوبة ، فقال عنترة :

يا عبلُ أين من المنية مهربي ** إن كان ربي في السماء قضاها

وقال طَرَفة بن العبد :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ** ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثدِ

وقال لبيد :

صادفنا منها غرة فأصبنها ** إن المنايا لا تطيش سهامها

وقال عمرو بن كلثوم :

وأنا سوف تدركنا المنايا ** مقدرة لنا ومقدرينا

وقال امرؤ القيس :

إن الشقاء على الأشقين مكتوب

وقال هانىء بن قبيصة الشيبانى لقومه يوم ذى قار وهو يحرضهم: يا معشر بكرٍ، هالك معذور، خير من ناجٍ فرور؛ إن الحذر لا ينجى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر؛ المنية ولا الدنية؛ استقبال الموت خير من استدباره؛ الطعن فى ثغر النحور، أكرم منه فى الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد.[1]

ولما دخل بعض هؤلاء في الإسلام صارت أشعارهم منطلقة من عقيدة هذا الدين ، كما قال لبيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْر نَفَلْ

وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا نِدَّ لَهُ

بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ

---

[1] – أمالي القالي [ص 80]

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى

نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلْ [1]

ودلالة العقل بطبيعة الحال تدل على ارتباط الأسباب بمسبباتها ، وأن الأمور التي تجري في هذا الكون لا بد أن تجري على سنن وعلى قدر وعلى شيء محكم ، فليس الأمر فوضى ولا عشوائية.

والحس كذلك يدل عليه ، والتوحيد هو نظام الحياة ، والقضاء والقدر من التوحيد .

وقد قال الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة السلف في هذا الباب كلمات مضيئة :

فعَنْ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ : يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي. فَقَالَ : أَجْلِسُونِي قَالَ يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ ؟ قَالَ : تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ اكْتُبْ ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

يَا بُنَيَّ ! إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ [2]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى وَضْعِكَ يَدَكَ عَلَى خَدِّكَ» [3]

عن عكرمة قال : سئل ابن عباس كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلا ، فلم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد مهندسا فأراد أن يسأله عنه ففقده قلت : وكيف

---

[1] – فتح الباري (13/ 449)

[2] – رواه أحمد (22197) – واللفظ له – والترمذي (2155) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وغيره

[3] – خلق أفعال العباد (ص: 47)

يكون مهندسا ، والصبي يضع له الحبالة فيغيبها فيصيده؟ قال : إذا جاء القدر ، حال دون البصر .[1]

أحيانا تجد فعلا الشيء ما له تفسير إلا : إذا جاء القدر عمي البصر. فالإنسان إذا فكر في بعض الحوادث يجد ذلك حقا .

فالمنية لا مفر منها لذلك فإن الإنسان فعلا كما يقال :

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ منْ شَيءٍ لأعْجَبَنِي ** سَعْيُ الفَتَى وهو مُخْبُوءٌ له القدَرُ

يَسْعَى الفتى لأمورٍ لَيْسَ مُدْرِكُها ** والنفـــــسُ واحدة والهمُّ منتشرُ

والمرءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ ** لا تَنْتَهِي العَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِي الأَثَرُ

قال الحسن رحمه الله :

" خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِقَدَرٍ ، وَخَلَقَ الآجَالَ بِقَدَرٍ ، وَخَلَقَ الأَرْزَاقَ بِقَدَرٍ , وَخَلَقَ الْعَافِيَةَ بِقَدَرٍ , وَخَلَقَ الْبَلاءَ بِقَدَرٍ , وَأَمَرَ وَنَهَى " [2].

وقال الْحَسَنَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ : إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَجَلا ، وَقَدَّرَ مَعَهُ مَرَضًا ، وَقَدَّرَ مَعَهُ مُعَافَاةً ، فَمَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ ، وَمَنْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ .[3]

والشافعي رحمه الله قال أبياتا جميلة في القدر :

فعن الرَّبِيع بْن سُلَيْمَانَ , قَالَ : " سُئِلَ الإِمَامُ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رِضْوَانُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَنِ الْقَدَرِ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

ومَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أشأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْـ ـتَ فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِنْ

عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ وَهَذَا أَعَنـــــتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنْ [1]

---

[1] – تفسير ابن أبى حاتم [9 /2859]

[2] – القضاء والقدر للبيهقي (448)

[3] – شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (1009)

فما شاء الله كان وإن لم نشأ ، وما شئنا لا يكون إذا ما الله لم يشأ .

ولذلك ليس هناك إلا الرضا بهذه العقيدة ، وأن نرضى بما كتب الله ، وهذا الذي يحمي الإنسان من الصدمات النفسية والانهيارات العصبية ، هذا هو الاعتقاد بالقضاء والقدر .

والذين أصابتهم الحالات النفسية والذين انتحروا كلهم عندهم نقص في هذه العقيدة ، أو ليست عندهم بعقيدة أصلا .

ما هو مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر ؟

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

" مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيْرِهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ : وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْيَانِ الْقَائِمَةُ بِأَنْفُسِهَا وَصِفَاتِهَا الْقَائِمَةِ بِهَا مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ . وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ؛ فَلَا يَكُونُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ شَاءَهُ ؛ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَشَاءُ شَيْئًا إلَّا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ . وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيْرُهَا وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ : قَدَّرَ آجَالَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَكَتَبَ ذَلِكَ وَكَتَبَ مَا يَصِيرُونَ إلَيْهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِخَلْقِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَمَشِيئَتِهِ لِكُلِّ مَا كَانَ وَعِلْمِهِ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ وَتَقْدِيرِهِ لَهَا وَكِتَابَتِهِ إيَّاهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ ".

إلى أن قال :

" وَسَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَّفِقُونَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْعِبَادَ مَأْمُورُونَ بِمَا أَمَرَهُمْ اللَّهُ بِهِ مَنْهِيُّونَ عَمَّا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَمُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ الَّذِي نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمُتَّفِقُونَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدِ عَلَى اللَّهِ فِي وَاجِبٍ تَرَكَهُ وَلَا مُحَرَّمٍ فَعَلَهُ بَلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى عِبَادِهِ وَمَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى تَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ فِعْلِ مَحْظُورٍ أَوْ دَفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَهُوَ

---

[1] – الأسماء والصفات للبيهقي (379)

أَعْظَمُ ضَلَالًا وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَمُخَالَفَةً لِدِينِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ الْقَدَرِيَّةِ ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ مُشَبَّهُونَ بِالْمَجُوسِ .

وَمِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مَعَ إيمَانِهِمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ الْعِبَادَ لَهُمْ مَشِيئَةٌ وَقُدْرَةٌ يَفْعَلُونَ بِمَشِيئَتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ مَا أَقْدَرَهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مَعَ قَوْلِهِمْ إنَّ الْعِبَادَ لَا يَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { كَلَّا إنَّهُ تَذْكِرَةٌ } { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } { وَمَا يَذْكُرُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : { إنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } { وَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } وَقَالَ : { إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } { وَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [1]. انتهى باختصار .

إن عقيدة أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر أيها الإخوة تقوم على أربع مراتب وأركان وهي : العلم والكتابة والمشيئة وخلق الأفعال ، قال الناظم :

علم كتابة مولانا مشيئته ** وخلقه وهو إيجاد وتكوين

فأما بالنسبة لمرتبة العلم : فلابد أن نؤمن أن الله يعلم كل شيء جملة وتفصيلا أزلا وأبدا ، مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده ، علمه محيط بالماضي والحاضر والمستقبل وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

يعلم الموجود والمعدوم والممكن والمستحيل ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . علم خلقه قبل أن يخلقهم ، فعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم وحركاتهم ، وعلم أهل الجنة وأهل النار قبل أن يخلق الجنة والنار .

فإذاً هذه أول مراتب الإيمان بالقضاء والقدر : العلم السابق الشامل لله تعالى .

وهذه التي أنكرها غلاة القدرية ، حيث قالوا : هذه معاص ، كيف يقدرها الله ؟ الله لا يسمح بها ، إذا كان لا يعلم هذا المنكر الذي حدث ، فوقعوا في الشرك والكفر واتهام الله بالجهل والنقص .

[1] – مجموع الفتاوى (8/449-459)

يريدون أن يفروا من شيء فوقعوا فيما هم أدهى منه وأمر ، قالوا نريد أن ننزه الله عن أن يكون قد سمح بالشر أو قدره ، لذلك كان لا يعلم .

ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين قال : (الله أعلم بما كانوا عاملين)[1].

يعني لو أن هذا الولد الصغير ابن الرجل الكافر لم يمت واستمر في الحياة وكبر كان سيكفر أم سيؤمن ؟ الله اعلم بما كانوا عاملين .

ولذلك كان هذا أحد الأقوال الكثيرة في أولاد المشركين ما مصيرهم ؟ والقول الأرجح أنهم يختبرون يوم القيامة ، وهو الذي اختاره ابن تيمية وابن القيم وغيرهما .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ أَفَلَا نَتَّكِلُ قَالَ لَا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ . ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) إِلَى قَوْلِهِ (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)[2]

ويعلم عز وجل ما لم يكن ولا يكون لو كان كيف كان يكون ، على أي صفة يكون .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" يَعْلَمُ مَا كَانَ كَآدَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَيَعْلَمُ مَا يَكُونُ كَالْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ كَمَا يَعْلَمُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِ النَّارِ {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} وَأَنَّهُمْ {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} وَأَنَّهُ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} وَأَنَّهُ {لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذًا لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} وَأَنَّهُمْ {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلَّا خَبَالًا} وَأَنَّهُ {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} "[3]

فالعلم السابق أول درجات العلم بالقدر .

ثانيا : الكتابة .

1

2 – متفق عليه .

3 – مجموع الفتاوى (2/ 146)

وهي أن الله تعالى كتب ما سبق به علمه ، من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ .

أجمع الصحابة والتابعون وكافة أهل العلم على أن كل حدث إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ . قال الله عز وجل : {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحج: 70]

وقال تعالى : {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: 12]

وقال عز وجل {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى } [طه:51– 52]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)[1]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً) فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ، فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ؟ قَالَ:

(أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ) ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) الْآيَةَ[2]

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر المشيئة .

---

[1] – رواه مسلم (4797)

[2] – متفق عليه .

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا حركة ولا سكون ولا شيء يكون إلا بمشيئته . قال تعالى : {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } [القصص: 68] وقال تعالى : {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: 30]

وقال عز وجل : {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الكهف: 23، 24] وقال : {مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الأنعام: 39]

وعن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

(إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)[1]

مشيئته نافذة وقدرته شاملة ، ماشاء الله كونه فلا بد أن يكون ، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]

فلو شاء الله ما اقتتل الفريقان ، ولذهب كل في طريقه ، ولما خرج هؤلاء لقتال هؤلاء ، أو فتر عزم هؤلاء فرجعوا من الطريق .

وكما قال تبارك وتعالى أيضا : {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [المائدة: 48] ، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى } [الأنعام: 35] ، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا } [الأنعام: 107] ، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ} [الشورى: 8]

المرتبة الرابعة : الخلق .

كل الكائنات والحوادث مخلوقة وكل الأفعال والأقوال مخلوقة ، كل كائن بصفته وحركته وحاله مخلوق ، كل ما سوى الله مخلوق من العدم ، كائن بعد أن لم يكن ، خلقه الله ، فالله خالق كل شيء .

قال تعالى : {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام: 1]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ } [الحجرات: 13]

---

[1] – رواه مسلم (2654)

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء: 33]

{هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: 3]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في خلق أفعال العباد : (إن الله يصنع كل صانع وصنعته)[1]

فلو قال قائل : الله خلق الطائرة ؟ نقول نعم .

الله خلق الأقمار الصناعية ؟ نقول : نعم .

كيف ؟ نقول : خلق الذي صممها وخلق الذي ركبها وخلق الذي اخترعها وهي مخلوقة نفسها، وهذا الحديد الذي صنعت منه من الذي خلقه ؟ إنه الله عز وجل .

والله هو الذي خلق أفعال هؤلاء العباد ، يعني كل حركة مهنية للمصمم والمبرمج والكاتب والراسم وكل خط يرسمه المهندس والمصمم ، وكل مسمار يدقه الصانع في المصنع وكل شيء يصهر ويعجن ويخلط وكل شيء يركب على بعضه البعض كل هذه الحركات والأعمال خلقها الله ، فخلق المواد الخام ، وخلق هؤلاء العمال الذين يعملون وخلق الأفعال التي تفعل في المصانع ، فكل شيء مخلوق بلا استثناء ، العمال والعمل والمعمول المصنوع وطريقة التصنيع (والله خلقكم وما تعملون)

وكل واحدة من تلك المراتب هناك من أهل البدع من يجادل فيها ، فهناك من انكر العلم القديم لله تعالى ، ومنهم من أنكر المشيئة ، ومنهم من أنكر الكتابة ومنهم من أنكر خلق الله لأفعال العباد ، وهذه معتركات بين أهل السنة وأهل البدع .

فالله خلق البشر وافعالهم ولا شك في ذلك .

وهناك أيها الإخوة تقديرات ، إذا فهمت توضح عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر .

فعندنا تقدير عام وتقدير بشري وتقدير عمري وتقدير سنوي وتقدير يومي .

أما التقدير العام ، فهو أن الله قدر جميع التقديرات ، فالله علم وكتب وشاء وخلق .

هذا التقدير العام لكل شيء في السموات والأرض قدره الله كله عموما .

---

[1] – رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص73) وصححه الألباني في الصحيحة (1637)

التقدير البشري داخل في التقدير العام لكن لأنه متعلق بالبشر فنذكره هنا على أساس ما ورد في قوله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: 172، 173]

أشهدهم على أنفسهم وقدر في هذا التقدير البشري – يعني التقدير المتعلق بالبشر – في هذا التقدير حصل تقدير أهل السعادة وأهل الشقاوة .

فالله عز وجل أخرج ذرية آدم من ظهره ، مثل الذر ، فألقى عليهم نورا من نوره ، فمن اصابه من نوره اهتدى ومن أخطأه ضل .[1]

وأشهدهم على أنفسهم ، هذا التقدير في عالم الذر ، وإن كنا لا نذكره لكنه حصل لأن الله أخبر به ومن أصدق من الله قيلا .

استخرجهم من ظهر أبيهم آدم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، فجعل في فطرهم معرفة ربهم . ولذلك إذا عرض الحق على أي أحد لو قدر بدون مؤثرات خارجية سيتبعه ، ولذلك ما من مولود إلا يولد على الفطرة .

التقدير العمري : أن الله عز وجل قدر ما يجري على العبد في حياته منذ أن ينفخ فيه الروح إلى نهاية أجله ، وهو ما رواه ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ (أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ

---

[1] – روى الترمذي (2642) وحسنه عن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وغيره .

لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا)[1]

التقدير السنوي : في ليلة القدر في كل سنة هجرية وليس ميلادية قال تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) يكتب في هذه الليلة ما يحدث في هذه السنة من موت فلان أو حياة فلان ، عز ، ذل ، مطر ، فلان يحج فلان لا يحج ، وهكذا .

هناك تقدير يومي : قال الله عز وجل (كل يوم هو في شأن) قيل في تفسيرها :

يغفر ذنباً، ويفرج هماً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مبتل، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً ويقصم جباراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقواماً ويضع آخرين.[2]

وأقدار الله تجري على الجميع ، وأشياء تنقل من اللوح المحفوظ إلى صحف الملائكة وتنفذ أولا بأول ، الملائكة تنفذ أوامر الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج : (... حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ)[3]

فالملائكة تنزل عليهم الأوامر وهي تنفذ أوامر الله كيف كانت مشيئته سبحانه .

ما هو الواجب على العبد في باب القدر ؟

أن يؤمن بقضاء الله وقدره وأمره ونهيه وشرعه ويصدق بخبره سبحانه وتعالى .

وإذا أحسن حمد الله ، وإذا أساء استغفر الله .

معاصينا هل هي بقدر ؟

نعم .

هل نحن مجبورون عليها ؟

---

[1] – متفق عليه .

[2] – الوابل الصيب (ص: 62)

[3] – متفق عليه

لا ، لأن العبد أعطي إرادة وأعطي مشيئة لكي يعمل ، ولو لم تكن له إرادة ولا مشيئة يصير العبد غير مكلف .

فالعبد أعطي إرادة ومشيئة ولكنها لا تخرج عن مشيئة الله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله)

لكن نحن مجبورون أو مكرهون ؟ لا ، لو صرنا مكرهين ما عذبنا الله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فالمكره لا يعذبه الله ولو قال كلمة الكفر .

لكن ما دام عندك إرادة فأنت محاسب وأنت مكلف ، ولابد ان تقوم بما امرك الله به وتنتهي عما نهاك عنه ، وإذا أطعنا : فبقدر الله ونعمته علينا ، وهو الذي كتبه وقدره وشاءه لنا بحكمته وعلمه سبحانه ، فنحمده على نعمة الطاعة التي مكننا منها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكل ما عملنا من معصية فهو الذي كتبها وقدرها وشاءها علينا سبحانه بحكمته وعلمه دون أن يظلمنا سبحانه وتعالى .

ونحن عندنا إرادة عملنا بها المعصية وارتكبنا بها المنهي والمحظور ولذلك لابد ان نستغفر إذا حصلت المعصية .

وبالمراعاة الصحيحة لقدر الله وشرعه يصير الإنسان عابدا حقيقة ؛ فيكون من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ونؤمن أن الله أمرنا بطاعته ونهانا عن معصيته فنفعل الطاعة ونترك المعصية ، ومن وفقه الله لفعل الطاعة وترك المعصية فليحمد الله ومن فعل المعصية وترك الطاعة فليستغفر الله ، وعلينا بناء على اعتقاد القضاء والقدر أن نسعى في مصالحنا الدنيوية ، إذا اردت اولادا تزوج ، إذا أردت زرعا فابذر وازرع ، إذا أردت مالا تاجر أو اعمل عملا .

وهكذا تقوم مصالحنا في الحياة الدنيا على الأخذ بالأسباب التي من حكمة الله جعلها في الكون حتى من أراد أن يكسب، ينال، يريد مما قدره الله يعمل من هذه الأشياء التي جعلها الله أسبابا لحصول آثارها ونتائجها .

هذه إذاً جملة أيها الإخوة فيما ينبني على الإيمان بالقضاء والقدر من جهة المأمور والمنهي والمصالح في الدنيا .

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا مؤمنين بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

هل الإيمان بالقدر ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية ؟

الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها لأن الشرع والواقع يدل على ذلك .

أما الأدلة الشرعية التي تدل على أن لنا غرادة ولنا مشيئة ، فمثل قوله عز وجل : {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} [البقرة: 223] ، وقوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [النبأ: 39] وقوله {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف: 29] .

وأما الواقع : فإن كل إنسان عاقل يعلم أن له قدرة ومشيئة بهما يفعل ويترك وأنه يأتي الأشياء عموما بمشيئته وإرادته إن شاء تركها وإن شاء فعلها هذا يعلمه كل عاقل .

ولكن مشيئتنا وإرادتنا مقيدة بمشيئة الله تعالى لقوله عز وجل {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: 28، 29] ، فأثبت للعبد مشيئة ، وجعلها بمقيدة بمشيته تعالى . وهذه تلخص عقيدة القضاء والقدر في مسألة مشيئة العبد تلخيصا واضحا ، فإذا صلى العبد أو عمل الخير أو عمل المعاصي كان هو الفاعل لهذا العمل الصالح أو العمل السيء وهذا الفعل وقع باختياره ، وقد قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ) قَالَ : (أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ) ثُمَّ قَرَأَ : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) الْآيَةَ[1]

فالله يعين من يريد الخير ويمده بأسباب وإعانات متنوعة ، كما أنه سبحانه يخذل الفاسقين ويكلهم إلى أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه .

فهذه المشيئة والإرادة ثابتة لنا ، وبناء عليها يكون التكليف ، ولو ان أحدنا فقد التكليف والإرادة لا يكون مكلفا ، يكون مكرها مثلا ، ولا عقاب عليه .

المسألة الثانية : هل فعل الأسباب ينافي القضاء والقدر ؟

---

[1] – متفق عليه .

فلو قال أحد الناس : إذا كان كل شيء مكتوب فلماذا نعمل ؟

الجواب : نرجع إلى الشرع ، لقد جاءت أدلة الكتاب والسنة حافلة باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شئون الحياة فأمرك بالعمل والسعي في طلب الرزق واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء والتزود في الأسفار ، قال تعالى : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الجمعة: 10] ، لم يقل اجلسوا في بيوتكم وانتظروا الرزق ينزل عليكم من السماء ، قال : انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله .

قال {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا } [الملك: 15] ، وقال {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: 60] وقال : {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة: 197] ، وقال : {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } [البقرة: 45]

فأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تسبب النجاح في الآخرة والفلاح وكذلك تسبب النجاح في الدنيا في تحصيل الرزق والولد وغير ذلك .

قال تعالى : {فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [البقرة: 187] ، كيف يحصل الولد بغير المباشرة ؟

وأمرنا باتخاذ الأسباب الشرعية التي توصل إلى فضل الله وجنته كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وهذه حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم الدالة على انهم كانوا يأخذون بسائر الأسباب الشرعية الموصلة إلى رضوان الله تعالى .

والذي يظن ان إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر قد غلط غلطا فاحشا ويقال له : إذاً لا تبذر وسيخرج الزرع ، لا تتزوج وسيأتيك الولد . لا تأكل ولا تشرب وستشبع وتروى !!

فهذا كلام لا يقوله عاقل .

ولذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله :

" وَإِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا أُمِرَ بِهِ مُتَّكِلًا عَلَى الْكِتَابِ كَانَ ذَلِكَ مِنْ الْمَكْتُوبِ الْمَقْدُورِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِ شَقِيًّا وَكَانَ قَوْلُهُ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ : أَنَا لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ . فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَضَى بِالشِّبَعِ وَالرِّيِّ حَصَلَ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ أَوْ يَقُولُ لَا أُجَامِعُ امْرَأَتِي فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَضَى لِي بِوَلَدِ فَإِنَّهُ يَكُونُ . وَكَذَلِكَ

مَنْ غَلِطَ فَتَرَكَ الدُّعَاءَ أَوْ تَرَكَ الِاسْتِعَانَةَ وَالتَّوَكُّلَ ظَانًّا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْخَاصَّةِ نَاظِرًا إلَى الْقَدَرِ فَكُلُّ هَؤُلَاءِ جَاهِلُونَ ضَالُّونَ "[1]

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[2]

لا تترك العمل ، لا تكن عاجزا ، فإن أصابك شيء فقل قدر الله وما شاء فعل .

فأمر بالحرص على ما ينفع ، ونهى عن العجز الذي هو الاتكال على القدر . وأمرنا إذا أصبنا بشيء ألا نيأس وأن نسلم الأمر لله تعالى الذي كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة .

فهو سبحانه الذي قدر ، وهو الذي اوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

هو الذي أخبرنا سبحانه عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم انه قدر مقادير الخلائق وفرغ منها وهو الذي أخبرنا عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم أن اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} ؟!

{فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} ؟!

يقولون : كل شيء مكتوب وما كتب سيصل إلينا ولا حاجة بنا إلى العمل !

إن كان في أمر الدنيا فهم مجانين ، لذلك فهم يعيشون عالة على الناس لأنهم لا يريدون العمل ، وإن كان في أمر الآخرة فهم ضالون ، لأنهم لم يعملوا بما يوصلهم إلى الجنة .

مسألة :

هل يصح الاحتجاج بالقدر على المعصية ؟

---

[1] – مجموع الفتاوى [8 /284]

[2] – رواه مسلم (2664)

كثيرا ما يناقش الدعاة إلى الله والناصحون الناس ، فيقولون للمنصوح : لماذا لا تقلع عن المعصية ؟ فيقول : إن الله لم يقدر لي ذلك ! إذا قدر لي سأترك هذه المعصية ، أنا تبع المشيئة! فنقول له : أنت تبع المشيئة ونحن تبع المشيئة ، لكن الذي أنت تحت مشيئته امرك بالعمل وترك المعصية ، فأين العمل ، وأين ترك المعصية ؟

فإذا قلت : أنا تحت المشيئة ، ولا تعمل ، إذاً متى تهتدي ومتى تعمل ؟

وبعضهم يقول : ادع لي بالهداية ، وهو لا يعمل شيئا لهداية نفسه !

فإذا انشغلت بالدعاء لك ، وأنت ماذا تفعل لنفسك ، تستمر على المعصية ؟! إذاً متى تهتدي ؟ متى تقلع عن الذنب ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَسَائِرِ الْعُقَلَاءِ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مَقْبُولًا لَأَمْكَنَ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَخْطُرُ لَهُ مِنْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَيَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ . وَنَفْسُ الْمُحْتَجِّ بِالْقَدَرِ إذَا اُعْتُدِيَ عَلَيْهِ وَاحْتَجَّ الْمُعْتَدِي بِالْقَدَرِ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ بَلْ يَتَنَاقَضُ وَتَنَاقُضُ الْقَوْلِ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِهِ ؛ فَالِاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ مَعْلُومُ الْفَسَادِ فِي بِدَايَةِ الْعُقُولِ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ كَمَا يَظُنُّهُ المباحية المشركية الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ دُونَ الْأَمْرِ وَالْقَدَرِيَّةُ الْمَجُوسِيَّةُ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِالْأَمْرِ دُونَ الْقَدَرِ أَوْ ظَنَّ أَنَّ التَّكْلِيفَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَلَكِنَّ الشَّارِعَ أُطِيعَ فِيهِ لِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ وَجَعَلَ ذَلِكَ حُجَّةً لَهُ فِي الْأَفْعَالِ لَمْ يَتَضَمَّنْ أَسْبَابًا مُنَاسِبَةً لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بَلْ أَنْكَرَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَقَاصِدِ الَّتِي لِلْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمُعَادِ وَجَعَلَ ذَلِكَ الشَّرْعَ مُجَرَّدَ إضَافَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ مُنَاسَبَةٌ وَمُلَاءَمَةٌ وَأَنْكَرَ أَنْ تَكُونَ الْأَفْعَالُ عَلَى وُجُوهٍ لِأَجْلِهَا كَانَتْ حَسَنَةً مَأْمُورًا بِهَا وَكَانَتْ سَيِّئَةً مَنْهِيًّا عَنْهَا احْتِجَاجًا عَلَى ذَلِكَ بِالْقَدَرِ وَأَنَّهُ مَعَ كَوْنِ الرَّبِّ هُوَ الْخَالِقُ يَمْتَنِعُ هَذَا كُلُّهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ ضَالٌّ يُعْلَمُ فَسَادُ قَوْلِهِ بِالضَّرُورَةِ وَبِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ دَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى فَسَادِ قَوْلِهِ . فَإِنَّ عَامَّةَ بَنِي آدَمَ يُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ وَيَقُولُونَ : إنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عُقُوبَةِ الْمُعْتَدِينَ حَتَّى الْمَجَانِينَ وَالْبَهَائِمَ يُؤَدَّبُونَ لِكَفِّ عُدْوَانِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ

أَفْعَالُهُمْ مُقَدَّرَةً وَبِعَفْوِ كُلِّ الْآدَمِيِّينَ عَنْ عُدْوَانِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُهُمْ مُقَدَّرَةً فَالْعَبْدُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْضَى بِمَا قُدِّرَ مِنْ الْمَصَائِبِ وَيَسْتَغْفِرَ مِنْ الذُّنُوبِ والمعائب وَلَا يَحْتَجَّ لَهَا بِالْقَدَرِ وَيَشْكُرَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنْ النِّعَمِ وَالْمَوَاهِبِ فَيَجْمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ وَالشَّرْعِ "[1]

والذي يحتج للمعصية بالقدر ويقول : مكتوب عليّ فعلها ، ثم لا يتوب ، فهذه حجة الكفار الذين قالوا : {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } قال تعالى : {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام: 148]

فاعتبر الله هذا تكذيبا ، {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 148، 149]

فاحتجوا بالقدر على شركهم ، ولو كان احتجاجهم بالقدر على شركهم مقبولا ما أذاقهم الله بأسه وعذابه . {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165]

ثم إن الله أمر العبد ونهاه ، {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ } [التغابن: 16] ، ولو كان العبد مجبرا على الفعل ما كان عليه معصية ولا عليه جزاء ولا عقاب.

ثم نقول للعاصي :

لماذا لا تسلك سبيل الحق وتتبعه وتحتج بالقدر، هل اطلعت على اللوح المحفوظ ورايت أنك ستبقى على المعصية والضلال ؟

ما يدريك أنه مكتوب عليك في اللوح المحفوظ أنك ستبقى في المعصية ؟

هو إلى هذه اللحظة مكتوب عليك من قبل ، لكن مستقبلا ، هل اطلعت على اللوح المحفوظ وعلمت أنك ستبقى على المعصية لذلك تقول : أنا مستقبلي معروف ومكتوب عليّ أني سأبقى ضالا حتى نهاية عمري ، فلماذا أطلب سبيل الهداية ؟

هل اطلعت على اللوح المحفوظ فوجدت أن الله كتبك في أهل النار ؟

[1] – مجموع الفتاوى [8 /179]

بالطبع لا .

ولذلك يقال له : القدر سر مكتوب ، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه .

ولو سلمنا للمحتج بالقدر لتعطلت الشرائع ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لقبل الله حجة إبليس لما قال {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 17]

هذه حجة إبليس .

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لتساوى فرعون وموسى عليه السلام ، هذا مقدر وهذا مقدر .

فالاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعائب تصحيح لمذهب الكفار ، ولو كان هذا صحيحا لاحتج به أهل النار ، فيقولون يوم القيامة : كتبت علينا وقدرت علينا وأدخلتنا النار ونحن مساكين ما لنا ذنب !!

وكذلك فإن مما يرد به أيضا على هؤلاء المحتجين بالقدر أن يقال لهم :

أنتم في مسائل الآخرة تقولون نحن مجبورون ولا حيلة لنا ، وفي مسائل الدنيا والأرباح والشهادات وتحصيل الأموال تقولون : نحن نعمل ونحن نكدح ونحن نفعل .

فلماذا إذا كنتم في قضايا الدنيا أخذتم بالأسباب وتهيأتم لها ، وإذا كنتم في قضايا الآخرة احتججتم بالقدر وقلتم : مكتوب علينا ، ولا تأخذون بأسباب دخول الجنة ، ولا بأسباب الفرار من النار ؟!

كما قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ أَيُّ مَذْهَبٍ يُوَافِقُ هَوَاك تَمَذْهَبْت بِهِ .[1]

فبعض الناس يعملون من الطاعات ، لكن يقولون : أنا فعلت ، وأنا وأنا .

قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنك ما استطعت أن تعمل الطاعة إلا بعد أن أعانك الله عليها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

---

[1] – مجموع الفتاوى [2 /301]

" هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ إذَا أَصَرُّوا عَلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ كَانُوا أَكْفَرَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤْمِنُونَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَكِنْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضِ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

فَإِذَا كَانَ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا فَكَيْفَ بِمَنْ كَفَرَ بِالْجَمِيعِ . وَلَمْ يُقِرَّ بِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ؛ بَلْ تَرَكَ ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِالْقَدَرِ فَهُوَ أَكْفَرُ مِمَّنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ ".[1]

ولو تصورنا قبول الاحتجاج بالقدر على المعاصي وأفعال الظلم ؛ إذاً لتعطلت الحدود والتعزيرات ، ولأغلقنا باب العقوبات والجزاءات ، لأن كل قاتل وكل زان وكل شارب خمر وغيرهم من العصاة سيحتجون بالقدر ويقولون مكتوب علينا، وليس لنا ذنب .

ولو كانت هذه الحجة منهم مقبولة فلا داعي إذاً للتوبة والاستغفار ! لأن كل شيء مكتوب ، لا حول له ولا قوة ولا مشيئة ولا اختيار ولا إرادة ، كالريشة في مهب الريح ، وكالساقط من أعلى إلى أسفل .

متى يسوغ الاحتجاج بالقدر ؟

نذكر هنا قصة آدم وموسى عليهما السلام :

فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنْ الْجَنَّةِ . فَقَالَ لَهُ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي

---

[1] – مجموع الفتاوى [8/ 262]

اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى – مَرَّتَيْنِ[1]

ففي هذا الحديث احتجاج آدم عليه السلام بالقدر .

ولكن احتج بالقدر على أي شيء ؟ على معصيته ، أم على مصيبته التي حصلت وهي خروجه وذريته من الجنة ؟

هنا أمران لا بد أن نفرق بينهما وقعا لآدم عليه السلام : ذنب فعله ، ومصيبة حصلت له بسبب الذنب ، وهي إخراجه من الجنة .

فقول موسى عليه السلام له (أخرجتنا ونفسك من الجنة) هذا الكلام حصل بعد الذنب والتوبة وقبول التوبة ونزوله وموته ، ثم التقيا ، فتناظرا ، فاحتج آدم بالقدر .

متى احتج بالقدر ؟ وعلى أي شيء احتج بالقدر ؟ مسألتان مهمتان .

احتج آدم بالقدر بعد أن مات ، ليس أثناء المعصية .

احتج بالقدر بعد أن مات وبعد أن تاب وبعد أن قبلت التوبة .

فلم يحتج بالقدر على الذنب الذي فعله ، وإنما احتج به على المصيبة التي صارت عليه .

كأنه يقول : يا موسى إن المصيبة قد وقعت وخرجنا ، فعلام تلومني ؟

ولذلك لو سأل سائل فقال : لو أن إنسانا عمل جريمة وتاب واستغفر ، فجاءه من يقول له : كيف تعمل هذه الجريمة ؟ هل يجوز له أن يقول : قدر الله وما شاء فعل ؟

نعم ، يجوز له أن يقول ذلك .

فللتائب الذي تاب وأقلع عن الذنب أن يحتج بالقدر ويقول : قدر الله وما شاء فعل .

هنا يكون الاحتجاج بالقدر صحيحا .

كذلك يكون الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان ، مرض ، فقد قريب ، تلف الزرع ، قتل خطأ ، ونحو ذلك ، فمن تمام الرضا بالله ربا أن يرضى ويسلم .

---

[1] – متفق عليه .

هذا في المصائب أما في المعائب والذنوب فلابد أن يستغفر ؛ لذلك قالوا : السعيد يستغفر من المعائب ويصبر على المصائب كما قال الله تعالى : {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [غافر: 55]

فالمصيبة تصبر عليها والذنب الذي فعلته تستغفر منه ، نعم هو مقدر ومكتوب ، ولكن ما الواجب تجاهه ؟ تستمر على المعصية ؟ كلا ، إنما تستغفر لذنبك .

وهنا لا بد أن نتكلم عن مسألة مهمة وهي أن الإرادة الربانية تنقسم إلى إرادة كونية قدرية وإرادة شرعية دينية ، لا بد أن نفرق بينهما .

فالإرادة الكونية القدرية هذه مرادفة للمشيئة ، إرادة لا يخرج عنها شيء ، فالكافر والمسلم تحت إرادة الله الكونية ، فالطاعات والمعاصي كلها بمشيئة الرب عز وجل ، {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: 11] ، {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام: 125]

فالإرادة الكونية القدرية هي كل ما أراده الله كونا وقدرا من خير وشر وطاعات ومعاص ، كله داخل تحت الإرادة الكونية للرب تعالى .

وإذا أراد الله إرادة كونية قدرية فلابد أن تحصل وتقع ولا تتخلف أبدا ، خير شر ، لا بد ان تقع .

أما الإرادة الشرعية الدينية التي تتضمن محبة الله ورضاه فإن الله يريد أشياء أرادها محبة لها شرعها لعباده ورضيها لهم دينا ، هذه قد تحصل وقد لا تحصل .

{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185] . فجاء من يريد بهم العسر ، فإرادة الله اليسر بالناس هذه إرادة شرعية قد تحصل وقد لا تحصل .

{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ } [النساء: 27] . لكن بعض الناس يصر على الذنب ولا يأخذ بأسباب التوبة ، فلا يتوب الله عليه مثلا .

فهذه إرادة شرعية قد تحصل وقد لا تحصل .

هناك فروق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية :

الإرادة الكونية قد يحبها الله وقد لا يحبها ، أما الشرعية فهو يحبها ويرضاها .

فالكونية مرادفة للمشيئة ، والشرعية مرادفة للمحبة .

الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لغيرها ، يعني قد لا تراد لذاتها ولكن لأمر قد يترتب عليها .

مثلا : خلق إبليس ، حصول المرض ، فالله تعالى خلق إبليس لا لذاته ولا محبة له ، لكن لأنه يريد من وراء خلق إبليس ابتلاء العباد {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس: 60 – 62]

وكذلك المرض ، قد يريده الله لتطهير ذنوب بعض عباده ، أو لكف أهل الشر عن الشر ، فالظالم إذا مرض استراح الناس ، والعابد إذا مرض زاد ذلك في حسناته .

من الفروق أن الإرادة الكونية لا بد من وقوعها كالإماتة والإحياء ، أما الشرعية فقد تقع وقد لا تقع .

فمثلا : يريد الله إرادة شرعية أن يؤمن الناس كلهم أجمعون ، لكن هذا لا يحصل ، {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: 103]

هناك إرادة شرعية وكونية معا ، مثال ذلك : إيمان المؤمن ، إيمان أبي بكر الصديق ، هذه إرادة يحبها الله فهي إرادة شرعية ، وهي حاصلة بالفعل فهي إرادة كونية ، فهذه إرادة كونية شرعية .

أما إيمان أبي جهل : فالله يريد إيمانه شرعا ، لكن لم يرده كونا وقدرا ، أراد أن يموت على الكفر ، فهذه إرادة كونية لكنه شرعا يريد منه أن يسلم .

فالإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع ، ولو كان لا بد من وقوعها لآمن من في الأرض كلهم جميعا .

الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه ، والشرعية متعلقة بألوهيته وشرعه.

الإرادتان تجتمعان في حق المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في كفر الكافر ومعصية العاصي ، وتنفرد الإرادة الشرعية في إيمان الكافر .

فإذا قلت إيمان أبي جهل : فهذا مثال على الإرادة الشرعية الغير كونية .

وإذا قلت إسلام عمر : فهذه إرادة شرعية كونية .

وإذا قلت : كفر أبي جهل : فهذه إرادة كونية غير شرعية .

والله سبحانه وتعالى أراد أشياء كونية منها ما هو شرعي ومنها ما هو غير شرعي كما أن هناك كتابة وأمرا وإذنا وجعلا كونيا وشرعيا ، وهكذا .

فمثلا : (كتب عليكم الصيام) هذه كتابة شرعية ، لأن بعض الناس لا يصوم .

{وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50] هذا أمر كوني .

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) هذا أمر شرعي

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى: 21] إذن الله هنا شرعي .

(جعل الله الكعبة البيت الحرام) هذا الجعل كوني وشرعي ، أراده شرعا وكونا .

وهكذا .

هل ينسب الشر إلى الله تعالى ؟

نحن نؤمن بالقضاء والقدر ، وأن الخير والشر كله خلقه الله عز وجل ، فهل يقع في أفعاله تعالى شر ؟

نحن نقول : هو منزه عن الشر ولا يفعل إلا الخير .

والقدر من حيث هو نقول : هذا قدر الله ، لا شر فيه بوجه من الوجوه من جهة نسبته لله ، لكن من جهة فعل العبد الذي قام بالجريمة والقتل شر ، لكن من جهة فعل الله وتقديره ليس بشر .

ولو رأيت شرا مخلوقا في الأرض لابد أن يكون فيه خير من وجه من الوجوه . أدركناه أو لم ندركه . فأفعال الله لا يوجد فيها شر .

قال ابن القيم رحمه الله في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ)[1] ، قال :

" فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير والشر إنما صار شرا لانقطاع نسبته وإضافته إليه ؛ فلو أضيف إليه لم يكن شرا ، وهو سبحانه خالق الخير والشر فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله ، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله ؛ ولهذا تنزه

[1] – رواه مسلم (771)

سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه ؛ فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله ، والشر وضع الشيء في غير محله ، فإذا وضع في محله لم يكن شرا ، فعلم أن الشر ليس إليه وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك " [1].

فخلق الله لإبليس ليس هو شر ، لأن فيه حِكم ، لكن إبليس نفسه شر .

وإذا نظرنا إلى حال العباد والناس عرفنا أن الشر بالنسبة لهم في الظاهر كالمرض والمصيبة لكن إذا علموا أن الله عز وجل يكفر بها السيئات ويرفع بها الدرجات هل تكون شرا ؟ كلا .

ولذلك نظرتنا قاصرة ، ممكن أن نقول على الشيء أنه شر وهو في الحقيقة خير .

قال الله تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) البقرة / 216 .

قال ابن القيم رحمه الله : " العبد لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه ولو عرف أسبابها ، فهو جاهل ظالم ، وربه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها ، ومن أعظم أسبابها : ما يكرهه العبد ؛ فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب " [2].

فالشر ليس في أفعال الله تعالى ، إنما الشر في مفعولاته . وما يظهر لنا أحيانا أنه خير قد يكون شرا عظيما وما يظهر لنا أحيانا أنه شر قد يكون خيرا عظيما ؛ بسبب قلة علمنا .

كيف يريد الله شيئا ولا يحبه ؟

نقول : المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره .

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره قد لا يكون مقصودا ، وليس فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته . وإن كان وسيلة إلى مقصود مراد .

---

[1] – شفاء العليل (ص: 179)

[2] – "مدارج السالكين" (2/ 205)

فمراده عز وجل ، إذا أراد شيئا ، ممكن يجتمع فيه الأمران : أنه يبغضه من وجه وأنه يريده من وجه ، ولا يتنافيان .

مثال ذلك : الدواء الكريه ، هل تحب هذا الدواء وتستمتع وتستلذ به ؟ كلا ، أنت تكرهه لطعمه المرّ ، لكنك تريد أن تشربه للشفاء ، فأنت تريد وتكره في آن وأنت مخلوق .

فالله قد يريد شيئا وهو يكرهه ، كما أنك أنت أيها المخلوق تريد شيئا وأنت تكرهه .

وكذلك قطع العضو المتآكل ، هل هو عمل محبوب للإنسان أن يقطع عضوا من اعضاء بدنه ؟ كلا ، لكن إذا قال الأطباء : لو لم تقطعه انتشر المرض في باقي الجسم ، هل تريد أن تقطعه الآن أم لا ؟ تريد طبعا . مع انك لا تحب قطع عضو من أعضائك ، لكنك الآن تريد قطعه لأن في بقائه مفسدة أكبر من مفسدة قطعه .

إذاً قد يجتمع في الشيء الواحد أمران : بغض من وجه ، وحب من وجه آخر .

خلق إبليس : لو قال قائل : هل في خلق إبليس خير ؟ نقول نعم لو تأملت .

لكن لا بد أولا أن ننبه على مسألة مهمة جدا ، وهي أن أفعال الله التي يمكن أن يظهر لنا فيها شر مثلا في نفس الشيء المجعول المخلوق ، لا يشترط أن نعلم الحكمة من ورائها ؛ فقد لا نعلم الحكمة من ورائها ، لكن نؤمن أنه ليس في أفعال الله شر . في خلق ذلك حكم بوجه من الوجوه وإلا ما أرادها الله أن تقع .

يعني مثلا إهلاك قوم من الأقوام ، هذا في ظاهره شر ، لكن الله جعله عبرة ونكالا لغيرهم ، فهذا من الخير .

فأي شيء من خلق الله إذا بدا لك فيه الشر ولم تعرف وجه الحكمة من خلقه فهذا لا يغير شيئا في القضية ، ولذلك نحن نسلم بما قدر الله ونرضى ولو لم نعرف وجه الحكمة في تقديره سبحانه ؛ ولذلك كان أمر المؤمن خير كله بكل حال ؛ فروى مسلم (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) .

ففي خلق إبليس يظهر كثير من حكمة الله في خلقه ، منها :

ظهور قدرته تعالى على الخلق ، كيف خلق المتضادات والمتقابلات ، وهو كما خلق اشرف الذوات خلق أخبث الذوات ولا خالق غيره سبحانه ، فهو الخالق وحده .

مثل ما خلق الحر والبرد والماء والنار والداء والدواء والحسن والقبيح والموت والحياة ، فيظهر بذلك قدرته عز وجل على الخلق .

وكذلك فإنه يكمل لأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة إبليس عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله وإغاظته وإغاظة أوليائه والاستعاذة به منه والالتجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يحصل بدونه .

فيحصل البلاء بخلقه ، ويتميز المؤمنون عن غير المؤمنين .

وتظهر آثار أسمائه وصفاته القهرية مثل القهار والعدل وشديد العقاب وسريع الحساب وذي البطش الشديد والخافض والمذل فإن هذه الأسماء والأفعال كمال فلا بد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على الإيمان لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال .

فتستخرج ما في طبائع البشر من الخير والشر .

فالإنسان فيه طبائع خير وطبائع شر ، فالشيطان يستخرج ما في الإنسان من طبائع الشر ، والرسل تستخرج من ما في الإنسان من طبائع الخير .

ووجود الصراع بين الحق والباطل ينتج عنه تمحيص وتمييز درجات المضحين في سبيل الله فينتج عنه شهداء .

فلو لم يخلق إبليس هل كان يوجد في الأرض جهاد ؟ لو لم يوجد إبليس لم يوجد جهاد ، ولو لم يوجد جهاد لم يوجد لله شهداء ، والله تعالى يريد أن يتخذ من عباده المؤمنين شهداء يكرمهم ويرفع درجاتهم .

{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } [آل عمران: 140]

لو لم يخلق إبليس لدخل الناس كلهم الجنة، إذ ليس هناك من يستخرج ما في طبائعهم من الشر.

وكذا تظهر آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد .

فمِن وراء خلق إبليس حِكم لله تعالى أشرنا إلى بعضها [1]

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ** ويبتلي الله بعض القوم بالنعمِ

ونعلم أن الآلام والأمراض من الشر في ظاهرها ، ولكن تقديرها ينطوي على حكم عظيمة وفوائد جليلة ، فمثلا :

الصبر على الضراء ، يعني أيوب عليه السلام ، وصل بصبره إلى المنزلة العالية ، قال تعالى : {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 44]

فلو لم يكن مرض وألم كيف كان سيصل إلى هذه المرتبة التي يصفه الله بها بالصبر والأوبة ؟

(عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) .

فلو لم تكن هذه الآلام وهذه الأمراض كيف كان يظهر الصبر ؟

لو لم يكن هناك إبليس وشهوات ، هل سيكون هناك صبر ؟ وإذاً ، فهناك خُلق كامل للبشر سيحذف ويمحى ولا تظهر آثاره ولا ما ينبغي أن يترتب عليه .

لكن لو قُدر مرض وصبر عليه فإنه يؤجر خصوصا أن بعض الناس ليس عندهم ما يؤهلهم لدرجات الجنة من الأعمال ، عباداتهم تقف عند حد معين في ذات أنفسهم ، والله تعالى كتب لهم درجات أعلى كيف يصلون إليها ؟ بالبلاء والمرض والمصيبة والصبر على ذلك .

ولذلك قال بعض السلف : " لَوْلَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا لَوَرَدْنَا الْقِيَامَ مَفَالِيسَ "[2].

---

[1] – وراجع : مدارج السالكين (2 /194– 196) ، شفاء العليل (ص 236–244)

[2] – زاد المعاد (4/ 176)

فأعمالنا لا تؤهلنا لشيء ، لكن بالمصائب تعظم أرصدتنا ونزداد من الحسنات .

ومن الحكمة في تقدير المصائب والبلاء : تقوية المؤمن لأن المؤمن يخرج من المحنة أقوى مما كان ، ولا يحصل له ذلك إلا بالبلاء .

ثم إن الله تعالى بالمصائب والأمراض يقهر الظلمة .

وكذلك إيقاظ المبتلى من غفلته ، فكثير من الناس يكونون سادرين في الغي فإذا مرضوا تغيرت أحوالهم واستكانوا وطلبوا التوبة وتحسنت أحوالهم وزاد إيمانهم .

وكثير من الناس لم يهتدوا إلا بعد أن ابتلوا ومرضوا .

كان لا يسمع كلمة واحدة من داعية من الدعاة ولا يطيق ذلك ، ثم لما مرض وذهب الداعية إليه يعوده استجاب وقبل النصيحة .

وبعض الأمراض الخطيرة كالسرطان مثلا قد يوقظ الابتلاء بها الإنسان من غفلته ويستقبل التوبة وخاصة إذا عرف من الأطباء خطورة المرض ، وربما لو لم يبتلى بهذه الأمراض لم يصحح نفسه ولا تاب من ذنبه ، فكان تقدير البلاء الشديد عليه رحمة به قدرها له الله .

فكثير من الناس من إذا عرف بخطورة حالته الصحية أقدم على تصحيح حاله والنظر في مصالحه وتسوية أحواله ، ولولا البلاء لظل غير مهتم بشيء من ذلك .

وكذلك فإن من الآلام ما يكون سببا للصحة ، فبعض أنواع الحمى قد تزيل المرض من الجسم ، فتكون الحمى سببا للشفاء ، وقد قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ** وربما صحت الأجسام بالعللِ

وكذلك فالإنسان يرحم أهل البلاء إذا رآهم ويشفق عليهم ، فلو لم يوجد أهل البلاء كيف ستثار عاطفة هؤلاء ويتصدقون عليهم؟

كيف يحصل الأجر ؟ كيف نعرف حقارة الدنيا ؟ كيف نعرف أننا لا نعرف عواقبنا ؟

{فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء: 19]

حتى تقدير المعاصي ، فلو لم توجد المعاصي لم توجد التوبة ، والله يحب التوابين ، الله يفرح بتوبة عبده . الله يريد أن يتفضل على عباده ويعفو عمن ظلم ويحسن إلى من أساء ويغفر لمن أذنب . كيف سيحصل ذلك بدون تقدير المعاصي على العبد ؟

وقد روى مسلم (2749) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

" الذَّنْبُ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ هُوَ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ تَوْبَةٌ ، فَأَمَّا مَا حَصَلَ مِنْهُ تَوْبَةٌ فَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَفْضَلَ مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ ، وَلَوْ كَانَتْ التَّوْبَةُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْكَبَائِرِ ؛ فَإِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ هُمْ خِيَارُ الْخَلِيقَةِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا صَارُوا كَذَلِكَ بِتَوْبَتِهِمْ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَا تَقَدَّمَ قَبْلَ التَّوْبَةِ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا " [1].

وكذلك ليعرف العبد حاجته إلى حفظ الله له ، فإذا اقترف ذنبا علم أنه لا يمكن أن يحفظ منه إلا بالله فيلجأ إلى ربه . طالبا حفظ نفسه ، فهذه المعاصي تستجلب عبوديات كانت لا تحصل لولا تقدير هذه المعاصي . مِن تضرع، دعاء، بكاء، ندم .

وكذلك يعرف العبد حقيقة نفسه أنه ظلوم جهول فيتواضع لله ، كما أنه إذا لم يعص يمكن أن تدخل عليه عبادته العجب بالنفس ، فبعض الناس العبادات عندهم صارت سبيلا للعجب المهلك حتى يرى الواحد منهم نفسه كل شيء ولا يرى الناس شيئا .

وفي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ : أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ أَقْصِرْ فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ

---

[1] – مجموع الفتاوى (15 /54)

عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ . فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي . وَقَالَ لِلْآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ [1]

أعجب بنفسه ، فتألى على الله !

فالمعصية تكسر أحيانا كبر بعض العبّاد . وتجعل الإنسان متيقظا للشيطان ، وتجعل له خبرة بالشر . وتجعله محتاطا لنفسه كي لا يذنب مرة ثانية ، ويصير عنده خبرة بالشر فيحذّر غيره منه ؛ وكما قيل :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فيلزم العبد التواضع ، وينشغل بعيوب نفسه ويترك عيوب الناس .

هل يعني ما تقدم أن نتمنى حصول البلاء ووقوع المصائب لأنفسنا ، ونحرص على المعصية ؛ حتى نحصل على هذه الآثار وتلك العواقب ؟

الجواب : لا ، هذه الأشياء ليس من المطلوب منك تحصيلها ، ليس من المطلوب منك أن تسعى لحصول المرض ولا أن تفعل المعصية .

وعلى ذلك فهذه الأشياء متى تكون نعمة ؟ إذا حصلت للعبد بدون سعي منه واستفاد منها ، فصبر عند المصيبة وتاب عند المعصية ؛ لأنه من الممكن أن يزداد بعض الناس بالمصائب ضلالا وبالمعصية غيا . ويقول : لم قدرت عليّ ؟ وماذا فعلت ليحصل ذلك بي ؟ فيتسخط أقدار الله ويتبرم منها ولا يصبر على المقدور .

ويقول العاصي : قدرت عليّ المعصية ولم توفقني للتوبة ، فيزداد غيا إلى غيه .

أو يفعل المعصية ويصر عليها ولا يوفق للتوبة .

---

[1] – رواه أبو داود (4901) وصححه الألباني ، وهو في مسلم من وجه آخر مختصرا (2621)

فليس كل مبتلى يستفيد من بلائه ، ولا كل عاص يستفيد من عصيانه ، ولذلك ليس لنا أن نقع في المعاصي ولا أن ندعو على أنفسنا بالأمراض وحصول البلاء ونتعاطى ما يسبب المرض ، لا ، لكن لو وقع المكروه أحسن العبد التعامل معه ، فإن كان ذنبا تاب منه ، وإن كان مرضا صبر واحتسب .

هل يجب علينا أن نرضى بكل ما قدره الله ؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

وَأَمَّا رِضَانَا بِالْقَضَاءِ فَإِنَّمَا * * * أُمِرْنَا بِأَنْ نَرْضَى بِمِثْلِ الْمُصِيبَةِ

كَسَقَمٍ وَفَقْرٍ ثُمَّ ذُلٍّ وَغُرْبَةٍ * * * وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ

فَأَمَّا الْأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا * * * فَلَا تُرْتَضَى مَسْخُوطَةً لِمَشِيئَةِ

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ لَا رِضًا * * بِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ

وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِقَضَائِهِ * * * وَلَا نَرْتَضِي الْمَقْضِيَّ أَقْبَحَ خَصْلَةِ

وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةِ * * * إلَيْهِ وَمَا فِينَا فَنُلْقِي بِسَخْطَةِ

كَمَا أَنَّهَا لِلرَّبِّ خَلْقٌ وَإِنَّهَا * * * لِمَخْلُوقِهِ لَيْسَتْ كَفِعْلِ الْغَرِيزَةِ

فَنَرْضَى مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ * * وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الْخَطِيئَةِ [1]

فالجواب : أحد أربعة وجوه :

– نرضى عن المصائب دون المعائب ، إذا أصبنا بمرض بفقر نرضى ونسلم .

ما هو المطلوب عند حصول المصيبة ؟

الواجب عند حصول المصيبة الصبر أم الرضا ؟ الصبر؛ لأن الرضا يصعب على الخلق جدا ، هو مطلوب ولكن ليس بواجب لأن البشر لا يطيقونه ، الواجب هو الصبر ، وهو كف النفس عما حرم الله من التسخط ، وكف اللسان عن الشكوى ، وكف الأعضاء عن شق الجيوب وحثو التراب والصياح والنياحة ، فالصبر المانع من هذه المحرمات ، لكن أن تكون مطمئنا وراضيا

---

[1] – مجموع الفتاوى [8 /253]

كأنك لم تصب بمصيبة فهذا لا يطيقه كل الناس ولذلك فمن رحمة الله أنه أوجب علينا الصبر ولم يوجب علينا الرضا بمعنى أننا نفرح ونطمئن لو حصلت المصيبة .

وهناك من الناس من أعطاه الله هذه القدرة ، وهم قليل .

– التفريق بين القضاء والمقضي .

قال ابن القيم رحمه الله :

" قول سلف الأمة وجمهورها : أن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه وهو المشتمل على الخير والشر والعوج والاستقامة فقضاؤه كله حق والمقضي : منه حق ومنه باطل وقضاؤه كله عدل والمقضي : منه عدل ومنه جور وقضاؤه كله مرضي والمقضي : منه مرضي ومنه مسخوط وقضاؤه كله مسالم والمقضي : منه ما يسالم ومنه ما يحارب وهذا أصل عظيم تجب مراعاته "[1].

فنحن نرضى بالقضاء لأنه فعل الله والمقضي الذي هو فعل العبد ننظر فيه :

فإن كانت معصية فالإنسان يلوم نفسه عليها ، ولا يرضى عن نفسه فيها ، ولكن يرضى عن الله أنه كتبها وقدرها .

فمن جهة فعل الله وتقديره لا نقاش ، نرضى ونسلم ، ونقول الحمد لله على كل حال .

أما من جهة أنفسنا فنلوم أنفسنا على المعصية ، ونلومها على التقصير في أمور الدنيا إذا حصلت خسارة في تجارة ونحوها ، ونسعى إلى التوبة من المعصية ، وإلى تلافي الأخطاء في أمورنا الدنيوية ، ونرضى عن الله في الجميع .

فالشر والمعصية إذا أضفتها إلى الله خلقا وتقديرا وتدبيرا غير إضافتها إلى العبد فعلا واكتسابا وتركا .

فالرضا عن الله وعن افعال الله وليست على أنفسنا أو أفعالنا إذا كانت معاصي أو شرا .

---

[1] – مدارج السالكين [2 /499]

لكن قد يقول قائل :

وردت أحاديث تشكل علينا في موضوع القدر ؛ مثل ما روى البخاري (2067) ومسلم (2557) عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)

كيف يكون ذلك والعمر والرزق مكتوبان مفروغ منهما ؟

ينبغي أن نعلم أيها الإخوة أن المكتوب نوعان :

* مكتوب في اللوح المحفوظ ، فهذا لا تغيير فيه ولا تبديل ؛ لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل .

* ومكتوب في صحف الملائكة ، فهذا يقع فيه التغيير والتبديل .

قال تعالى : {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39]

فالمحو والإثبات هذا يكون في صحف الملائكة وما كتبته الملائكة وهذا هو القدر المعلق المقيد ، وأما القدر المثبت فهو الذي في اللوح المحفوظ لا تغيير فيه ولا تبديل .

فيكون مثلا في كتاب الملك أن فلانا يعيش ستين سنة بدون صلة رحم ، وإذا وصل الرحم يعيش ثمانين ، في علم الله السابق في اللوح المحفوظ مكتوب أحدهما ، لكن في صحف الملك : إذا لم يصل رحمه ستقبض روحه عند ستين سنة وإذا وصل رحمه عاش ثمانين .

هل الإنسان مخير أو مسير ؟

هذا سؤال يطرح دائما ؟

إذا قلت : مسير ، صيرتنا على عقيدة الجبرية فيكون الإنسان لا خيار له ولا إرادة ولا مشيئة ولا شيء ، مثل الريشة في مهب الريح .

وإذا قلت : مخير ، يفعل ما يشاء كما يشاء وقت ما يشاء صرت على عقيدة القدرية الذين يقولون الإنسان يخلق أفعاله بنفسه وينفون مشيئة الله وإرادة الله في أفعال المخلوقين .

فما هو الجواب الصحيح ؟

الصحيح أن الحق وسط بين القولين ، وهدى بين الضلالتين ، فالصواب أن الإنسان مخير باعتبار ومسير باعتبار :

فمن جهة أن له مشيئة وإرادة فهو مخير ، يمكن ان ترفع مصحفا لتقرأ فيه ، وممكن أن ترفع كأس خمر تشربه .

قال تعالى : {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف: 29] ، وقال تعالى : { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10]

لكن بالنسبة إلى ما قدره الله فالإنسان مسير ، ولا يستطيع أن يخرج عن قدر الله ولا شعرة .

قال تعالى : {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يونس: 22]

وقال تعالى : {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص: 68]

وهذه آية تجمع بين أن الإنسان مخير ومسير : قال تعالى : {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ *وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير: 28، 29]

فالإنسان مخير ومسير ، لكن هذه باعتبار وهذه باعتبار .

عندك اختيار وعندك إرادة ، لكن أي شيء تختاره وتفعله هو مكتوب عليك في اللوح المحفوظ .

وقد روى مسلم (4797) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

وروى أبو داود (4078) عن عُبَادَة بْن الصَّامِتِ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) [1].

لقد ضل في مفهوم القضاء والقدر فرق ، وحصل بسبب ذلك عدد من المصائب في هذه الأمة ، وباختصار : عندنا فرقة الجبرية وفرقة القدرية .

---

[1] – صححه الألباني في صحيح أبي داود .

وبدعة القدرية أول بدعة وقعت في الإسلام ، معبد الجهني في البصرة ، وغيلان بن مسلم في دمشق ، أخذ معبد الكلام في القدر عن رجل يقال له سوسن ، ثم أخذه غيلان عن معبد .

قال الأَوْزَاعِيّ : أول من نطق في القدر سَوْسَنٌ بِالعِرَاقِ كَانَ نَصْرَانِيّاً فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَنَصَّرَ، فَأَخَذَ عَنْهُ مَعْبَدٌ وَأَخَذَ غَيْلاَنُ القَدَرِيُّ عَنْ مَعْبَدٍ.[1]

قال القدرية إن العبد يخلق أفعاله بنفسه ، والله لا يخلق أفعال العبد . وهذا شرك في الربوبية .

وخرج في المقابل الجبرية الذين يقولون : إن الإنسان مجبور على فعله ليس له خيار ، وهذا مذهب إبليس الذي قال {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: 16]

وكذلك غلاة الصوفية الذين يقولون : ما نفعله مقدر ومكتوب فلا تلومونا على المعاصي والمنكرات التي نقع فيها .

وكلا الطائفتين منحرفة عن صراط الله المستقيم .

وبناء على ما تقدم : ينبغي علينا أن نتجنب ما يلي :

– الاحتجاج بالقدر على المعاصي، وهذا من أسباب استشراء المعاصي بين الناس .

– ترك الأخذ بالأسباب ، وهذا بينا فساده والرد عليه .

– التخلي عن مساعدة المنكوبين والمحتاجين بدعوى أن ما حصل لهم بإرادة الله .

أخطاء متنوعة في باب القدر يقع فيها كثير من الناس

– وصل الانحراف ببعض الناس إلى أن تركوا الدعاء وقالوا: علمه بحالي يغني عن سؤالي .

وهذا مذهب كثير من الصوفية ، وهو خلاف قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ)[2]

والدعاء من قدر الله ، الدعاء قدر صاعد يرد قدرا نازلا بإذن الله .

فبين السماء والأرض أشياء كثيرة محجوبة عنا .

أشياء صاعدة وأخرى نازلة ، ولا يدري عنها شيء أحد من العالمين .

---

[1] – سير أعلام النبلاء (5/ 104)

[2] – رواه الترمذي (2139) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي

فلا بد لنا من الدعاء ، وأما قولهم " علمه بحالي يغني عن سؤالي " فهي عبارة صوفية منحرفة ، وقد سأل اللهَ تعالى أنبياؤُه ودعوه ، قال تعالى : {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 83 – 90]

وأيضا قول بعضهم : " اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه " عبارة خاطئة .

بل نحن نسأله أن يرد القضاء السيء ؛ كما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ .[1]

فنسعى في رد قدر الله بقدر الله ، لأن هذا الدعاء قدر ، فإذا كان دعاء قويا خالصا متقبلا رد الله به سوء القضاء .

ومن الأخطاء الشائعة أيضا : قول بعض الناس : شاءت الظروف ، وشاءت الأقدار .

وهذا خطأ ؛ لأن الظروف والأقدار ليس لها مشيئة، المشيئة لله وحده .

وقول بعضهم " ما شاء الله وشاء فلان " نوع من الشرك ، إنما يقال : ما شاء الله ثم ما شاء فلان .

الجزم بحدوث شيء في المستقبل وعدم قول إن شاء الله خطأ آخر . قال تعالى : {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الكهف: 23، 24]

كذلك من الأخطاء العظيمة : استطلاع القدر والمستقبل عند الكهان والمنجمين .

وكذا : التألي على الله ، كأن يقول : والله لا يغفر الله لفلان ، والله لن يسامح الله فلانا .

---

[1] – متفق عليه .

وما أدراك ؟ هؤلاء عباده يفعل فيهم ما يشاء سبحانه .

قول كلمة " لو " عند حلول المصيبة ، قال تعالى : {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } [آل عمران: 168] وهذا قول ضعاف الدين .

وكذا الاعتراض على القدر بأي كلمة .

وكذا تمني الموت ، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)[1]

وليس كما قال القائل :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه ** فهذا العيشُ ما لا خَيرَ فيهِ

ألا موتٌ لذيذُ الطعمِ يأتي ** يُخَلِّصَنِي من العيشِ الكَريهِ

إذا أبصرتُ قبراً مِن بعيدٍ ** وددتُ لو أنني مما يليهِ

ألا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍ ** تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ !

فإن هذا قول يائس لا يحسن الظن بالله .

والموت يقطع الإنسان عن العمل الصالح وعن التوبة ، ولذلك قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ)[2]

وفي رواية : (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[3]

فالحياة للمسلم خير ؛ لأنه لو كان مطيعا ازداد طاعة ، ولو كان عاصيا فعسى أن يتوب .

ومن أعظم المصائب الإقدام على الانتحار ، قال تعالى : {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء: 29]

---

[1] – متفق عليه .

[2] – رواه البخاري (7235)

[3] – رواه مسلم (2682)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)[1]

كذلك من التسخط على القضاء والقدر التسخط على البنات ، على مذهب أهل الجاهلية كما قال تعالى : {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [النحل: 58، 59]

فالذي يسخط على البنات يرد هبة الله ، وفيه إهانة للمرأة وخاصة أم هذه البنت .

وترى الواحد منهم إذا بشر بالذكر فرح وتهلل وجهه ، وإذا بشر بالأنثى صدم وسكت .

ولعل هذه البنت تكون خيرا وبركة على أهل البيت ، ويكون الولد بعكس ذلك .

فلماذا هذه الإهانة للبنت ولأمها ؟ ولماذا هذا التشبه بأهل الجاهلية ؟

والنساء نصف المجتمع ، ويلدن لنا النصف الآخر .

وهذا أمر ليس بيد احد من الناس ، لا البنت ولا أمها ولا غيرهما ، وقد قال الله تعالى : {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: 49، 50]

وأقل الأحوال المطلوبة أن لا يسخط الواحد منا إذا رزق بالبنت .

حبذا من نعمة الله البنات الصالحات

هن للنسل وللأنس وهن الشجرات

وبإحسان إليهن تكون البركات

إنما الأهلون أرضون لنا محترثات

[1] – متفق عليه .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ : (مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فأحسن إليهنّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ)[1]

فعلينا أن نرضي بما رزقنا الله ، ونسأل الله فيه الخير والبركة .

ومن العبارات المنكرة على ألسنة العوام قول بعضهم إذا نزل مطر كثير : " هذه قطرة ما وزنت " وقد قال الله تعالى {كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: 8] ، وقال عز وجل : {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر: 21]

فلا تنزل قطرة من السماء إلا بمشيئة الله تعالى وعلمه وحكمته .

وأيضا : أحيانا إذا مات شخص يتساءل بعضهم : " مات قضاء وقدرا ، أم شيء ثاني " ؟!

كل شيء بقضاء الله وقدره ، لا يخرج عن ذلك شيء أبدا .

ومثله قول بعضهم في الحادث يحدث " هذه ليست جريمة ولا مدبرة ولكن قضاء وقدر فقط "

وكأنها لو كانت جريمة مدبرة كانت تكون شيئا ثانيا غير القضاء والقدر !

وبعض الناس يقول في التعزية " البقية في حياتك " ولو كانت في حياته بقية ما مات ، قال تعالى : {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: 34] ، وقال عز وجل : {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل: 61]

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الراضين بقضائه وقدره ، العاملين بشرعه ودينه ، والمستقيمين على أمره .

---

[1] – متفق عليه .

هذا ما تيسر جمعه في باب العقيدة الإسلامية ، نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين الثبات على دينه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله .